جورج فريحه

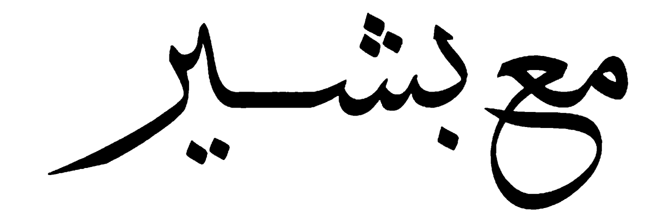
مع بشير

ذكريات ومذكّرات



دار سائر المشرق

جورج فريحه



ذكريات ومذكّرات



الطبعة الأولى
٢٠١٧

جديدة المتن - سنتر بايلايان - الطابق السابع
رقم الهاتف والفاكس 01-900624
info@entire-east.com
www.entire-east.com

ISBN: 978-614-451-078-0

تنفيذ الكتاب: **creative couple**
www.creativecoupleart.com

إلى فيفيان موريس الجميّل،

شريكة عمري ورفيقة دربي،
مثال الحبّ والحنان، التي رافقت بشير معي، بكلّ إخلاص ومحبّة،
حتى استشهاده.

كلمة شكر

إلى أنطوان سعد، ذوّاقة كلمة، ذوّاقة أسلوب، يأبى أن تُنفض يداه عن كلمة أو كلمات، إلا ويلاحقها، ليوقظ حسنها ويبيِّن نزوعها إلى الأحسن، إلى الأجمل، ولربّما إلى الكمال.

وكلمة شكر أيضًا إلى زوجتي فيفيان، وأولادي الثلاث، هلا وفادي وجوزف، وإلى فاديا صليبي وكريستين سانوسيان، الذين أسهموا في جعل الكتاب متوازنًا في مضمونه وأسلوبه.

وشكر خاص إلى السيدة حنان صادق ومؤسسة بيار صادق.

المقدمة

ورث جاهًا كبيرًا عن عائلة عريقة في السياسة فكانت إطلالته سريعة كالسهم. تضافرت عنده مجموعة مزايا قلّما وجدتُها عند شاب حديث العهد في دنيا السياسة. يتكلّم من مركز قوة من دون تعقيدات وببساطة فائقة. ينقل رسالته بأمانة وصدق ويبسِّطها مهما كانت صعبة. قال كلمته قبل خمسة وثلاثين سنة، ولا يزال صداها يتردّد كأنها قيلت اليوم.

أحببته كثيرًا كثيرًا. علاقتي به بدأت في مستشفى الجامعة الأميركية حيث كان خاله الشيخ موريس الجميّل يعاني من ذبحة قلبية أصابته في البرلمان وطالت لبضعة أيام قبل أن تودي بحياته. وكان يحبّ خاله الشيخ موريس ويقول عنه: «هذا العظيم لم يفهمه أحد، فعمل وحده مع فريق لم يتعاطَ السياسة وصمّم وحده وخطّط وحده وكاد أن يصل إلى القمة، لولا الأغبياء من حزب الكتائب وخاصة المقربين منه».

تكرّرت بعدئذٍ لقاءاتي ببشير على مدى سنة، فكان أوّلها في دعوة إلى دار والده في كانون الثاني ١٩٧١، جمعت عددًا من أساتذة الجامعة الأميركية، جاءوا يشكون سيطرة طلاب الأحزاب اليسارية على الجامعة. وقد اكتشفت في ذلك الظرف شخصيته القيادية المقدامة القادرة على تحدّي الظروف الصعبة بشجاعة ورباطة جأش، والمستعدّة لخوض مواجهات يخشى الناس العاديون غمارها.

تعدّت لقاءاتي به الصعيد التربوي إلى الاجتماعي والسياسي، فتكاثرت الاجتماعات وخاصة في منزلي الذي أصبح منزلًا له. وكانت مضيفته الأولى زوجتي فيفيان وهي صغرى البنات السبع لخاله موريس الجميّل، وكان يناديها «أختي الصغيرة». قدّرها كثيرًا خاصة لنصائحها الصريحة والبريئة والمخلصة ولاشتراكها الأساسي في جمع التبرّعات لمساندة العمل العسكري لقوّاته، مما جعله يتردد

إلى منزلنـا وكأنـه منزلـه، لا يتـوانى في جعلـه مركـزاً للاجتماعـات وموئـلًا للشـخصيات والنــدوات.

كانـت فيفيـان تأمـل أن يتابـع بشـير مسـيرة أبيهـا في الإخـلاص والتفـاني للبنـان، ويتبـوّأ مـا أبعـده عنـه أقـرب النـاس إليـه، وهـو الرئاسـة. ولمـا انتُخـب بشـير، وفَـتْ فيفيـان نذرَهـا، وصلّـت مـن أجـل نجاحـه، وخاصـة عندمـا قـال لهـا قبـل يومـين مـن استشـهاده وهـو يشـاهد أطفالنـا الثلاثـة نائمـين كالملائكـة: «أعـدكِ بأنـه لـن يتيتَّـم طفـل في لبنـان بعـد اليـوم».

يـا بشـير، لقـد تيتَّـم طفـلاك وجميـع أطفـال لبنـان بعـد استشـهادك. وهيهـات أن يأتينـا بشـير آخـر ليخلّصنـا. كنـت حلمنـا الجميّـل وإننـا نعيـش كلّ لحظـة هـذا الحلـم.

هـذا الكتـاب هو ذكرياتي ومذكّـراتي معه عسى أن أوفيه بسردهـا بعضًا من حقّه.

الفصل الأول:

آل الجميّل والرئاســـة

تعاقبت من آل الجميّل شخصيات مرموقة لمدة ثلاثة قرون على مقدمة الأحداث السياسية، وبرز منها أربعة رُشِّحوا لرئاسة الجمهورية اللبنانية. فمن أرشيف أنطوان شعبان والشيخ سامي ميشال الجميّل وصهره لويس إنجا، سجّلنا المعلومات التالية:

الشيخ يوسف الجميّل:

هو ابن بشير الجميّل (أبو علي) وشقيق الدكتور أمين الجميّل، والد الشيخ بيار الجميّل. له ستة إخوة وأختان، واحدة تدعى عفيفة وهي والدة الشيخ موريس الجميّل. ولد سنة ١٨٧٤ وتخرّج من كلية الصيدلة في الجامعة اليسوعية سنة ١٨٩٤، وانتظر حتى عام ١٩٣٥ كي ينشئ «صيدلية الجميّل». قبل ذلك، عمل الشيخ يوسف مع أخيه الدكتور أمين وأبناء عمّه كنج والياس الجميّل في زراعة التبغ وصناعة السجائر العصرية، فأنشأوا في جنوب لبنان وشماله حقولًا خاصة لزراعة التبغ.

أثناء الحرب العالمية الأولى، وهربًا من ظلم الأتراك، ويقال إنه كان مطلوبًا لينضمّ إلى شهداء لبنان، انتقل الشيخ يوسف إلى الإسكندرية في مصر وعاد منها إلى بيروت بناءً على استدعاء من جورج بيكو. ومن بيروت، سافر إلى باريس في سنتين متتاليتين ١٩١٩ و١٩٢٠، مع الوفد البناني للمطالبة باستقلال لبنان. وقد ضمّ الوفد آنذاك إميل إده وتوفيق أرسلان ويوسف الجميّل برئاسة المطران عبد الله الخوري. على أثر ذلك، اجتمعت الهيئة الإدارية في جبل لبنان برئاسة حاكمه القومندان لابرو، وأعلنت استقلال لبنان ورفعت العلم اللبناني، وهو نفس العلم الفرنسي بزيادة أرزة خضراء في وسطه.

رفض الشيخ يوسف تولّي مسؤوليات سياسية، إذ عُرضت عليه بإلحاح من قبل جورج بيكو والجنرال غورو والجنرال فيغان ودي جوفنيل مراكز حكومية عالية، ومنها رئاسة الجمهورية مرتين، فرفضها قائلًا: «لا أريد أن أكون موظّفًا في دولة غير مستقلّة». غير أن ذلك لم يثنه عن الجهاد خلال النصف الأول من القرن العشرين وبكل قواه، في سبيل المحافظة على حقوق لبنان واستقلاله.

الشيخ موريس الجميّل:

ولد الشيخ موريس الجميّل سنة ١٩١٠.

في خريف العام ١٩٧٠ ما كدت أعود من رحلة شهر العسل، حتى صعقني نبأ سقوط فارس من ألمع فرسان هذا العصر علمًا، وطهارة كف، وكرم خلق ونصاعة وجدان، وحدّة ذكاء، هو الشيخ موريس الجميّل. سقط وهو يتلو قانون إيمانه بلبنان أمام ممثلي الأمة تحت قبة البرلمان. إنهار قلبه الكبير تحت عبء المتاعب والهموم. وفي مستشفى الجامعة الأميركية الذي استقبل موريس الجميّل في ساعاته الأخيرة تعرّفت على بشير الذي أمضى لياليه في ردهة الانتظار، ليتسقّط عن كثب تطور صحة خاله المتدهورة من سيئ إلى أسوا. فالمريض غالٍ على قلبه وقلب أمه وقلوب الأنسباء جميعًا، وشفاؤه، وفي ذلك الظرف، مرتجى بقوة، كي تعود العائلة ملتفة ومتضامنة، بعد خلافٍ طارئٍ بين الشيخين بيار وموريس. فالشفاء كان ضرورة ملحّة لا بد منها، لئلا تتحرّك ألسنة السوء، وتربط المرض بالجفاء الحاصل، وما أدّى إليه هذا الجفاء من ضغط على «الخال» الرهيف الحسّ، السريع التأثّر بما يأتيه من أقرب الأقرباء إليه.

لا أدري ما هي التفاصيل والأسباب التي نجم عنها ذلك الخلاف، وما انتهى إليه من نفور لا يخفى على المراقب البعيد، لكنني عرفت فيما بعد من أحاديث عائلة موريس، ومن بعض مصادر حزب الكتائب، ومن بشير بالذات، ثم من مذكرات رئيس استخبارات الجيش اللبناني العقيد أنطون سعد، التي نشرت في مجلة «الصيّاد» بأن الخلاف القائم بين الشيخ بيار والشيخ موريس في صيف ١٩٧٠ كان سببه رئاسة الجمهورية.

كانت ولاية الرئيس شارل حلو على وشك الانتهاء والتحضير لانتخاب بديل على قدم وساق قبل أيلول ١٩٧٠، والمجلس النيابي مقسومًا بين نواب «النهج» المؤيّدين للرئيس فؤاد شهاب ونواب الحلف الثلاثي بزعامة الرئيس كميل شمعون والشيخ بيار الجميّل والعميد ريمون إده. وبما أن عدد النواب في التكتلين كان متقاربًا جدًا والفوز غير مضمون لأي منهما، وبعدما قرّر الرئيس فؤاد شهاب العزوف عن الترشّح، أوفد الرئيس شارل حلو تباعًا من قبله بعض أركان «النهج» مثل رئيس مجلس النواب آنذاك صبري حماده ورئيس مجلس الوزراء رشيد كرامي والسفير جوزيف أبو خاطر، ليقنعوا الشيخ موريس بالترشّح لرئاسة الجمهورية، ثم بإقناع الشيخ بيار بتبنّي هذا الترشيح، وبعده سائر أركان «الحلف»، فتتوحّد زعامات البلاد على انتخاب الشيخ موريس رئيسًا للجمهورية.

كثرت المحادثات والمفاوضات في هذا الشأن، وتسرّبت الفكرة إلى كثيرين، فأصبحت همسًا ثم أضحت زيارات تهنئة إلى منزل الشيخ موريس. كان طبيعيًا ومرتقبًا أن يوافق الشيخ بيار على ترشيح نسيبه (ابن عمته) وعضو مجلسه السياسي في الحزب وفوق ذلك ألمع مفكري لبنان الذي شغل مناصب دولية بارزة أهمها رئاسة المنظمة العالمية للتغذية (FAO). لكن «أولاد الحلال» كثر و«مبيّضي الوجوه» أكثر و«الغيارى على البلاد» لا يُحصَون من حزبيين وغير حزبيين، فأدخلوا في رأس الشيخ بيار أنه الأفضل له أن يترشّح لرئاسة الجمهورية بدلًا من موريس، وأن الرئيس حلو إنما عرض موريس من باب تفكيك الصف في «الحلف» ليس إلا.

إستساغ الشيخ بيار فكرة ترشيحه من قبل «الغيارى»، وعمل شخصيًا وبواسطة بعض أركان المكتب السياسي في الحزب وخاصة جوزيف شادر على تثبيت هذا الترشيح، وعلى قطع الطريق على وصول موريس إلى رئاسة الجمهورية. وزاد في هذه الدغدغة موقف الرئيس شمعون الذي أقنع الشيخ بيار بأنه لو كان الرئيس حلو صادقًا في توحيد الرأي والكلمة على مرشح واحد، لكان رشح بيار الجميّل لأنه ليس هناك أفضل منه. صدّق بيار الجميّل خدعة شمعون وسهى عن باله أن موريس مقبول أكثر منه في الأوساط الإسلامية والنهجية، لأن مسلكه السياسي ومسلكيته الوطنية جعلا منه، رغم كونه كتائبيًا، أكثر السياسيين انفتاحًا على جميع مكوّنات المجتمع اللبناني، وعلى المحيط الشرق أوسطي، ولأنه أكثر العلماء

والمفكرين جاذبية وقدرة على العطاء في المحافل والأوساط الدولية حيث عرض في أكثر من مؤتمر عصارة أفكاره ومشاريعه وتصاميه الخلّاقة.

سهى عن بال الشيخ بيار كلّ هذا، وانجرف في السياسة الحزبية الضيّقة ففوت الفرصة على نسيبه وطبعًا عليه فتولّى الرئاسة سليمان فرنجية. ويقال أيضًا إنه أثناء انعقاد جلسة الانتخاب، تقدّم رشيد كرامي وصبري حماده وغيرهما من الشيخ بيار لإقناعه بالتنازل لمصلحة موريس فرفض رئيس الكتائب هذا العرض الأخير. بعد كلّ هذا، اضطر الشيخ موريس إلى تقديم استقالته من حزب الكتائب، لأنه اعتبر نفسه فاقدًا ثقة المكتب السياسي الذي أبعده عن فرصة تاريخية. والعجيب، كما رشح إلينا، أن المكتب السياسي، وأبرز أعضائه حينذاك جوزيف شادر، قَبِل الاستقالة، وأن المرحوم لويس أبو شرف لم يشأ آنذاك أن تمرّ هذه الحادثة من دون أن يفجّر غيظه على المواقف غير المسؤولة والمستهجنة من المكتب السياسي. والآتي مكتوب استقالة الشيخ موريس الجميّل من حزب الكتائب:

بيروت في ١٦/١٠/ ١٩٧٠

لجانب الأمانة العامة في حزب الكتائب اللبنانية الموقّرة

تحية وبعد،

إنني مع تقديري للدور الوطني الذي قامت به الكتائب اللبنانية في تاريخ لبنان، إن على صعيد الاستقلال والسيادة أو تنشئة الأجيال مواطنيًا، ومع إيماني بأن وجود الكتائب واستمرارها كحركة وطنية وحزب سياسي، لما يزل ضرورة ما دامت وجود الأوضاع متحكّمة في البلاد وما دمنا نعبر مرحلة ممارسة الديمقراطية عن طريق الأحزاب ولم نبلغ بعد مراحل الأرقى التي يرسمها العلم، مع كل هذا، ولأنه أتيح لي منذ زمن أن أنكبّ على شؤون الفكر من كافة نواحيه، وأن أطل على آفاق الخبرة المتنوعة، وأن أقف على مشارف المسؤولية على أكثر من صعيد، فقد تكوّنت لديّ رؤية للأمور تنبع من منطلقات متعدّدة ومتطوّرة ومتبدّلة بسرعة وباستمرار.

وطالما أن بَوْحي بما كان يشغل فكري في هذا المضمار بحماسة أحيانًا، كان سببًا لإزعاج رفاق عمر وجهاد ما كَنَنْتُ لهم يومًا سوى المحبة.

وبما أنني قد خرجت بعد طول تأمّل باقتناع بأنني قد بلغت مرحلة فكرية من التحرّر، لم يعد من الممكن معها أن أستمر سجين الأطر الحزبية، أية أطر حزبية، الأمر الذي يجعل استقالتي من الحزب ليس شهادة علمية، بل انسجامًا مع النفس وتوقًا لمزيد من الحرية.

لـــذلـــك،

وإذ أقدّم استقالتي من الحزب، أتمنّى لكم التوفيق، وأضع نفسي في تصرّفكم لكلّ خدمة وطنية أستطيع أن أسديها ضمن نطاق تحرّري من أي التزام.

عـــاش لبـــــــــنان

موريس الجميّل

حقيقة يجب أن تسجّل في تاريخنا المعاصر: فرئاسة الجمهورية كانت في متناول الشيخ موريس الجميّل، بل كان وحده في الساحة جديرًا بها، قادرًا على بلوغها بسهولة. وقد سمع من مؤيديه ومريديه كلامًا واضحًا وصريحًا في هذا الصدد. قيل له أقدِمْ، إقطَعْ الحبل، تخطّ المعارضة مهما يكن المعارض عزيزًا عليك... ولكنه أبى وفي نفسه مرارة القهر... خيّل إليه أن البلاد تتدهور، فآثر المحافظة على روابط العائلة. ولكن الحسرة تفجّرت في أعماقه آلامًا كاوية وخيبة قاتلة، وما استطاع قلبه تحمّل تلك الصدمة، فترنّح ثم انهار.

الشيخ بشير الجميّل:

ولد الشيخ بشير الجميّل في سنة ١٩٤٧.

في ٦ حزيران ١٩٨٢، دخلت إسرائيل إلى لبنان تحت شعار «السلام من أجل الجليل». توغّل الجيش الإسرائيلي في البداية إلى عمق ٤٠ كيلومتر من الحدود، ثم تابع زحفه إلى شمالي بيروت. وفي ١٤ حزيران ولدت هيئة الخلاص الوطني من شفيق الوزّان، فؤاد بطرس، بشير الجميّل، وليد جنبلاط، نبيه بري، ونصري المعلوف. ولكن جنبلاط رفض المشاركة فيها. ولم تكن لهذه الهيئة فعالية كبيرة على مجرى الأحداث، وقد يكون الرئيس سركيس أراد منها جمع بشير بقادة القوى الفاعلة على الأرض تمهيدًا لقيام تعاون بينه وبينهم في المرحلة التالية لو قُدّر له أن يحكم.

في ٢٤ تموز، أعلن بشير ترشّحه إلى رئاسة الجمهورية، بعدما تبنّته «الجبهة اللبنانية». ولكن ثلاثة من أقرب مستشاريه عارضوا هذا الترشيح هم سليم الجاهل وأنطوان نجم وجورج فريحه للأسباب التالية:

١. تسرّعه في الترشيح لأنه سيُنتخب ضمن النظام المتّبع لانتخاب رئيس الجمهورية عوضًا عن بلوغ الرئاسة بشكل ثوري.

٢. صغر سنه وعدم تحضيره لهذه المسؤولية.

٣. الشق الأكبر من المسلمين، وخاصة الطائفة السنّية ستقاطع الانتخابات.

لم يرضخ بشير لهذه المعارضة، فتابع مسيرته وانتُخب رئيسًا للجمهورية في ٢٣ آب ١٩٨٢، في الدورة الثانية ب ٥٧ صوتًا من أصل ٦٢.

إجتمع بشير مع كبار قادة الإسرائيليين مرتين بعد انتخابه: في نهاريا أولًا حيث لم يحصل أي اتفاق، وخاصة حول توقيع معاهدة السلام، وفي بكفيا حيث تمّ التوصّل إلى اتفاق بتفاصيله. (تفاصيل الاجتماعين موجودان في متن هذا الكتاب).

إستشهد بشير في ١٤ أيلول ١٩٨٢.

الشيخ أمين الجميّل:

ولد الشيخ أمين الجميّل سنة ١٩٤٢.

بعد استشهاد شقيقه، رشحّه الإسرائيليون عقب اجتماع حصل في بيت المستقبل بحضور عدد من أركان دولة إسرائيل وهم: شمير، وشارون، ودايف، وبيتر، وماندي، وكمحي وساغي وهوفي وأمين وأنا. وبعد أن أعلن أمين أنه يوافق على كلّ ما جرى من تفاهم واتفاق بين أخيه واسرائيل، رفعه شارون بيديه قائلًا: مات الملك عاش الملك. فانتخب رئيسًا للجمهورية في ٢١ أيلول ١٩٨٢ بأكثرية ٧٧ صوتًا من أصل ٨٠ نائبًا.

بعد فترة وجيزة، لم يفِ الرئيس أمين بوعوده، وتدخّلت الولايات المتّحدة وواكبت عملية التفاوض بين لبنان وإسرائيل التي نتج عنها اتفاق ١٧ أيار. هذا الاتفاق نال شبه إجماع اللبنانيين من النواب وأعضاء الحكومة وبعض رؤساء الدول الإسلامية، وقد وقّعه موريس درابير عن أميركا وديفد كمحي عن إسرائيل وأنطوان فتّال عن لبنان، لكن الرئيس أمين الجميّل لم يبرمه فعاقبته إسرائيل باستحداث حرب الجبل وتهجير المسيحيين.

الفصل الثاني:

إكتشافي لقدرات بشير الكامنة

بعـد لقـاءات عائليـة عابـرة، حتّمتهـا مقتضيـات المصاهـرة والنسـب لم تتخـط حـدود أدبيـات المجاملـة، وإن تخلّلتهـا بعـض المواقـف الطريفـة التـي لا مجـال للخـوض فيهـا في سياق هـذا الكتـاب، تسـنّى لي اكتشـاف حقيقـة قـدرات هـذا الشـاب المفعـم بالحيـاة والعـزم والطاقـة والشـجاعة في مناسـبتَين، في مطلـع سـبعينات القـرن المـاضي. الأولى خـلال الأيـام الأخـيرة مـن حيـاة الشـيخ موريـس الجميّـل في مستشـفى الجامعـة الأميركيـة، والثانيـة عندمـا طلبـت إدارة الجامعـة الأميركيـة مسـاعدتها عـلى التصـدّي لهيمنـة التنظيـمات والحـركات الطلّابيـة التـي تـدور في فلـك القـوى اليسـارية والفلسـطينية، عـلى حـرم الجامعـة ومسـارها التربـوي والوطنـي.

في مستشـفى الجامعـة الأميركيـة كنـا نتنـاوب، أصهـرة الشـيخ موريـس السـبعة، للسـهر بجانبـه في الأيـام السـبعة عـشر الأخـيرة مـن حياتـه. وكان بشـير يسـهر معنـا، وخاصـة معـي شـخصيًا، فكنّـا نصـل الليـل بالصبـاح، تـارة حـول سريـره في غرفـة العنايـة الفائقـة وطـورًا عـلى سـطح مستشـفى الجامعـة الأميركيـة حيـث كنـا ننظـر إلى الأفـق البعيـد ونتحـدث ونتكلّـم عـن وضـع لبنـان المـتردّي وننـسى موريـس المطـروح في الفراش.

رأيـت في بشـير هـذا الشـاب الثائـر الغاضـب الـذي يسـعى للخـروج مـن القمقـم الضيـق إلى فسـيح آمالـه ورؤيـاه في نهضـة لبنـان مـن كبوتـه والتغلّـب عـلى التحدّيـات الوجوديـة المتربّصـة بـه عـلى أكـثر مـن صعيـد.

بعـد نحـو أربعـة أشـهر، في كانـون الثـاني ١٩٧١، دُعيـتُ إلى اجتـماع في دار الشـيخ بيـار، حيـث اجتمـع عـدد مـن أسـاتذة الجامعـة الأميركيـة، جـاءوا يشـكون سـيطرة طـلاب الأحـزاب اليسـارية عـلى الجامعـة، أذكـر منهـم كـمال الصليبـي، وفـؤاد خـوري، ومـارون كـسرواني. دار يومـذاك الحديـث عـن الجامعـة و«مجلـس الطلبـة» المصبـوغ بلـون معـيّن تجسّـده فئـة مـن الطـلاب تعمـل عـلى مناهضـة الرابطـة اللبنانيـة التـي تضـم طلابًـا يتميّـزون بالنزعـة الوطنيـة اللبنانيـة الصرفـة، ويواجهـون مختلـف التيـارات الطارئـة والمسـتوردة. ونقـل المجتمعـون في ذلـك اللقـاء طلـب إدارة الجامعـة مسـاعدتها عـلى اسـتعادة سـيطرتها الأكاديميـة المفقـودة.

فقد كان «مجلس الطلبة» قوة سياسية هائلة، تتحكّم بمصير الجامعة الأكاديمي تحكّمًا شبه مطلق جعلها قادرة على تعطيل الدروس ساعة تشاء، وتنظيم التظاهرات والإضرابات على هواها، وتحتل المكاتب والأبنية، وتسيّر الحياة الجامعية برمّتها وفق ما تريد من غير أن يستطيع أحد أن يتصدّى لها أو أن يعاكس مشيئتها.

بعدما استمع بشير إلى شكوى المسؤولين عن الجامعة الأميركية، صارحهم من دون مواربة وعزا مشكلة الجامعة إلى سوء تصرّف الإدارة، وتساهلها في التعامل مع الطلاب، ما ساهم في تشجيعهم على المبالغة في الطلب، والتصلّب في المطالبة. وقال في نهاية الاجتماع إنه مستعد للتدخل ومحاولة إنهاء هذه الأزمة في يوم واحد، بشرط أن تنفّذ له الإدارة مطلبًا واحدًا لا غير وهو حلّ «مجلس الطلبة». ووعد بأن يقترح خطة على الإدارة في غضون ساعات.

صباح اليوم التالي، اتصلت باكرًا ببشير، وسألته عن خطّته، فأجاب بما عرفناه فيه من الوضوح والبساطة والكلام القليل: «تقوم رابطة الطلاب اللبنانيين باحتلال مضاد يؤدّي حتمًا إلى صدام مع الطلاب اليساريين والفلسطينيين، يعقبه تدخلّ السلطة عسكريًا وفك الاشتباك بين الطرفَين المتصارعَين. وعلى الأثر، يتدخّل رئيس الجامعة ويعلن حلّ «مجلس الطلبة». وهذا، كما قلت لكم أمس، مطلبي الوحيد، وبرأيي الوسيلة الوحيدة للانتهاء من الوضع الشاذ في الجامعة الأميركية».

كان من الطبيعي أن تستهول الإدارة هذه الخطة لا بل تستهجنها في البداية، ولكن بعد جدل طويل طال أسابيع، وافقت إدارة الجامعة على خطة بشير بانقضاض طلاب اليمين على الطلاب اليساريين، أينما وجدوا. وكما توقّع القائد الشاب، أدّت الصدامات الدامية إلى تدخّل القوات الأمنية المسلّحة واعتقال عدد كبير من الطلاب، وفرض الأمن في الحرم الجامعي. وسارعت إدارة الجامعة إلى أخذ قرارها الحازم المُتّفق عليه مع بشير والقاضي بحلّ «مجلس الطلبة».

أدّت هذه الأحداث إلى إعادة الأمور إلى نصابها في الجامعة الأميركية ونتج عنها تفكّك سريع في صفوف الفلسطينيين واليساريين في الانتخابات الطلابية التي جرت بعدها. وقد أسفرت عن فوز الرابطة، في انتخابات اللجان والجمعيات في معظم الكليات، بأكثرية المقاعد، فضمنت بذلك التمثيل الطالبي الصحيح، وأيقظت الفئة

الكبـيرة الصامتـة، فحملتهـا عـلى التحـرّك وإبداء الـرأي والاهتمام بالشـؤون العامـة. وكان الـرأي السـائد أن هنـاك موجـة تبلـورت عنـد الطـلاب بـضرورة أن يتحمّلـوا مسـؤولياتهم مـن أجـل أن تبقـى عجلـة الجامعـة سـائرة علميًـا ومزدهـرة أكاديميًا.

كانـت تلـك الحادثـة مناسـبة لي لـكي أكتشـف شـخصيته القياديـة المقدامـة القـادرة عـلى تحـدّي الظـروف الصعبـة بشـجاعة ورباطـة جـأش، وأخـذِ القـرارات الخطـرة وخـوض مواجهـات يخـشى النـاس العاديـون غمارهـا، فيتهرّبـون منهـا معتقديـن أن الوقـت كفيـل بإيجـاد حـلّ لهـا. أمـا بشـير فقـد كان مـن قماشـة أخـرى، وأشـبه بقيـصر مسـتعدٍ لتحمّـل المسـؤوليات الجسـام، لا وجـود في قاموسـه لعبـارة تـردّد أو تراجـع.

الفصل الثالث:

البداية من الأشرفية

قصــة بشــير في الأشرفيــة هــي قصــة انطلاقــه إلى العمــل الســياسي، إلى تحمّــل المســؤولية، إلى الانفتــاح والتخطّــي، إلى التحــوُّل مــن «الولــد المدلّــل» الموصــوم بالانفعــال، والحركــة اللاواعيــة، والطيــش الضاحــك، إلى رجــل السياســة الجــريء، الصريــح، رائــد التغيــير الــذي لم يتلــوّث ســلوكه بإغــراء المجــد والغــرور المتأثّــر بمظاهــر الشــهرة.

مــن الأشرفيــة انطلــق بشــير سياســيًا. فصــال وجــال، وتســلّق ســلّم الســلطة خطــوةً خطــوة، بمســيرة زاخــرة بالحيويــة، تجتــاز منــازل ودســاكر وشــوارع، وترصّعهــا خطبًــا ومؤتمــرات ومجالــس. ســحر الجميــع، واســتأثر بالقلــوب والمشــاعر.

بدأ مجهولًا، فأصبح شهيرًا، مالكًا، سيّدًا على المنطقة.

كان وفيًا للأشرفية، فقد استشهد فيها، وفي المبنى نفسه الذي منه انطلق.

تحملنــي الذكريــات إلى أيــام الفصــح، عــام ١٩٧٣، فصــح الــروم الأرثوذكــس الــذي يــأتي دائمًــا متأخّــرًا عــن فصــح الموارنــة والكاثوليــك. وكان فصــح الــروم يتميّــز أيضًــا بأنــه «يقيــم» المســيح بالرصــاص والمتفجــرات، كأن المســيح الأرثوذكــسي عميــق الســبات، ثقيــل الإغفــاء، لا يوقظــه مــن نومــه إلا هديــر الديناميــت ولعلعــة الرصــاص. ولمــا كنــت أرثوذكســيًا حريصًــا عــلى الطابــع التقليــدي والــدارج في مــدار العــرف والعــادة، تأهّبــت لاســتقبال العيــد، وهيّــأت نفــسي لمشــاركة أبنــاء طائفتــي في فرحهــم المتفجّــر وبهجتهــم المفرقعــة. فاشــتريت رشاشًــا جديــدًا، وعزمــت عــلى تجربتــه، للمــرة الأولى، في مهرجــان العيــد المجيــد.

نعم، هذا هو الواقع، وهذا ما كان.

لقد شوّهنا عيد الفصح. جعلناه فرصة لاختبار مختلف أنواع الأسلحة.

ولــن أنــسى، منــذ أن كنــت صبيًــا حتــى هــذه الســاعة، أن يــوم «إثنــين الباعــوث» المعــروف بالعاميــة باســم «الباعــود»، هــو يــوم النــار والرصــاص. كانــت الفئــات كلّهــا،

الأرثوذكسية وغيرها، تنتظر هذا اليوم، لتأتي إلى الكنيسة -وكانت كنيسة مار نقولا في الأشرفية أشهر الكنائس- فتهطل زخّات الرصاص مدرارًا ورذاذًا من كلّ عيار ونوع.

في ليلة الفصح هذه، جاءني بشير يقول: «ما رأيك في أن نتعشّى معًا، ونسهر إلى منتصف الليل، ثم نذهب «لنقيم» المسيح في كنيسة مار متر، ونجرّب رشاشك الجديد؟»

وافقت بنظرة إليه أغنتني عن الكلام، ثم ذهبنا معًا، تصحبنا زوجتي إلى مطعمٌ «ميرتوم هاوس» في شارع مي زيادة في القنطاري. أكلنا وشربنا النبيذ المعتّق حتى انتصف الليل.

كان بشير، في أثناء العشاء، متجهّمًا، مكفهر الوجه، مقطّب الجبين. وظلّ منكمشًا ساهيًا في معظم الوقت، تأخذه مخيلته إلى أماكن بعيدة، ولا تعيده إلينا إلا لمامًا. وهذا نقيض عادته، وغير ما عرفته فيه. سألته عما به، فأجاب: «أنا تعيس. ولتعاستي سبب واحد هو أني ابن بيار الجميّل».

ودار الحديث وتشعّب حول هذا الموضوع وفيه، فتبيَّن لي أن واقع بشير «البيتي» أو «العائلي» كان يزعجه إزعاجًا كبيرًا يصعب عليه تحمّله. يكبّل يديه، يثبط عزيمته، ويشلّ نشاطه. فلأنه ابن بيار الجميّل، لا يستطيع أن يطمح إلى أي عمل سياسي. فأبوه شديد الوطأة، يرفض أقلَّ تساهلٍ أو مسايرة في هذا الموضوع، حتى يمكن القول إنه أصبح معقّدًا، خصوصًا بعدما ظهر وما تداولت به الناس من مبالغة الرئيس سليمان فرنجية في تساهله مع ولده طوني. والجميّل الأب يأبى أن تتناوله ألسنة الناس بالنقد في ما يتعلّق بالعلاقات بينه وبين أبنائه.

ولا بد من الاعتراف بأن هذا الأمر، ولنقل هذه «العقدة» قد أثّرت في الشيخ بيار تأثيرًا بليغًا، حتى أنه، بعد وفاة الشيخ موريس، عارض حلول ابنه الشيخ أمين محل خاله في نيابة المتن الشمالي معارضة شديدة. وما تراجع عن معارضته هذه إلا لما اتخذ المكتب السياسي الكتائبي قرارًا بترشيح الشيخ أمين. وأصرّ الشيخ بيار على الإعراب عن استيائه فتغيّب عن الجلسة التي اتُخذ فيها هذا القرار، وكان سابقًا يشجّع ابنة موريس الكبرى منى على الحلول محل أبيها، ولكنها

رفضت. وهـذا يعنـي أن الشـيخ بيـار كان يعـارض دائمًـا ولديـه في مشـاريعهما السياسـية كلّهـا، مـما كان يحـزّ في قلـب بشـير ويحـدّ مـن طموحـه.

وصارحنـي بشـير، في ذلـك العشـاء، بـأن حـزب الكتائـب في الأشرفيـة ضعيـف جـدًا، وأن بيـت الكتائـب في المنطقـة مُهمـل لا يكـترث بـه أحـد، ولجنـة هـذه المنطقـة مهترئـة. وأضـاف أن هـذه اللجنـة راغبـة في إجـراء تغيـير يُحسِّـن أحوالهـا، ومنـه إبـدال رئيسـها جـان نـاضر بشـخص آخـر ذي حيويـة وحـزم ونشـاط، فـلا يجـوز التخـلّي عـن الأشرفيـة، وهـي «واجهـة السـحّارة» كـما كان يقـول عنهـا، فكيـف يمكـن تركهـا عـلى مـا هـي عليـه مـن الهـزال والاهـتراء؟

وكانـت لجنـة الأشرفيـة هـذه قـد لجـأت إلى بشـير، والتمسـت منـه العـون والحلـول محـل جـان نـاضر، فأجابهـا بأنـه يسـتحيل عليـه أن يلبّـي طلبهـا مـا دام أبـوه رئيسًـا للحـزب. وكثـيراً مـا حدّثنـي عـن هـذه المشـكلة والغصـة مـلء قلبـه.

خرجنـا مـن المطعـم وتوجّهنـا إلى كنيسـة مـار مـتر، وأقمنـا المسـيح عـلى الطريقـة الأرثوذكسـية، وعدنـا إلى البيـت حـوالي السـاعة الثانيـة صباحًـا.

المهمة الأصعب: إقناع الشيخ بيار

تأثّرنـا تأثّـرًا عميقًـا، زوجتـي وأنـا، مـن الحـال النفسـية القاتمـة التـي كان بشـير يتخبّـط فيهـا. فقـررت أن أعمـل شـيئًا، أن أبـذل محاولـة مـا في هـذا الشـأن. وحـوالي السـاعة التاسـعة صباحًـا، ذهبـت إلى منـزل الشـيخ بيـار، وكان لا يـزال في ثيـاب النـوم، فدُهـش لرؤيتـي في تلـك السـاعة المبكـرة، ولكننـي طمأنتـه، وتحدّثـت معـه في موضـوع بشـير. قلـت لـه إن الأشرفيـة بحاجـة إلى دم جديـد لتسـتطيع النهـوض مـن كبوتهـا التـي طـال أمدهـا، وبـات اسـتمرارها غـير جائـز. وأضفـت أن الـدم الجديـد المنعـش والقـادر عـلى تبديـل الأحـوال هـو بشـير.

إنتفـض الشـيخ بيـار مسـتاءً لـدى سـماعه هـذا القـول، ورفـض اقتراحـي بنـزق وحـزم. فـما اعتـبرت نفـسي مغلوبًـا، واسـتأنفت حديثـي محـاولًا إقناعـه بالبراهـين الواضحـة والحجـج الدامغـة والأرقـام. قلـت إن الحـزب في هبـوط مسـتمر في الأشرفيـة.

فبعد حرب ١٩٥٨ دخلها الشيخ بيار منتصرًا، كما دخل يوليوس قيصر روما، وما لبث أن ألّف لائحة انتخابية فازت بالتزكية. ولكنه بعد دورتين خسر الأرثوذكسي والكاثوليكي، فسقط من اللائحة فؤاد بطرس وخليل صحناوي، وفاز عوضًا عنهما ميشال ساسين ونصري المعلوف. وفي دورة أخرى خسر البروتستانتي، فتنازل عن سمير إسحق لمقعد أرمني.

واستطردت قائلًا: «ليس من المستبعد أن نخسر في الدورة الآتية مقعد جوزف شادر، وسبب هذا كلّه كون الوجود الكتائبي في المنطقة ضعيفًا، والقاعدة هزيلة تحتاج إلى إنعاش وتقوية».

تشدّد الشيخ بيار في رفضه. أبى التشبّه بسليمان فرنجية ونهجه مع ابنه طوني. فعدت إلى محاورته بكل ما أوتيتُ من الصبر وطول الأناة والقدرة على الإقناع وهدوء الأعصاب، وحتى «ثقل الدم». وكنت أشعر، بيني وبين نفسي بأنه مخلص وصادق في إصراره على الرفض، بقدر ما كنتُ مخلصًا وصادقًا في عزمي على إقناعه، فرحتُ أقدّم له مزيدًا من الحجج والبراهين المعزّزة بوقائع لا تترك مجالًا للشك. وأذكر أني أحدثتُ فيه تأثيرًا ملموسًا لما قلتُ له: «أليس من الإجرام أن يطمر طموح ابنك لسبب واحد هو أنه ابنك؟ أين العدل والإنصاف؟ ألا نرتكب خطيئة حين يُحرم بشير من حقه الطبيعي وحريته في التحرّك السياسي لأنه ابن بيار الجميّل، ولأن أباه يخشى لغط الألسنة؟

وقلت له أيضًا إني لا أطلب إليه أن يدعم بشير، ولا أن يساعده، بل أن لا يعرقل مسيرته، ولا يقطع عليه الطريق ليمنعه من الوصول إلى أهدافه.

لان موقف الشيخ بيار قليلًا، فشجّعني ذلك على أن استطرد، وأستفيض، وأزداد نبضًا وتركيزًا وتوضيحًا، حتى ضاق صدره، فصاح بي صيحة من اكتفى، ومن يأبى مزيدًا على ما سمع لئلا يتحرّك فيه ضعف العاطفة، بل حنان الأبوة، فقال بنبرة حادّة جازمة: «أعدك بأن لا أقف على دربه قاطعًا عليه الطريق، ولا أمنعه من متابعة مسيرته، ولكن حزبنا ديمقراطي. لا يمكن أن يُعمل فيه شيء إلا بالطرق الديمقراطية. عليه أن يتدرّج في الحزب وخاصة في الأشرفية.

إكتفيت بما سمعت. قررت أن أجعل هذا الوعد خاتمة الحوار. فخرجت من غرفة الشيخ بيار. وفيما كنت أجتاز الدار، سمعتُ صفيراً خافتًا. حوّلت نظري إلى مصدره، فرأيت بشير يطلّ من نصف فتحة باب غرفته. أومأ إليّ بإشارة استفهام تسأل، بلا كلام، عن نتيجة الاجتماع، فرددتُ عليه بإشارة صامتة تدعوه، بلا كلام أيضًا، إلى أن يلحق بي إلى منزلي.

بعد نصف ساعة أو أقل، قرع بشير باب بيتي. فأخبرته بما كان بين أبيه وبيني. واقترحت عليه أن يبادر إلى تهيئة الأجواء مع رؤساء الأقسام ليُعرَض اسمه بصيغة اقتراح ومطالبة بأن يتولّى شؤون الأشرفية. فيُبحث هذا الاقتراح في المكتب السياسي، ويُتّخذ بصدده قرار لن يعارضه الشيخ بيار.

خرج بشير مبتهجًا، وتوجّه إلى بيت المنطقة. ولم أطّلع اطلاعًا تامًا على تفاصيل ما حدث. ولكنني علمت، فيما بعد، أن هفوةً كبيرةً قد ارتُكبتْ، خلاصتها أن رؤساء الأقسام اجتمعوا، وذهبوا جميعًا، دفعةً واحدة، لمقابلة الشيخ بيار، وتهنئته بالعيد، ثم طلبوا إليه أن يعتبرهم مستقيلين من مسؤولياتهم الحزبية، إنْ لم يتسلّم بشير رئاسة المنطقة. وما اكتفوا بالكلام، بل قدّموا رسائل خطية تثبت عزمهم على تنفيذ القرار الذي اتخذوه.

كان الشيخ بيار قد استقبلهم مبتسمًا، فرحًا. ولما صدموه بقرارهم الجازم، تملّكه الغيظ، فأنّبهم تأنيبًا قاسيًا، ودعاهم إلى مغادرة بيته فورًا. وقد أخبرني أحدهم، الشهيد ساسين كرم، أن الشيخ بيار ما عبّر عن غضبته بالحكي وحده، بل دفشهم دفشًا إلى خارج منزله، «ودركبهم على الدرج»... فإذا بنا نعود إلى نقطة الصفر!

في هذه الأثناء وقرابة الساعة الواحدة بعد الظهر زارني بشير غاضبًا ومتأسّفًا وقال لي: «خرّبتُها لأنني أرسلت رؤساء الأقسام لكي يُهدّدوا باستقالتهم، إذا لم أعيَّن رئيسًا لمنطقة الأشرفية»، طالبًا إليّ محاولة ترتيب الوضع. وعلى الفور، قصدتُ منزل الشيخ بيار، فاستقبلني معاتبًا على تصرفات بشير. فأقنعته بأن لا دخل لبشير بالموضوع وهو مقتنع بألا يحل مكان جان ناضر وأنه يعمل لمساعدته في نهضة الكتائب في الأشرفية. إقتنع الشيخ بيار، وأصرّ على أن يتدرّج بشير في تعاطيه بقضايا إقليم الكتائب في منطقة الأشرفية.

إستأنفنا بذل الجهود، وأقنعنا رؤساء الأقسام بأن يذهبوا مرةً ثانية إلى الشيخ بيار، ويعتذروا منه، ويعربوا عن ولائهم، وعن موافقتهم سلفًا على قرارات المكتب السياسي بلا قيد أو شرط.

إنتشر الخبر بسرعة النار في الهشيم. وتناقله الناس مؤكّدين احتمال مجيء بشير مسؤولًا عن الأشرفية. وتأثّرت به الأوساط الحزبية فضلًا عن أوساط المنطقة. فما كان من جان ناضر، رئيس هذه المنطقة الحزبي إلا أن قدّم استقالته إلى مصلحة بيروت، فرفضها بيار صايغ رئيس المصلحة لأنه اعتبرها نتيجة عملية ضغط مؤذية. ولما طُرحت قضية بشير على المكتب السياسي، جاءت النتيجة حلًا وسطًا، فجرى تعيينه نائبًا لرئيس المنطقة، وبقي جان ناضر رئيسها. وهذا تدبير حكيم، وعلى جانب كبير من الذكاء صان كرامة جان ناضر، وأدخل بشير، في الوقت نفسه، إلى المعترك السياسي، ولكن من الباب الصغير.

وعد البقاء مع بشير حتى النهاية

إستدعاني الشيخ بيار إلى منزله بعد يومين، وقال لي: «الآن، وقد عُيّن بشير في الأشرفية من غير أن أعترض على تعيينه، برًا بالوعد الذي قطعتُه لك، بقي لي مطلب واحد. أريدك أن تعمل على تنفيذه، وهو أن تبقى إلى جانب بشير، لا تتركه ولا تبتعد عنه. فهو حديث العهد في السياسة، يفتقر إلى الكثير من الخبرة والمرونة والحنكة. فإبقَ معه دائمًا».

وعدته بأن أفعل. وكان قولي عهدًا قطعته على نفسي، وهو في أول الطريق الطويلة التي سرنا عليها معًا، بشير وأنا. وبما أني لم أكن حزبيًا، وبما أن نظام الحزب يقضي بأن يكون أعضاء لجنة المنطقة من الحزبيين فقط، ولما كانت في الحزب مصلحة تحمل اسم «أصدقاء الكتائب»، تولّيت رئاسة «لجنة أصدقاء الكتائب في الأشرفية» وتمكّنت، بهذه الصفة، من أن أكون عضوًا في لجنة المنطقة.

كان نشاطنا في البدء محدودًا بسبب ضآلة الإمكانات المادية والبشرية. فمن الناحية المادية، كنا نتبرّع آخر كلّ شهر، من مالنا الخاص، لتسديد فواتير التلفون والكهرباء، ومن الناحية البشرية، كان عدد الكتائبيين قليلًا لا يتجاوز بضع عشرة شخصًا.

وضعتُ برامج العمل وقسّمتها شطرين: شطرًا اجتماعيًا يعمل على جمع الطاقات في الأشرفية وتشغيلها في فلك بشير تشغيلًا تفاعليًا مستمرًا عبر اجتماعات وندوات وسهرات ورحلات ومراحل تدريب. وقد أُنيط هذا الشطر بي، لكوني رئيس «لجنة أصدقاء الكتائب». أما الشطر الآخر، فكان سياسيًا عسكريًا يرتبط مباشرة ببشير لكونه نائب رئيس المنطقة، ونائب قائد القوى النظامية آنذاك المرحوم الشهيد وليم حاوي.

باشرنا العمل بجدٍ ومثابرة، فاتصلت بجماعات من أبناء الأشرفية على مختلف المستويات، مثلًا، بأبناء بعض العائلات العريقة، من ضمن ما يُعرف بالعائلات السبع وهي المتوغّلة الجذور في الأشرفية أصلًا واستمرارًا. واتصلت أيضًا بأبناء بعض العائلات المتوسطة، وأخرى لها معالم «المرجلة» وفرض النفس والهيبة، أعني «القبضيات».

عقدنا اجتماعات في المنازل. وكنا نقوم بزيارتين في الأسبوع، للبحث في مختلف الموضوعات المطروحة على الساحة اللبنانية. وكان أهمّها آنذاك الوجود الفلسطيني المسلّح المتزايد، والمتطاول، والمتحدّي، والمتعاطف مع فئات يسارية في غمرة مقلقة من الاستغلال المتبادَل.

روبرتز رولز (قوانين روبرتز)

لما انتُدب بشير نائبًا لرئيس منطقة الأشرفية، تنحّى جان ناضر قليلًا وتخلّى له عن صلاحيات كبيرة، منها تولّي رئاسة اجتماع لجنة المنطقة كل يوم ثلاثاء. وكانت هذه اللجنة مؤلّفة آنذاك من رؤساء الأقسام والمكاتب ورئيس لجنة أصدقاء الكتائب.

لم تكن في البداية الاجتماعات التي تولّى بشير رئاستها على ما يرام من التنظيم والترتيب والانضباط. كانت شبه فوضويّة، يسودها الهرج والمرج على غرار ما كانت عليه منذ نشوئها، ولا سيّما في ظلّ جان ناضر. فلا جدول أعمال، ولا محاضر محترمة، ولا سجلّات مصنّفة ومبوّبة ومحفوظة في إدارج معيّنة. وكان أمين السر جورج باخوس حرًّا مطلق اليدين والإدارة، يكتب في المحضر ما يشاء

ويحـذف مـا يشـاء، مـن دون قاعـدة لـه ولا ضابـط، ولا دليـل يرشـد إلى اتجاهاتـه ومراميـه. وكلّـما كنّـا نلفـت نظـره إلى خطـأ، أو استرسـال، أو شـطحة، كان يلملـم أشـياءه مغتاظًـا متذمّـرًا مدمدمًـا، ويهـمّ بمغـادرة ردهـة الاجتـماع مهـدّدًا بالاسـتقالة. وكـم مـرّة اضطررنـا إلى مطاردتـه وتطييـب خاطـره ليعـود إلى مزاولـة عملـه في ارتـكاب الأخطـاء، والتـمادي في الاسترسـال، وإطالـة الشـطحات. فـما رضي يومًـا إلا بـأنْ يـدوّن عـلى هـواه مـا يـراه هـو مناسـبًا.

أمـا بشـير فـكان يتـولّى رئاسـة الاجتماعـات بـدون خـبرة سـابقة، فينتقـل مـن موضـوع إلى آخـر بـلا سـبب واضـح، ويقفـز مـن هـذه القضيـة إلى تلـك. وقـد حرصـت عـلى أن اسـترعي انتباهـه إلى هـذا الأمـر بعـد كل اجتـماع، ومـا تـردّدتُ مـرارًا في تحذيره مـن تكـرار هـذه الأخطـاء التـي تُفقـد الاجتماعـات القسـم الأكـبر مـن أهميّتهـا. وكنـت أستشـهد دائمًـا بكتـاب أهديتـه نسـخة منـه عنوانـه «Roberts Rules»، أي « قوانـين روبرتـز» وهـي متعلّقـة بـإدارة الجلسـات، ومـا يُفـترض فيهـا مـن الترتيـب والنظـام والدقّـة لتكـون عـلى المسـتوى المنشـود في مختلـف الأحـزاب والمؤسسـات.

أغلـب ظنـي أن بشـير مـا قـرأ هـذا الكتـاب، ولكنّـه تعلّـم مـا فيـه مـن خـلال الممارسـة وملاحظـاتي لأني حرصـت عـلى تنبيهـه دائمًـا، وكثـيراً مـا كان يصغـي إليّ باهتـمام كبـير حـين أقـول لـه: «روبرتـز رولـز» يسـمح بهـذا أو لا يسـمح، فاتخـذت هـذه العبـارة طابعًـا خاصًّـا في ذهنـه، فـراح ينظـر إليّ أحيانًـا، في أثنـاء إدارة الجلسـات، ليسـألني مبتسـمًا، بـين المـزح والجـد: «شـو بيقـول مسـتر روبرتـز هـون؟»

والحـق يقـال، إن هـذا الشـاب المدهـش أضحـى، في وقـت قصـير، سـيد إدارة الجلسـات، يعـرف أصولهـا وأنظمتهـا مـن غـير أن يقـرأ كلمـة واحـدة مـن كتـاب القواعـد والتوجيهـات.

تحوّلات في أداء بشير

كان بشير أيضًا حادّ المزاج، مسترسلًا في حزبيته، إلا أنه تميّز بحسّ رهيف، أتاح له أن يلاحظ بسرعة أبعاد تماديه واسترساله، فيلجم حدة هجومه، ويرتدّ، ويُطرّي لهجته، و»يكوّع»، كما يقال في لغة السياسة، فيتحدّث بلغة المجموعة ولغة الكلّ.

ما كان يستطيع إلا أن ينتقد. وكم جاء انتقاده شديد الوطأة، وحتى جارحًا في بعض الأحيان، خصوصًا حين يقلّد شخصيات مرموقة ويتكلّم بلهجتها وأسلوبها ساخرًا، فيخدش المشاعر ويمس الحساسيات مسًا كبيرًا غالبًا ما كان موجعًا ومرفوضًا، وهذا ما أضرّ أكثر بكثير مما أفاد.

لفتُ نظره أيضًا إلى هذه النقطة فتأثّر بملاحظاتي، وأحسست بأنها مقبولة لديه، وأنه تفهّمها، وعقد العزم على الإفادة من أخطائه، وعلى أن لا يعود إليها ولا يكرّرها. وفي أقلّ من عام واحد، بدأت أرتاح إلى تصرّفه، وعفة لسانه، وأبتهج بسرعة خاطره في تقويم أي اعوجاج طارئ، وأية هفوة أُفلتت منه عن غير قصد.

تعدّدت الاجتماعات والاتصالات في المنازل. وكنا ندعو جماعات إلى بيت الكتائب في المنطقة. وكثيراً ما كان الحشد يتكثّف ويكبر، فنضطر إلى الاستعانة بالأرشمندريت الياس الهبر المسؤول عن كنيسة سيدة الانتقال، ليمدنا بكراسي إضافية. وقد درجنا على عقد اجتماع كلّ يوم ثلاثاء مساءً، فكان بيت الكتائب يعجّ بالضيوف من مختلف الفئات: محامين وقضاة، أطباء وصيادلة وأساتذة، مهندسين وتجارًا، وصناعيين وموظفين وغيرهم. وكانوا جميعًا ينتظرون من بشير كلمة إرشاد، أو تفسيراً لملامح غامضة في الأوضاع الراهنة، أو شرحًا للوقائع السياسية، أو توجيهًا في موضع معّين. فكان بشير يحلّق، يخاطب الكلّ بلغة الكلّ. وكم كان مرتاحًا في حديثه، مجيدًا حصيفًا في توجيهاته، متفوقًا في تحليلاته وتفسيره، مثيراً في مطالعاته، يُصغي إليه الجميع بذهول وإعجاب. وكانت الحلقات تتكرّر والاتصالات تتوالى. فبادرنا إلى تنظيم الجماعات المنتمية إلى «أصدقاء الكتائب»، وألّفنا لجان عمل: لجنة المال، وكان ألبير فريحه مسؤولًا عنها، ولجنة سلاح التدريب، وقد أُسندت مسؤوليتها إلى حنّا صفطلي وإيلي جعجع، ولجنة تعبئة تسلّم مسؤوليتها فؤاد ساروفيم، ولجنة الشؤون الاجتماعية أُلقيت مسؤوليتها على هنري أبي نادر.

كنا نوزّع على هذه اللجان عددًا من الأشخاص المتّصفين بالحماسة والنشاط وحب العمل، ليكونوا أعضاء فيها. وتولّيتُ شخصيًا رئاستها كلّها، فرحتُ أنسّق الأعمال فيما بينها، وأرفع إلى بشير تقارير إضافية عن نتائج العمل، وعن أفضل الوسائل لتحسينه وجعله كبير الجدوى ووفير الثمار.

أولوية للشق العسكري

أولينا الشطر العسكري عناية خاصة واهتمامًا كبيرًا. فالحزب عامّةً، وبشير بنوع خاص كانا يعيان مقدار الخطر المحدق بلبنان واللبنانيين، من جرّاء تأهّب الفلسطينيين المستمّر للقيام بأعمال عسكرية لخلخلة النظام، وإشاعة التمرّد والعصيان وزعزعة أركان الدولة الشرعية. وقد ألحّ بشير عليّ مطالبًا بأن نباشر بإعداد الجماعات الحزبية والصديقة عسكريًا، لأن الأجواء لا تبشّر بالخير، ولا يجوز أن نؤخذ يومًا ما على حين غرّة، أو أن نبقى معرّضين لغدر مفاجئ. فأوعزنا إلى الفئة التي كانت مهمتها شراء السلاح بأن تنفّذ ما هو موكول إليها. وكانت الأسلحة تتدفق على الموانئ غير الشرعية من بلدان أجنبية عديدة. واستطاع الحزب أن يُسهّل عملية التسلّم والتسليم بعد دفع الثمن -وكان زهيدًا- فحصل كلّ مقاتل على رشيشة كلاشينكوف مع ٦٠٠ طلقة.

كانت المجموعة المستعدّة للتدريب وحمل السلاح من أصدقاء الكتائب، يراوح عدد أفرادها بين ٣٥٠ و٤٠٠ عنصر، وتراوح سنّهم بين الفتوة والكهولة.

هيّأ لنا بشير ثلاثة مدربين من أفضل مساعديه. وبدأنا نتدرّب على يد سامي خويري الذي جاء إلى الأشرفية، وجمعنا مرارًا في بيت الكتائب، وأحيانًا في باحة الكنيسة الكاثوليكية سيدة الانتقال.

تعلّمنا أولًا استعمال مختلف أنواع الأسلحة، وغدونا نجيد فكّها وتركيبها وتنظيفها. وكانت دروس المدرّب، في بادئ الأمر، نظرية بحتة. وبعد مدة غير طويلة، غادرنا سامي خويري وحلّ مكانه ثلاثة جورجات: جورج روحانا، وجورج أسمر، وجورج ريّس. وكان الثلاثة من خيرة مساعدي بشير، وأفضل العناصر القتالية.

كنـا نذهـب معهـم إلى منطقـة النعـص في بكفيـا، فيلتحـق بنـا ويسـاعدنا عـلى التدريـب نويـل داغـر. وحـين كنـا نذهـب إلى المـتن كان ينضـم إلينـا جـورج شـعنين.

كان أمـين أسـود، رحمـه اللـه، لا يفـارق المجموعـة. يبـدأ العمـل معهـا صبـاح كل أحـد، أمـام مقـر منطقـة الأشرفيـة حيـث «يضيّـف» كلّ واحـد مـن المجموعـة منقوشـة بزعـتر، ثـم يقـود الجميـع إلى الجبـل.

توالـت أعـمال التدريـب في جبـال المـتن الشـمالي بضعـة أشـهر، ثـم انتقلـت المجموعـة إلى جـرود كـسروان حيـث سـاهم في تدريبهـا سـامي خويـري وشـقيقه.

كنّـا نسـتعمل الذخـيرة الحيـة، ونشـهد أحيانًـا عـلى معموديـة الـدم يقـوم بهـا مغاويـر الكتائـب.

عملية احتلال بكفيا

لمـا اقـترب الأصدقـاء مـن نهايـة دورتهـم العسـكرية، قـرّر المدرّبـون القيـام بعمليـة عسـكرية يحضرهـا بشـير، وكانـت هـذه العمليـة: مهاجمـة بكفيـا واحتلالهـا.

وفي يـوم ماطـر مـن كانـون الأول، صعدنـا باكـرًا مـع بشـير إلى بكفيـا. وتمـت عمليـة الاحتـلال بنشـاط ونجـاح باهريـن، مـما جعلنـي أعتـزّ بنفـسي أمـام «البـاش» وأمـشي نافخًـا صـدري كالطـاووس، فهنّـأني وقـال لي: «إجمـع السـلاح مـن أيـدي شـبابك، وضعـه كلّـه في سـيارة واحـدة، وقـلْ لهـم أن يتبعونـا إلى النعـص».

جمعـتُ السـلاح عمـلًا بإيعـاز بشـير، وتوجّهنـا في رتـل مـن السـيارات إلى «المحفـار» في النعـص. وكنـتُ في سـيارة بشـير مـع المدربـين. ولمـا أشرفنـا عـلى أعـلى مطـلّ مـن النعـص، توقـف بشـير وأشـار برأسـه يدعـو المدرّبـين بـلا كلام إلى تنفيـذ خطـة كانـوا قـد اتفقـوا عليهـا.

ترجّلتُ وجلستُ على صخرة أنتظر ما سيحصل.

كانـت الطريـق ملتويـة بشـكل «S». ولمـا وصلـت أولى سـيارات الرتـل إلى المنعطـف الأخـير، فتـح المدرّبـون النـار في الفضـاء، وسـاد هـرج ومـرج. وخـرج «الأبطـال» الذيـن

احتلوا بكفيا مَن سياراتهم يصرخون ذعرًا، ويقفزون فوق الجلول كالسهام، نزولًا إلى الوادي. فراح بشير يضحك وهو يقول لي: «يا هيك أبطال يمّا بلا! كان الأجدر بهم تحاشي الرصاص بشكلٍ منظّم لا الهروب من دون إدراك».

كنا، في الأيام العادية، نتابع الاجتماعات والندوات، ونخطط لمستقبل أفضل. وكنّا بحاجة إلى المال. فلا يمرّ علينا يوم إلا ونشعر بمزيد من اشتداد الخطر واقترابه منا. ولا سبيل إلى المقاومة والدفاع عن النفس إلا بسلاح من نوعية معينة لا نستطيع الحصول عليه إلا بالمال.

قمنا بحملة تبرّع واسعة وكان أبطالها صهر بشير أنطوان أبو ناضر والمرحوم ميشال بيرتي وزوجتي فيفيان. وفي أقل من شهرين، تدفّقت علينا مبالغ كبيرة. وفي غضون آذار ونيسان ١٩٧٤ جمعنا ما يقارب ٢٧٠ ألف ليرة. ولن أنسى اليوم الأول من هذه الحملة، وقد جمعنا فيه ثلاثة آلاف ليرة، فنظر بشير إليّ، وقد اتّسعت عيناه دهشة، ثم قال: «فظيع، صارت عندنا خميرة».

كرم المتبرّعين لشراء السلاح

وكان فرحه بهذا النجاح يفوق الوصف. وكلّما عدنا في المساء، ساسين كرم، وأنا وجان ناضر لنعدّ حصيلة التبرع، تراكمت أمامنا الشيكات و»السجادات الزرقاء»، أي أوراق المئة ليرة، وقد اخترع لها ساسين كرم هذا الاسم الطريف، رحمه الله.
وتجدر الإشارة إلى أن جزءًا من التبرّعات صُرف على تأسيس إذاعة «صوت لبنان» وكان من أول روادها «بول رزق»، ابن الدكتور فؤاد رزق والفنان روميو لحود.

كنا نضع هذه الأموال في البنك، ونطلع بشير على الرقم الأخير الذي وصلنا إليه، فيُعرب عن سروره، وينصرف كل ليلة إلى التفكير بما يستطيع شراءَه من الأسلحة المتنوّعة، الكبيرة والصغيرة، بهذا المال. وبعد الشراء، توزّع الأسلحة على الشباب والأقسام المحيطة بمخيّمات الفلسطينيين ثم على الجبهات الساخنة، كالدكوانة، مثلًا بعد اندلاع الحرب. ولا يغرب عن بالي كم كانت هذه الأموال غالية على قلب بشير، حتى تبادر إلى ذهنه أنها قادرة على إنهاء الحرب إن لم تكن قد أنهتها وانتهت منها. وكلّما عرّفني إلى شخص جديد، حزبي كان أم غير حزبي، كان يقول له مشيراً إليّ: «هيدا ربّحنا الحرب»، وظلّ هذا دأبه طوال سنوات.

ومـن طرائـف عمليـات التـبرّع أن الدكتـور ألكـس إسـكندر، في كـرم الزيتـون- الأشرفيـة، اتّصـل بي إليّ طالبًـا منـي أن أعرّفـه إلى بشـير وقـال: «إني مسـتعد لأن أدفـع ألـف لـيرة في مقابـل كلّ دقيقـة يمضيهـا بشـير عنـدي، عـلى أن يكـون مـا أدفعـه عـدّة للمقاومـة».

أقنعـتُ بشـير بتلبيـة دعوتـه. وذهبنـا بصحبـة ساسـين كـرم. فاسـتقبلنا الدكتـور إسـكندر بالترحيـب الحـارّ والعنـاق والقبـل والدمـوع. ثـم صـف أولاده وأفـراد عائلتـه وعرّفهـم ببشـير واحـدًا بعـد آخـر...

مـرّ الوقـت مسرعًـا كأن عصـا سـحرية تسـوقه. ولمـا صُبّـت لنـا القهـوة، ألقيـتُ نظـرة عـلى سـاعتي، فرأيـت أن عقربهـا قـد اجتـاز، منـذ وصولنـا، مسـافة عـشر دقائـق، فأومـأت إلى ساسـين كـرم أدعـوه إلى أن يتأهـب للرحيـل، وهمسـت في أذن بشـير قائـلًا: يجـب أن نغـادر هـذا البيـت. فأدهشـه تسرّعـي، ولكنـه وقـف وهـمّ بالذهـاب. إلا أن الدكتـور إسـكندر أصرّ عـلى اسـتبقائنا عنـده، فاعتذرنـا منـه، وخرجنـا.

في هـذه الأثنـاء زعـم ساسـين كـرم أنـه نـسي شـيئًا في البيـت وانفصـل عنـا. وكانـت حقيقـة أمـره أنـه ذهـب ليأخـذ شـيكًا بقيمـة عـشرة آلاف لـيرة، في مقابـل زيارتنـا التـي اسـتغرقت عـشر دقائـق.

وفي الشـارع اسـتوضحني بشـير سـبب اسـتعجالي في إنهـاء تلـك الزيـارة، فتجاهلـتُ سـؤاله. ولمـا أصرّ بالحقيقـة أعلمتـه بوعـد الدكتـور إسـكندر معتـذرًا ومعـبّرًا عـن أسـفي لأني «اسـتعملته» أداةً لجمـع المـال. فـما كان منـه إلا أن ربّـت عـلى كتفـي قائـلًا: «يـا سـاذج، كان لازم نقعـد عنـدو سـاعة كاملـة».

ومـن المآثـر التـي تُذكـر بالخـير مأثـرة لشـخص مـن آل نصـار كان بائـع لحـوم في شـارع أديـب اسـحاق، دأب في إرسـال لـيرة لبنانيـة كلّ شـهر في ظـرف مختـوم موجهًـا إليّ. أثّـر بي هـذا العمـل وأصررت عـلى بشـير بـأن يـزوره ليشـكره. ولمـا أطـلّ بشـير عـلى بـاب محلّـه حتـى صرخ والدمـوع في عينيـه وسـلمّه سـاطور اللحـم قائـلًا: «رقبتـي فـداك ودمـي حـلال يـا شـيخ بشـير. اللـيرة التـي أرسـلها إليـك هـي مقـدوري، لكـن أنـا وعائلتـي بـين يديـك». سـالت الدمـوع في عينَـي بشـير الـذي شـكره ومـضى.

لم تكـن عمليـات التـبرّع ناجحـةً كلّهـا، بـل مُنِـيَ بعضهـا بإخفـاق يثـير الأسـف. منهـا، عـلى سـبيل المثـال، أننـا أرسـلنا شـابين هـما جـوزف كفـوري وجـورج بركـس، بعـد أن ألبسـناهما أفخـر الثيـاب، وجعلناهـما عـلى أفضـل جانـب مـن الأناقـة و«الجـخ»، ليجمعـا التبرّعـات مـن المؤسّسـات الكبـيرة، كالمصـارف والـشركات العاملـة في مختلـف حقـول الاقتصـاد، فـما أفلحـت جولتهـما بالمقـدار الـذي كنـا نتوقّعـه.

بقـدر مـا أُغدقـت علينـا الأمـوال تدفّقـت الأسـلحة. فحصلـت القـوات النظاميّـة عـلى قذائـف مـن طـراز RPG-آر بي جـي. ودُعـي المقاتلـون جميعًـا للصعـود إلى النعـص لتجربـة الأسـلحة الجديـدة، ولا سـيما هـذه القذائـف، بحضـور بشـير. فانتقلنـا إلى هنـاك باكـرًا، واتخذنـا مراكـز تحـت الصنوبـر ووراء الصخـور لنحتمـي مـن الانفجـارات والشـظايا. وفيـما كنـا نتأهّـب لإجـراء العمليـة، سـاد الهمـس هنـا وهنـاك، وتوقّفـت كلّ حركـة... مـا الخـبر؟ وصـل فجـأة، وعـلى غـير موعـد، قائـد القـوّات النظاميّـة المرحـوم وليـم حـاوي يصحبـه نائبـه جورج كسـاب. وقـف الجميـع اسـتعدادًا للترحيب العسـكري وفي طليعتهـم بشـير.

علمنـا فيـما بعـد أن القائـد وليـم حـاوي كان يحظّـر البـذخ في التدريـب، ويرفـض التبذيـر وهـدر الذخائـر عـلى سـبيل التجربـة، خصوصًـا إذا كانـت هـذه التجربـة تتنـاول ال «أر بي جـي» التـي كان ثمـن القذيفـة الواحـدة لا يقـل عـن ٢٥٠ لـيرة. ولم يكـن في إمـكان الحـزب أن يتهـاون في خسـارة مثـل هـذا المبلـغ مـن دون سـبب وجيـه. وعـلى الرغـم مـن هـذه الاعتبـارات قررنـا إجـراء التجربـة.

تطـوّع المرحـوم جـوزف أبـو عـاصي لإطـلاق الصـاروخ. وضـع صاجًـا عتيقًـا عـلى حائـط المحفـار، في وسـطه، وابتعـد عنـه حـوالي خمسـين مـترًا، وصـوّب، وأطلـق... طـار الصـاروخ كالمجنـون، ومـا أصـاب الهـدف... مـا أصـاب حتـى الحائـط الطويـل العريـض الـذي يتوسـطه الصـاج، بـل صعـد عموديًـا إلى السـماء، وارتفـع صياحنـا: «إنبطـاح!... إنبطـاح!...» وتملّكنـا الهلـع. هـذا انبطـح، وذاك اختبـأ، وآخـر احتمـى بصخـرة، وغـيره دسّ رأسـه في الأرض مقتديًـا بنعامـة الأمثـال...

والحمـد للـه! سـقط الصـاروخ بعيـدًا، عـلى مسـافة مئـة مـتر تقريبًـا مـن المحفـار، مـن غـير أن يـؤذي أحـدًا. ومـرّت التجربـة الأولى بسـلام. ورحنـا نتابـع إجـراء التجـارب كلّ يـوم أحـد، حتـى بـرع في الرمايـة نفـرٌ مـن المقاتلـين، في طليعتهـم جـورج أسـمر.

مكتب «أصدقاء الكتائب» الذي ترأّسته كان يضّم نخبة ممتازة من الأساتذة الجامعيين والطلاب ورجال الأعمال والمهن الحرّة من أطباء ومحامين وصيادلة نشطوا في التمارين العسكرية وفي تحضير الندوات لبشير. فاق عددهم الألف عنصر حافظوا على أمن المنطقة الشرقية وساهموا ماليًا في اقتناء الأسلحة وإدارة ما سمي مع مرور الوقت «بالهيئات الشعبية».

الترشيح للنيابة في الأشرفية

أوائل ١٩٧٤، وفي موعد اجتماع مكتب الأشرفية الأسبوعي، ذهبت إلى الأشرفية أزور بعض الأصدقاء. وكان من المتوقع أن يُعرض في هذا اليوم فيلم تاريخي موضوعه نشوء الكتائب، والشيخ بيار أيام شبابه. ولما وصلت إلى بيت المنطقة وكان برفقتي الدكتور عادل برباري والدكتور ميشال نصر اللذين أحبّا التعرّف إلى بشير، لاحظت أن بعض الشبان ورجال الحرس يتهامسون، ومنهم من أسرع إلى البيت كأنه يريد أن يُخبر بوصولي أناسًا هناك ينتظرون. وما كدت أصل إلى بيت الكتائب حتى قدّم إليّ رهط من النظاميين التحية العسكرية على صفّين، ولما دخلت ردهة الاجتماع حتى فوجئت بتصفيق اشترك فيه الحاضرون جميعًا، ومنهم بشير.

أدهشتني هذه البادرة، وحسبتها مزحة، وغدوت راغبًا في معرفة سببها. وما هي هنيهة حتى استُدعيت إلى غرفة داخلية كان بشير قد جعلها مكتبًا له، وهي الغرفة الوحيدة الصالحة للاستعمال آنذاك، أي قبل توسيع البيت وتخصيص مكتب لكلّ مسؤول. وفي تلك الغرفة التقيت بيار صايغ، رئيس مصلحة بيروت، ونائبه جوزيف معرّاوي، وجان ناضر. وساورني التعجّب لما باشر الحاضرون يبحثون مسألة الانتخابات، ولا سيما في بيروت، وراحوا يلمحون إلى أنه من المستحسن أن يكون المقعد الماروني لبشير، والمقعد الأرثوذكسي لي أنا.

لزمتُ الصمت. قطعت المفاجأة عليّ سبيل الكلام. كاد فكري يشرد عما أنا فيه، لأن هذا الموضوع لم يطرح قبلًا على بساط البحث.

شاهدنا الفيلم الذي أرجعنا إلى تاريخ الكتائب ورئيسها في الثلاثينات وكان في الفيلم أيضًا مباراة للملاكمة أحد أبطالها الشيخ بيار، ثم غادرنا البيت وأنا تحت وطأة تلك المفاجأة. وفي المساء، أتاني بشير يستأنف معي حديث النيابة عن الأشرفية.

عرض الموضوع قائلًا إن الحزب ومصلحة بيروت سيقنعان الشيخ بيار بالتنازل للشيخ بشير عن المقعد الماروني في الدائرة الأولى، وأن الشيخ بشير الذي سيتولّى رئاسة اللائحة لا يرى أنسب من جورج فريحه، رفيق دربه، لمشاركته في الترّشح عن هذه الدائرة لتمثيل الروم الأرثوذكس.

رفضت هذا الطرح برمّته، أساسًا وشكلًا، لأني ما فكرت يومًا بأن أتعاطى السياسة تعاطيًا رسميًا. وقلت إن الشيخ أمين عرض عليّ، قبل أشهر، أن أكون رفيقه في النيابة، وأن أحتل المقعد الأرثوذكسي في المتن، فرفضت.

دار الحديث وتشعّب. وكانت غايته إقناعي بالقبول، ولكن رفضي كان قاطعًا. وكذلك كان موقف زوجتي التي عبّرت عن شعورها تعبيرًا بليغًا، معرّبة عن تأثّرها العميق بما عاناه والدها الشيخ موريس الذي كان ولوجُه ميدان السياسة سببًا لحرمان العائلة نعمة التضامن الأليف والتفاهم الصافي، إذ أكرهته الظروف الراهنة على الغوص في سياسة تقليدية أبعدته عن إنتاجه الفكري المبدع، ثم أودت بحياته.

إتخذت المناقشة طابعًا عائليًا، إلا أنها ما لبثت أن تطوّرت، وارتفعت حرارتها بين بشير وزوجتي، فبلغت حدّ تبادل الكلمات القاسية. وقبل أن يغادر بشير منزلي مغتاظًا، ضرب الطاولة بكفه مرّات عديدة تنفيسًا لحنقه وإخفاقه في إقناعنا.

وبقي بشير يفاتحني بموضوع الانتخابات من وقت إلى آخر إلى أن وقعت الحرب الضروس وانشغل الجميع بها.

الفصل الرابع:

١٣ نيسان ١٩٧٥
واستشهاد جوزيف أبي عاصي

كان ذلك اليوم أحدًا. وعلى عادتنا، كنّا، في النعص، فريقًا من الأصدقاء، مع بشير والمدرّبين العاملين في ظل قيادته وإرشاده، نكمل دورة تدريب بدأناها قبلًا.

عدنا بعد الظهر، الساعة الثانية، إلى بيروت. وما كدت اغتسل وأستعد لقيلولة مريحة بعد تعب التدريب، حتى اتصل بشير بي، وأخبرني أن حدثًا خطيرًا قد حصل هو مقتل جوزيف أبي عاصي، بعد قدّاس في عين الرمانة كان يحضره الشيخ بيار الجميّل وبعض أركان حزبه. وعلمتُ أن جريمة القتل كانت مفاجأة موجعة أسفرت عنها معركة بين كتائبيين على رأسهم جوزيف، وجماعة من الفلسطينيين.

إشتدّ الغيظ والتأثّر البليغ في نفس بشير ونفوس مرافقيه والمقرّبين إليه. ولا عجب، فقد كان الشهيد واحدًا من أبرز الذين ساعدوا بشير كثيرًا في أمور عديدة حزبية وعسكرية، أخصّ بالذكر منها تلك الحادثة التي وقعت بالقرب من الجامعة الأميركية قبل نحو سنتين، وقد اشتبك فيها جوزيف وجماعة من رفقائه، بإيعاز من بشير، مع زمرة من الفلسطينيين تعوّدت أن تصول وتجول، ودأبت في رصد تحرّكات الكتائبيين، واستفرادهم، والاعتداء عليهم بالإهانة والضرب. فانتقم منها أبو عاصي انتقامًا زاخرًا. وتدخّل رجال الدرك، ونشبت معركة بالسلاح أصيب فيها أحد رجال الأمن الداخلي في عينه كلّفت جوزيف أبو عاصي وبشير مبلغًا كبيرًا من المال دُفع للجريح ثمنًا لإسقاط دعواه عليهما. وكان دفع هذا المبلغ أمرًا مهمًا بالنسبة إلى الظروف السائدة في ذلك الحين، إذ اضطر بشير أن يستدينه من هنا وهناك ليجمعه ويدفعه.

إثر اغتيال جوزيف، اجتاحت عين الرمانة والأحياء المجاورة، موجة عارمة من الغيظ والغضب المتفجّر، وتأهّب الجميع للانتقام. ثم انصبّت تلك الموجة نارًا على الباص الفلسطيني المكتظّ بالمقاتلين، الذي كان يمرّ عادة نحو جسر الباشا وتل الزعتر فهلكوا جميعًا في اليوم نفسه.

كانـت تلـك الـشرارة هـي الأولى في الحـرب اللبنانيـة الفلسـطينية التـي بـدأت في ١٣ نيسـان ١٩٧٥، بعـد أن سـبقتها حـوادث تمهيديـة متفرّقـة هنـا وهنـاك، ولا سـيما في صيـدا والأماكـن الخاضعـة لنفـوذ الذيـن كانـوا يسـمّون نفوسـهم «فدائيـين» ويدّعـون الكفـاح «لتحريـر الأرض السـليبة»، وهـم لا يفكّـرون إلا باتخـاذ لبنـان وطنًـا جديـدًا لهـم بقـوة السـلاح، والعمـل عـلى تفكيـك المجتمـع اللبنـاني وشرذمـة أبنائـه.

حماية الأشرفية

لم تكـن الأشرفيـة مسـتعدّة للحـرب. ولم تتخـذ حتـى الحـد الأدنى مـن التدابـير التـي يفرضهـا خـوض القتـال، فيـما كان الفلسـطينيون وحلفاؤهـم عـلى أتـم الاسـتعداد. وقـد جـاءت حادثـة ١٣ نيسـان انطلاقـة لحـرب أرادوهـا، وتأهبّـوا لهـا، وأعـدّوا عدتهـا عديـدًا وعتـادًا. أضـف إلى ذلـك أن الأشرفيـة كانـت «مخروقـة»، عـلى حـد تعبـير بشـير، أي أنهـا ملغومـة مـن الداخـل ومخترقـة، تفتقـر إلى توحيـد الكلمـة ورصّ الصفـوف والتعـاون المخلـص بـين أبنائهـا جميعًـا. وكان بـين هـؤلاء الأبنـاء القومـي السـوري، والشـيوعي، والاشـتراكي، والفلسـطيني المتلبنـن، والسـوري، والحـوراني... إلى جانـب خليـط لا يؤمـن كلّـه بلبنـان، ولا وجـود في مفهومـه لـشيء اسـمه «القضيّـة اللبنانيـة». فـلا غرابـة في أن يكـون هـذا «الوضـع الواقعـي» مشـكلة، بـل معضلـة المعضـلات، يتطلّـب حلّهـا كثـيراً مـن الحكمـة والحـزم، بعـد الاطـلاع عـلى حقيقـة مـا هنالـك مـن تضـارب التيـارات، وتنابـذ المبـادئ، واختـلاف المرامـي، وتناقـض المفاهيـم، وغمـوض ملامـح المؤامـرة المدبّرة عـلى لبنـان واللبنانيـين. وهـذا مـا أوجـب مباشرة عمليـة التطهـير والتنسـيق والتوعيـة والإرشـاد مـن الداخـل.

والمعـروف عـن الأشرفيـة أنهـا منطقـة أرثوذكسـية الطابـع، مـا تعاطفـت أصـلًا مـع الكتائـب، ومـا اهتـمّ الكتائبيـون يومًـا في المقابـل بالغـوص في أعماقهـا، والتناغـم مـع عقليـة أبنائهـا، والتوغّـل في عقولهـم لاجتـذاب قلوبهـم.

كان اتـكال الكتائـب يقتـصر عـلى وهـج بيـار الجميّـل، إذ تبـادر إلى أذهـان بعضهـم أن هـذا الرصيـد الشـخصي يكفـي لتجيـير المنطقـة إلى الحـزب كاملـةً غـير منقوصـة. لكـن هـذا الوهـج، عـلى مـا كان فيـه مـن القـوّة والإشراق، لم يعمّـر طويـلًا.

كـما سـبق أن ذكرنـا، مَلَـكَ بيـار الجميّـل الأشرفيـة، أو المنطقـة الشرقيـة، عـلى أثـر حـرب ١٩٥٨، لأن الشـعب كان وفيًـا للأعـمال البطوليـة التـي قـام بهـا الكتائبيـون، وللشـهداء الذيـن بذلـوا دماءهـم ذودًا عـن لبنـان. ومـا إن رشّـح الشـيخ بيـار نفسـه في الانتخابـات النيابيـة ضـد بيـار إدّه سـنة ١٩٦٠، حتـى فـاز عليـه فـوزًا سـاحقًا عـلى الرغـم مـما يتمتّـع بـه بيـت إدّه مـن رصيـد مرمـوق لـدى الأرثوذكـس باعتبـار أن والدتـه مـن عائلـة سرسـق الأرثوذكسـية العريقـة. وقـد أوجـدت أواصر القـربى هـذه جـذورًا للإديـين في الأشرفيـة لم يتمتّـع بمثلهـا آل الجميّـل ولا غيرهـم مـن الموارنـة وغـير الموارنـة. إلا أن الكتائبيـين لم يأخـذوا هـذه الأمـور بالاعتبـار، بـل تابعـوا رهانهـم عـلى رصيـد الشـيخ بيـار. فسـجّلوا نجاحًـا كبـيرًا في الانتخابـات التـي أجريـت في عهـد فـؤاد شـهاب، في الدائـرة الأولى، وفـازت لائحتهـم بالتزكيـة.

لكـن، كـما ذكرنـا أيضًـا، سرعـان مـا بـدأ نجـم الحـزب يخبـو عـلى مـرّ الأيـام، فتضـاءل زخـم التأييـد الشـعبي، وراح المرشـحون عـلى لائحـة الشـيخ بيـار يسـقطون واحـدًا بعـد آخـر. ثـم اضطـر الحـزب إلى سـحب مرشّـحه البروتسـتانتي سـمير إسـحق لإعطـاء مقعـده إلى الأرمـن، ومـا بقـي في الميـدان غـير الشـيخ بيـار وجوزيـف شـادر. لا بـل تبيّن أن أكثريـة الأصـوات انصبـت عـلى المرشـح الأرثوذكـسي ميشـال ساسـين لا عـلى رئيـس الكتائـب، كاشـفة عـن واقـع كان لا بـدّ مـن التوقّـف عنـده وهـو أن أهميـة الحـزب أخـذت تتقلّـص في الأشرفيـة، وأن نفـوذه ينحـسر.

ولمـا اندلعـت الحـرب التـي مـا برحـت الأشرفيـة تكتـوي بنارهـا، كان عـلى بشـير أن يواجـه هـذه الحقيقـة، حقيقـة ضعـف الحـزب في الأشرفيـة، وكـون هـذه المنطقـة فسيفسـاء بشريـة تحتـوي عـددًا لا يسـتهان بـه مـن غـير اللبنانيـين.

كان التدريـب العسـكري مسـتمرًا. وكنـا نحـن، أصدقـاء الكتائـب، نؤيّـد هـذا العمـل، ونُعِـدّ لبشـير النـدوات واللقـاءات ليتوغـل في صميـم الحيـاة العامّـة، ويدخـل البيـوت، ويتفاعـل مـع الشـعب. فـراح نجمـه يسـطع، وكـثر التائقـون إلى معرفتـه ولقائه، فتوافـدوا إلى بيـت المنطقـة حيـث عمدنـا إلى عقـد اجتماعـات أسـبوعية كل يـوم ثلاثـاء، وبقـي هـذه النهـج متبعًـا حتـى استشـهاد بشـير يـوم الثلاثـاء ١٤ أيلـول ١٩٨٢.

نظّمنا عملنا في لجان. وأنشأنا، كما ذكرنا في الفصل السابق، جهازًا لجمع التبرعات والاستعداد للحرب، فتدفّقت علينا الأموال، واشترينا بها أسلحة، ونظّمنا دورات تدريب، وحثثنا الشباب على الالتحاق بالحزب، فانضووا تحت لوائه مئات، وانخرطوا في صفوف القوى النظامية، فأصبحت الأشرفية أكثر استعدادًا للقتال.

تابعنا العمل حتى وفرّنا لكل شاب من المقاتلين بندقية، ولكل عائلة قطعة سلاح تناسب الوضع الراهن، مع الإشارة إلى أن السلاح الذي كان يملكه الفلسطينيون هو متطّور ومتفوّق في النوعية والكمّية.

مع اشتداد المعارك، برزت أكثر فأكثر حاجة المنطقة إلى السلاح الثقيل، فاشترينا مدافع. وأذكر أن أوّل مدفع حصلنا عليه صار «فرجة» يتقاطر الناس ليلقوا نظرة عليه كأنه أعجوبة. وكلّما جمعنا مبلغًا من المال، كان بشير يقول لنا: «روحوا تنشتري قسطر»، و«القسطر» في مفهومه ومفهوم زوجتي فيفيان هو مدفع الهاون. وقد كانت الأشرفية شبه محاصرة تحوطها جبهات من معظم الجهات من التباريس إلى السوديكو، فالبرجاوي، فالمتحف، فالسيوفي، فالبدوي، فحدود الكرنتينا. وكانت، طبعًا، تنسّق مع مناطق المدوّر والصيفي والرميل لحماية المنطقة كلّها.

ظلّ عدد المقاتلين محدودًا لا يكفي لتوفير القوة اللازمة لهذه الجبهات، وللاحتماء من الخونة والمأجورين المندسّين في الداخل، فكان علينا، نحن «الأصدقاء» أن ننزل إلى الشارع وأن نسند هذه المهمة إلى المدّربين منّا لضمان الحماية الداخلية. فتوزّعنا على الأحياء توزّعًا منظّمًا، ووصلنا النهار بالليل ننصب الحواجز الطيّارة لفحص السيارات والتنبّه لمن فيها. وكان بشير يفاجئنا بزيارات خاطفة تحت جناح الليل أو مع بزوغ الفجر ليشرف على سير عملنا. وكم كان طريفًا في هذه «الغزوات»! لا يأتي إلى مركزنا إلا حين أكون نائمًا بعد حراسة مضنية. ويبدو أن مخبرًا من مجموعتي كان يخبره بأني أويت إلى فراشي في طبقة سفلى، فلا تمر هنيهة حتى أراه يدخل عليّ قائلًا: «كمشتك يا نشيط، وسمعتك تشخّر». وتكرّرت هذه المفاجآت غير السارة حتى كدت أتعقّد، ثم اكتشفتُ حقيقة الأمر، فعمدت إلى التظاهر بالنوم، حتى إذا جاء نهضت فورًا واستقبلته مرحِّبًا.

في الساعة الحادية عشرة والنصف من ٥ كانون الأول سنة ١٩٧٥، اتّصل بي تلفونيًا جورج الأشقر، صاحب فندق برنتانيا في برمانا ورئيس بلديتها، وسألني: «هل بلغك الخبر؟» قلت: «أي خبر؟» قال: أقام الفلسطينيون كمينًا على طريق عين سعادة الداخلية القديمة وتسبّب بمقتل أربعة شبان من فرقة الصخرة، وهم إيلي بانو وإدي عوكر وجورج عبسي ورولان سعادة، فيما رفيقهم الخامس دافيد عوكر بين الحياة والموت. وقد نتجت عن ذلك موجة من الغضب والانتقام قادها الصحافي جوزيف سعادة والد القتيل رولان، أسفرت عنها عشرات القتلى على الهوية».

إتّصلت فورًا ببيروت، فتبلّغت المزيد من المعلومات المؤسفة. وذهبت إلى منزل الشيخ بيار حيث كان بشير نائمًا، فأيقظته ونقلت إليه النبأ.

وفي هذه الأثناء، كانت العاصمة اللبنانية تشهد واحدة من أدهى مآسيها. غصّت بيروت بالمسلحين. ألهبت بالرصاص. إنتابها الخطف والبطش والتقتيل في إعصار من الفلتان الأعمى والغضب الأهوج.

أذكر هذه الحادثة، بل أصرّ على تسجيلها أمانةً مني للحقيقة والتاريخ. فبشير الجميّل كان غارقًا في النوم لما هبّت بيروت تنتقم للشبان الأربعة الذين اغتيلوا غدرًا أمام المون لاسال على كتف تل الزعتر، على طريق عين سعادة العتيقة.

ولمّا وصل بشير إلى بيروت، كان دخان الرصاص يخالط رائحة الدماء المسفوحة في ساحة البرج وضواحيها. وقد بذل جهودًا كبيرة مع أصدقائه لإنقاذ من أمكن إنقاذهم من الأبرياء. ومن الجور أن يتهمه بعض المغرضين، أو غير المطّلعين على الحقيقة، بأنه هو المسؤول عن هذه المجزرة، وهو منها براء.

لم تقتصر الحرب على السلاح والعسكر، بل شملت حقولًا سياسية واجتماعية عديدة منها النشاط الإعلامي، وجمع المعلومات، وتوفير الخدمات العامة، والاهتمام بمختلف شؤون الحياة. فانصّبت الجهود على جمع أكبر عدد ممكن من المخلصين للقضية اللبنانية، وحملهم على المساهمة في مختلف فروع العمل. وكانت لجنة أصدقاء الكتائب سبّاقةً في هذا المضمار، فأنشأتُ لجانًا فرعية، وعزّزتها بأصحاب الكفاءة في مختلف القطاعات. وكان بشير قد أوجد لنا مكتبًا في جوار بيت الكتائب، وهو المكان الذي كانت تشغله إذاعة «صوت لبنان». ومن أهم إنجازات هذا النشاط انضواء عدد من المواطنين تحت راية الكتائب، وانضمام الشبان منهم إلى القوى النظامية. وكنا في أشدّ الحاجة إلى العسكر، لوجودنا في منطقة واسعة ومواجهة لخطوط التماس، وقريبة من ميادين القتال، وهي تتطلّب عددًا كبيرًا من الرجال.

وفي مدة وجيزة نسبيًا، لا تتجاوز ثلاثة أشهر، انضم إلينا حوالي ٣٠٠ شاب وشابة، وأقيمت حفلة تخريجهم وقسمهم في نادي أبناء نبتون في الأشرفية الذي ترأّسه، وألقى بشير خطابه العلني الأول، فكان حماسيًا، بليغًا، مؤثّرًا، يبشّر بمستقبل باهر. وبعد أقل من سنتين، وفي ساحة ساسين، أقسم حوالي ٣٠٠٠ شاب من الأشرفية يمين الانتماء إلى حزب الكتائب.

تنوّعت أعمال لجنة الأصدقاء وتفاعلت وتداخلت مع أعمال لجان الحزب، فتكوّنت وحدة متجانسة، متلاحمة تصب كلّها في قناة بشير، وتسترشد بتوجيهه وتلتزم بقيادته.

ذات ليلة، استدعاني وقال لي إن حدثًا مهمًا قد وقع، وهو حصولنا على ملفات وزارة الخارجية، وعلينا أن نشبعها درسًا ونطّلع على ما فيها، وننسخها في أسرع ما يمكن. واستطرد قائلًا: السرعة وحدها لا تكفي، يجب أن يبقى هذا الأمر سرًا مكتومًا لا يدري به أحد غيرنا.

ألفّت فريق عمل قوامه زوجتي، وشقيقتها ميشال ناصيف ودنيز غبريال الجميّل، والدكتور جاك نصر، ونبيل حرفوش. وكان يساعدنا في هذا العمل الدكتور ميشال يارد (أبو مارون)، رئيس دائرة الاستخبارات التابعة لبشير آنذاك.

وُضعَت في تصرفنا آلتان لتصوير الملفات، وكان علينا ألاّ نهمل شيئًا مما يجب تصويره، فانقسمنا ثلاث فئات: واحدة تفرز، وثانية تصوّر، وثالثة توثّق. واستغرقت العملية ثلاثة أسابيع متواصلة، ثم أعيدت الملفات إلى وزارة الخارجية. وصُنّفت الوثائق في مواضيع متنوّعة، وبُوِّبَتْ تحت عناوين، ووُضعت بشكل واضح ومنتظم في خزانات حديدية ضمّتها غرفة خاصة.

علم القوات اللبنانية

برزت الحاجة بعد نحو سنة من اندلاع الحرب اللبنانية، وبالتحديد في صيف ١٩٧٦، إلى توحيد الجهود بين التنظيمات المقاتلة التابعة للأحزاب اللبنانية والتنسيق على الجبهات. فقد كان للعفوية التي بلغت في بعض الأحيان حدود الفوضى والمشاحنات غير المستحبة، نتائج لا تليق بالتضحيات الكبيرة المبذولة. وبعد سلسلة اجتماعات بين أركان التنظيمات المقاتلة، تم تأسيس القوات اللبنانية، وانعقد إثر ذلك اجتماع في منزلي ضمّ بشير الجميّل رئيس القوات اللبنانية، داني شمعون نائب الرئيس، إتيان صقر (أبو أرز) فؤاد الشمالي عن التنظيم الذي انقسم فيما بعد ما بين مجموعة أولى برئاسة فوزي محفوظ (أبو روي) وثانية برئاسة جورج عدوان، وبحضور سعيد عقل الأب الروحي للقوات.

بعد الاجتماع التنظيمي، طلب بشير اعتماد علم للقوات اللبنانية، فاقترحت تبنّي علم الجامعة الأميركية مع إبدال شكل الأرزة، وهذا ما حصل.

إستشهاد ميشال يارد

بدأت أعمال الاستخبارات في القوات اللبنانية مع الدكتور ميشال يارد الملقّب «أبو مارون»، وكان مسؤولًا مع فؤاد أبو ناضر عن مركز التنصّت في الأشرفية، في الطبقة الرابعة من المبنى الذي تشغله إذاعة «صوت لبنان». وتألّف قسم الاستخبارات في بدايته من شبان لا يتجاوز عددهم الأربعة عشر. وظلّ هذا القسم محدود الإمكانات لافتقاره إلى المبالغ الكافية من المال. ولكن ميشال يارد امتاز بأنه «حركة دائمة كلّها بركة». فبذل جهودًا كبيرة ومشكورة لتثبيت القسم ورفع مستوى أهميته إلى المستوى اللائق.

ذات يوم، اشتدّ القتال على محور فتّال-بنك سوريا ولبنان. وكانت الكفة تميل ضدّ الكتائب. فاتّصل بشير بي في الساعة الثانية بعد الظهر وقال لي: «إصعد إلى الأشرفية، واجمع لي مئة مقاتل، وإلا سقط البيت المركزي في محلّة الصيفي بعد ساعات معدودة».

ذهبتُ إلى الأشرفية، وكان يداوم فيها آنذاك الشيخ ألكسندر الجميّل، ابن عم بشير. أخبرته بطلب بشير، فبادر فورًا إلى إجراء الاتصالات اللازمة. وبعد ساعة تقريبًا، تجمّع في بيت الكتائب حوالي أربعين مقاتلًا.

إتصلت ببشير وأطلعته على واقع الحال، فصاح غاضبًا: «إذهبوا إلى محلات الفليبرز، إلى الكنائس، إلى حيث تشاؤون... ولمّوا الشباب من اللعب، من عراضات القواص في المقابر... أريد مائة مقاتل في غضون ساعة، وإلا سقط البيت المركزي».

أعدنا الكرة، وجدّدنا حملة البحث والجمع، فوصلنا بعد ساعة إلى سبعين مقاتلًا على أتمّ الاستعداد للنزول إلى المعركة.

إتصلت ببشير من جديد، فكان رفضه قاطعًا، وعاد يصرخ: «مئة، لا أرضى بأقل من مئة، اخلقوهم لي فورًا».

إستدعينا رؤساء المكاتب والأقسام، وكان الدكتور ميشال يارد بينهم، وأخبرناهم عن الواقع المأساوي الذي يواجهه بشير في الصيفي، وكرّرنا عليهم أنه بحاجة إلى مئة مقاتل. وبعد الاجتماع بقليل، علمنا أن الدكتور يارد انضمّ مع معاونيه

الأربعة عشر إلى المقاتلين، وتوجّهوا جميعًا إلى ميدان القتال. وصعَقَنا هذا النبأ، لعلمنا بأن يارد لم يتدرّب كفاية ليخوض معارك شرسة كتلك الناشبة في الأسواق، ولكننا لم نتمكن من استدراك ما حدث.

أمضينا الليل ننتظر نتائج المعركة التي بدأت كفّتها تميل إلى الكتائب. وفي الصباح أسرعنا إلى قراءة الصحف. وكنا نقرأ، قبل كلّ شيء، أسماء الذين استشهدوا في المعارك. وكم كان ألمنا شديدًا كاويًا لما رأينا اسم ميشال يارد في طليعة تلك الأسماء. وما لبثنا أن علمنا الحقيقة كاملةً وهي أن استشهاده كان بطوليًا. سقط في البدء جريحًا فيما كان يجتاز شارع بنك سوريا ولبنان بعد أن حرّره مع رجاله. وقد أصرّ على أن يكون آخر المارين بعدهم، بصفة قائدهم، فأصابته رصاصة مضاد وهو في منتصف الشارع، فسقط، ولم يستطع رفقاؤه الوصول إليه على الرغم من المحاولتين الجريئتين اللتين قاموا بهما، وقد استشهد أكثر من رفيق في هاتين المحاولتين. ولما وصلت ملاّلة مدرّعة لنجدته كان قد نزف دمه وفارق الحياة.

أبو مارون يرقد اليوم تحت صنوبرة وارفة الظلال على هضبة مار متر في الأشرفية، وهو ينعم بذلك الهناء التام الذي يضفيه الموت على من قام بواجبه الوطني كاملًا.

تدريبب عسكري في النعص بكفيا ١٩٧٥.

طلّاب السنة الأولى في الطب ١٩٨٦.

الدكتور رجا الخوري وزوجته سميّا، عادل برباري وزوجته ميشلين وفيفيان في حفلة تعارف الجامعة مع الفرع ١٩٨٠.



الدكتور شارل مالك مع دكتور فريحة في حفلة تخرّج طلّاب الOCP ١٩٨٤.

مع النائب للOCP الدكتور عبدالله صفير.

تهنئة منى أميوني ودوللي فياض لنوالهما شهادة الدكتوره في OCP عام ١٩٩٣.

طلّاب الهندسة في فرع الجامعة أثناء عرض أعمالهم الهندسيّة بحضور الشاعر سعيد عقل
والنقيب الصحافي الياس عون ١٩٨٩.

طلّاب الهندسة في فرع الجامعة أثناء عرض أعمالهم الهندسيّة بحضور الشاعر سعيد عقل
والنقيب الصحافي الياس عون ١٩٨٩.

عمداء الفرع مع ميشال ضومط عضو مجلس الأمناء في حفلة تخرّج طلّاب الOCP ١٩٨٧.

زيارة بشير للهيئة الشعبية في بيروت ويبدو رئيس منطقة الأشرفية للهيئات الشعبية ريمون روفيل ١٩٨٢.

توقيع كتاب «شعب وهيئة» للهيئة الشعبية ١٩٨٣.

تمثال بشير الجميل في قاعة بشير الجميل في نادي أبناء نبتون ١٩٨٧.

قاعة بشير الجميل المغلقة في نادي أبناء نيبتون ١٩٨٦.

إفتتاح قاعة بشير الجميّل في ENB ١٩٨٦. ويبدو في الصورة صولانج ونديم ويمنى.



علم القوات اللبنانية مُستنسخ من علم الجامعة الأميركية.



نخب الرئاسة.

الفصل الخامس:

معركة المعاهد والجامعات

بموازاة الاستعدادات العسكرية التي بدأت بعد حوادث ١٩٧٢-١٩٧٣ الدامية في لبنان، تحرّك العديد من القطاعات المهنية والاجتماعية، وبينها قطاع الأساتذة اللبنانيين. فعقدوا ندوات واجتماعات تدارسوا فيها الأخطار المحدقة بالجامعة والوسائل التي تساعد على الخروج من تلك الأزمة المصيرية. فألّفوا لجنة مصغّرة عُهد إليها بمتابعة شؤون الوضع الجامعي، والاتصال بالأساتذة اللبنانيين جميعًا كلّما دعت الحاجة إلى رص الصفوف لدعم المرشحين الجديرين بالوصول إلى المراكز الحسّاسة. أذكر من هذه المجموعة شارل مالك، رجا خوري، جان جاك حجار، رجا إيليا، فؤاد حداد، عادل برباري، ميشال نصر، أنور بخعازي، مارون كسرواني. وقد سارت الأمور على ما يرام في هذا التيار حتى العام ١٩٧٥.

وما كادت الحرب تندلع بين اللبنانيين والفلسطينيين، على أثر حادث عين الرمانة حتى اختلطت الأوراق، وأصبح الوجود اللبناني في الجامعة الأميركية مهدّدًا برمّته لوجود هذه الجامعة في منطقتها المعروفة. فتبدّلت الأدوار، وعاد اليساريون إلى المسرح، وظهر المتطرّفون المطرودون، وتوالت عمليات الانتقام: في آذار سنة ١٩٧٦، خُطف وقُتل رياض الحلبي، أحد المسؤولين عن الأمن في الجامعة. وقتل نجم نجم في يوم واحد العميدين ريمون غصن وروبرت نجيمي وأُطلقت النار، فيما بعد، على عفيف الصغيري (رئيس جهاز الأمن في الجامعة)، فأصيب بجروح خطرة في صدره، نجا منها بأعجوبة، ولكنه ما لبث أن قُتل في اعتداء آخر عليه سنة ١٩٧٨على باب حرم الجامعة. وتكرّرت الاعتداءات فقُتل وخُطف وأُهين عدد كبير من اللبنانيين ناهز الـ ٧٥ طالبًا وموظفًا واستاذًا في الجامعة.[١] هذا فضلًا عن اضطرار الأساتذة، وأنا منهم، والموظفين والطلّاب إلى التغيّب بسبب الأحداث الأمنية.

تكاثرت الاتصالات بي وبالشيخ بشير والمراجعات المطالبة بإيجاد حلّ لتلك المعضلة عبر استحداث فرع للجامعة الأميركية في المنطقة الشرقية أسوة

١. لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة اللائحة الأسمية التي أدرجتها في كتابي: They had life.

بالجامعة اللبنانية التي كانت بدأت عملية تفريعها وبجامعة القديس يوسف التي فتحت فرعًا في صيدا لطلاب الجنوب والشوف، لكن إدارة الجامعة لم تتجاوب في البداية. عندئذٍ اضطر بشير إلى قصف حرم الجامعة، ما أدّى إلى تعطيل الدروس فيها. إتصلت شخصيًا بسمير تابت نائب رئيس الجامعة آنذاك وبرئيف ناصيف، مدير كلية الطب وبإيلي سالم، عميد كلية الآداب والعلوم، مجدّدًا الطلب باستحداث فرع للجامعة في المنطقة الشرقية. وكان جوابهم أن هذا القرار يجب أن يأتي من قبل مجلس الأمناء في نيويورك.

جامعة للجميع أو لا جامعة لأحد

رد بشير على هذا الجواب بالتهديد بإغلاق الجامعة بالقوة أي بالقصف المتواصل إن لم تذعن إدارة الجامعة لمطلبنا. فاتصل بي عندئذ سمير تابت وطلب أن أحضّر اجتماعًا لرئيس مجلس الأمناء آنذاك كالفن بلمبتون ببشير في منزلي. حصل الاجتماع في ١٥ تشرين الأول سنة ١٩٧٦ مع بشير بحضور داني شمعون وبلمبتون وتابت وجايمس كاوان رئيس الجامعة بالوكالة آنذاك، والمدير العام لقوى الأمن الداخلي هشام الشعار الذي تولّى نقل مسؤولي الجامعة إلى منزلي. أتى بلمبتون بنفسية غير متفهّمة، ما جعل الاجتماع صاخبًا.

بدأ بلمبتون بالتنويه بصداقته مع الرئيس كميل شمعون والشيخ بيار الجميّل، واستغرب كيف أن ولديهما داني وبشير شذّا عن صداقة والديهما وضربا الجامعة الأميركية بالقذائف. فأجابه بشير بأن الجامعة كانت للجميع ولم تستثنِ أحدًا بالتمتّع بمرافقها وعلمها. أما اليوم فمنطقة بكاملها تحرم من خدماتها مضيفًا: «إما أن تكون الجامعة للجميع أو لا تكون لأحد».

أغاظ هذا الكلام بلمبتون وغادر منزلي مصرًّا بعنف أنه لا وارد لديه فتح فرع في الشرقية. وما إن عاد إلى الجامعة حتى انهالت القذائف على الأبنية مما أدى إلى وقوع جرحى من بينهم ابن نائب رئيس الجامعة للشؤون الخارجية آنذاك جورج حكيم. إزاء تصلّب بشير، اتصل فورًا هشام الشعار طالبًا ترتيب لقاء بين أركان القوات اللبنانية وممثلين عن إدارة الجامعة.

حضر الاجتماع في منزلي بشير ورئيف ناصيف مدير كلية الطب في الجامعة، وسمير الحاج أستاذ التوليد، وغاب داني شمعون. كان الاجتماع سريعًا ومحسومًا إذ إن بشير كرّر موقفه في شكل واضح وخيّر الإدارة بين «فتح فرع للجامعة أو إغلاق الجامعة». فتقرّر فتح الفرع في الشرقية بناء على شروط ثلاثة:

أولًا: يدعى برنامج خارج حرم الجامعة أو Off Campus Program, OCP.

ثانيًا: أن يُغلَق عندما تُلغى خطوط التماس.

ثالثا: أن لا يكبّد الجامعة مصاريف إضافية.

عيّنت إدارة الجامعة الأميركية الدكتور بيار مراد أستاذ الفيزياء أول مدير للفرع، ما أغاظ بشير الذي كان ينتظر أن يتم تعييني في هذا المنصب، فهدّأته. وسار الفرع بسلام مبتدئًا بـ ١٣٥ طالبًا وخمسة أساتذة واضعًا أمام عينيه هدف تقديم جودة التعليم نفسها للطلاب غير القادرين على العبور إلى المقر الرئيسي للجامعة الأميركية. وبعد سنتين تقدّم بيار مراد باستقالته، مقترحًا تعييني خلفًا له، لكن إدارة الجامعة ارتأت تعيين الدكتور حنا مخلوف لسبب مدهش. وقد وردت إشارة إليه في كلام قاله سمير تابت مفاده أن تعييني من شأنه أن يثير استياء حزب الوطنيين الأحرار، بالنظر إلى النفور الحاصل آنذاك بين هذا الحزب وحزب الكتائب، وإلى كوني محسوبًا على بشير، وبالتالي على الكتائب.

تولى مخلوف إدارة الفرع سنتين انتعش خلالهما وأضحى عدد الطلاب يناهز المئة والخمسين طالبًا وبعض الأحيان مئتين، ومواد التدريس قاربت السبعين مادة في حقول الآداب والعلوم والهندسة. غير أن تدخّل الطلاب الحزبيين في شؤون الفرع عطّل تطوره المتنامي، نتيجة المناوشات فيما بينهم التي بلغت في بعض الأحيان حد المعارك. فقرّر حنا مخلوف الاستقالة من إدارة الفرع مصرًّا على أن أكون خليفته لكوني -كما كان يقول مخلوف آنذاك- قادرًا على ضبط الأمور ومنع التدخلات الحزبية في شؤون الفرع. وصدر قرار تعييني رئيسًا «لبرنامج خارج الجامعة» (OCP) بتاريخ ٢٧ آب ١٩٨٠.

تبلّغت قرار تعييني في لندن حيث كنت أمضي سنة في الأبحاث الأكاديمية هي من أجمل الأيام في حياتي المهنية مع العلّامة جيمس د. سميث في جامعة لندن

-إمبريـال كولـدج. فـتردّدت مرتـين إلى أن زارني رسـميًا فـؤاد سـعيد حـداد باسـم الجامعة، وأصرّ عـليّ أن اقطـع إجـازتي العلميـة وأعـود لأستلام إدارة الفـرع. هـذا فضـلًا عـن إصرار بشـير عـلى أن أقبـل باعتبـار أن الموضـوع أصبـح وطنيًـا يهـمّ المنطقـة الشرقيـة بكاملهـا. فعـدت مـع العائلـة، وكان يومًـا مشـهودًا، إذ أرسـل بشـير مجموعـة مـن الأمـن العـام بإمـرة منصـور الأسـمر لفتـح الطريـق أمامـي للوصـول إلى الأشرفيـة سـالمين، بعدمـا مررنـا بمخيمَـي صـبرا وشـاتيلا. وبعـد يومـين أمـرت زوجتـي أن أصعـد إلى ديـر مـار مـارون في عنايـا حيـث مقـام مـار شربـل لتفـي النـذر الـذي قطعتـه مـن أجـل وصولنـا بالسـلامة إلى منزلنـا. أثنـاء الزيـارة حصلـت أعجوبـة بشـفاعة القديـس شربـل لعائلتـي مدوّنـة في كتـاب «شربـل قديـس الخـوارق» لـلأب أنطـوان صيفـي في الصفحـة ١٨٧.

كان التحـدّي الأصعـب إيجـاد مقـر ثابـت وآمـن للفـرع. اسـتأجرنا في البدايـة جناحًـا في معهـد زهـرة الإحسـان، وأماكـن أخـرى تبعًـا للأحـداث الأمنيـة: في مدرسـة عبريـن، ومدرسـة القلبـين الأقدسـين ومعهـد العائلـة المقدسـة الفرنسـية في الفنـار، ومعهـد سـيدة اللويـزه الـذي كان يديـره آنـذاك الأب بشـاره الراعـي، وكذلـك انتقـل بنتيجـة الأحـداث إلى المدرسـة المركزيـة للرهبانيـة المارونيـة في جونيـه، وهنـا لا بـد مـن كلمـة شـكر للأبـاتي نعـمان لمروءتـه الكبـيرة أيضًـا في تسـهيل اسـتعمال مستشـفى سـيدة المعونـات فيـما بعد كمركـز أسـاسي لكلّيـة الطـب وعقـد اتفاقيـة بـين المستشـفى والجامعـة بهـذا الخصـوص. ولمـا عـاد الهـدوء إلى الأشرفيـة أعيـد الفـرع إليهـا، ولكـن مقـرّه كان هـذه المـرة في مدرسـة الآبـاء اللعازاريـين بعدمـا تدخّـل المطـران اليـاس عـودة المعيّن حديثًـا عـلى بـيروت لإيقـاف تجديـد إيجـار مدرسـة زهـرة الإحسـان لفـرع الجامعـة. وكان يـؤمّ الفرع عنـد الحاجـة بعـض الأسـاتذة مـن الجامعـة الأم بـإذن خـاص مـن رئيـس الجامعـة. أمـا الموظفـون فـكان عددهـم واحـدًا فقـط وهـو مسـاعد رئيـس التسـجيل في الجامعـة وسـمح للفـرع بتوظيـفٍ موقّـت لسـكرتيرة واحـدة.

أوّل عمـل قمـت بـه هـو تحضـير حفلـة تعـارف للرئيـس هولـشر وأركان إدارة الجامعـة والشـخصيات السياسـية والدينيـة والتربويـة والاجتماعيـة في المنطقـة الشرقيـة. ففـي ٢٩ كانـون الثـاني ١٩٨٠، حـضر أكـثر مـن ١٠٠٠ شـخصية لبنانيـة ودينيـة واجتماعية الكوكتيـل الـذي أقيـم في مربـع الهوليـداي بيتـش السـياحي ليقابلـوا أركان إدارة الجامعة الأميركيـة في الغربيـة. ومـن بـين الذيـن حـضروا رؤسـاء الأحـزاب والأركان الحزبيـة كميـل

شمعون، بيار الجميّل، إتيان صقر، جورج عدوان، جوزيف سعادة، أمين الجميّل، بشير الجميّل، دوري شمعون، داني شمعون، فادي افرام، ألفرد ماضي، ومن الوزراء والنواب ميشال ساسين، لويس ابو شرف، خاتشيك بابكيان، إدمون رزق، الياس الخازن، بطرس حرب، ومن رجال الدين ممثّل بطريرك الموارنة المطران ضومط، والمطران الياس عودة والأرشمندريت ألكسي مفرّج، والأباتي بولس نعمان، ورؤساء الجامعات اليسوعية، واللبنانية، والروح القدس - الكسليك، وكليّة بيروت الجامعية، وشخصيات عديدة من متخرّجين وأصدقاء الفرع.

إمتدت السهرة حتى ساعة متأخّرة من الليل. جرت أثناءها أحاديث بين الزعماء وإدارة الجامعة صبّت كلّها في إطار تقوية فرع الجامعة في الشرقية وإفساح المجال لمنطقة الجبل المسيحي من الاستفادة والتنعّم بالثقافة الأنكلوساكسونية المتمثّلة بالجامعة الأميركية. وهنا أذكر مقولة صديقي الدكتور فؤاد سعيد حدّاد وهي أن «الجامعة الأميركية وصلت وتعدّت أبعد كثب في صحاري العالم العربي، لكنها لم تصل أو تتعدّى نهر الكلب للوصول إلى الجبل المسيحي». كانت هذه الانطلاقة مباركة، إذ التحق بالفرع في الفصل الذي تلا تعييني عشرات الطلاب وارتفع العدد من ١٧٠ طالب إلى نحو ثلاثمئة.

مغامرة استحداث كلّية الهندسة

تردّت الحالة الأمنية مجدّدًا وشهدت خطوط التماس معارك حادّة، ما جعل التنقّل بين الشرقية والغربية مستحيلًا، واضطر حوالي إثني عشر أستاذًا ومئة طالب، في كلّية الهندسة في الجامعة الأميركية، القاطنين في الشرقية، إلى التخلّف عن الالتحاق بدروس الفصل الثاني من السنة الدراسية. ومن هؤلاء الأساتذة حنا مخلوف، وعبدالله صفير، وسامي كلنك، وألبير قرعان، وهراتش بابازيان ومعين سلامه. وجاءني وفد منهم يطالبني باستحداث فرع للهندسة في الشرقية.

كان القرار صعبًا وشبه مستحيل لعلمي التام أن الإدارة في الجامعة الأم ترفض رفضًا باتًا هذا التدبير، وبخاصة لأن الفرع ليس مؤهّلًا ليستوعب هذا العدد من الطلّاب ولا تتوفر فيه التسهيلات والمختبرات التطبيقية للهندسة. صبرت أسبوعًا

ولم تتحسّن الحال الأمنية. وازداد الضغط عليّ. فجمعت الطلّاب والأساتذة في ١٥ آذار ١٩٨١ في منزلي في الهوليداي بيتش، وأخذت معهم قرار استحداث فرع لكلّية الهندسة في الشرقية. وسجّلت الطلاب واستوفيت منهم قسط الفصل الثاني وأعطيتهم إيصالات رسمية بإسم الجامعة. واتصلت، في الوقت نفسه، برئيس مدرسة برمانا العالية السيد دانكن كامبل، واتفقت معه على أن أستأجر المبنى الكبير المستحدث على كتف قرية رومية وكان يسمى «مبنى الباطون». وكلّفت عمالًا بإعداد قاعات للمحاضرات وللإدارة وللأساتذة.

كما واتصلت بكلية الهندسة في جامعة القديس يوسف وبعميدها المغوار سليم كاتافاغو الذي قدّم لي كافة التسهيلات لجهة استعمال طلّابنا لمختبرات الجامعة اليسوعية. والأمر نفسه حصل مع رئيس الجامعة اللبنانية الدكتور جورج طعمه الذي أمّن لطلابنا مختبرات الدكوانة التابعة للجامعة من أجل أعمال تطبيقية أخرى تعود للهندسة. وفي غضون ثلاثة أيام، ابتدأ التدريس في برمانا لفرع كلية الهندسة. وقد قمت بجميع هذه الإجراءات قبل أن أستحصل على إذن رسمي من إدارة الجامعة الأميركية التي كان يرأسها بالوكالة السيد دايفيد دودج، وهو ابن بايارد دودج وحفيد دانيال بلس، مؤسّس الجامعة، من جهة والدته زوجة بايارد دودج.

جنّ جنون دايفيد دودج وكنعان كانو، عميد كلية الهندسة آنذاك، وقرّرا في اجتماع مجلس العمداء في الجامعة زيارتي لمواجهتي وإبطال عملي هذا غير الانضباطي.

لم أُعلم بالزيارة. فجأة رأيت الأكارم دايفيد دودج وسمير تابت، نائب الرئيس، وإيلي سالم، عميد كلية الآداب والعلوم، وكنعان كانو، ورجا خوري، عميد كلية الطب، في منزلي في الهوليداي بيتش في ٢٠ آذار ١٩٨١. وصلوا منهكين إلى منطقة نهر الكلب بعدما اجتازوا خطوط التماس آنذاك بعد طول عناء ومشقة مع هشام الشعار. ذهبنا إلى البار في الهوليداي بيتش، وكان انفعال دايفيد دودج كبيراً، إذ ما إن جلسنا حتى واجهني بكلام قاسٍ لا يخلو من التهجّم على عدم انضباطيتي وعدم التزامي بمسؤوليتي تجاه الجامعة. وكيف أسمح لنفسي باستحداث كلّية هندسة بفروعها الأربعة: معمارية وميكانيكية وإلكترونية ومدنية من دون الرجوع

إلى الإدارة في الجامعة الأم وأخذ الإذن منها. وكيف أسمح لنفسي بتسجيل الطلاب وتقاضي أقساطهم، وبالتالي توريط الجامعة بقانونية هذا الإنجاز الذي برأي دودج غير ممكن وغير مقبول.

ثم فاجأني بجملته القاسية التي أردّدها عليه مازحًا في كل مرة نلتقي فيها: «لو باستطاعتي الآن أن أقطع عنقك لفعلت». وقبل أن يستطرد دودج قاطعته بتقديم استقالتي على ورقة متواضعة استحصلت عليها من خادم المطعم، وقلت له: «كنتُ أمام خيارين: إما أن أنتظر وأنتظر كثيرًا مسار الروتين الإداري من أجل لملمة الطلّاب والأساتذة أو أسير بموجب إنسانيتي كمربّي وكمدير وإن كانت صلاحياتي غير محدّدة بأية اتفاقية مكتوبة أو توجيه شفهي. لذلك ارتأيت أن آخذ هذا القرار التاريخي من دون توبيخ ضمير أو ارتجاج في الوجدان والأهم أن قراري هذا هدّأ موجة عارمة من ثورة الطلاب الذين كانوا يُحرمون من التدريس. وإذا شاءت الجامعة أن تدينني فهذه استقالتي بين يديك».

هدأت أعصاب دايفيد دودج بعض الشيء وساهم في تهدئته أيضًا تدخّل العميدين إيلي سالم ورجا خوري اللذين شعرتُ بأنهما كانا يتفهمان موجبات الخطوة التي قمت بها، ويؤيّدانها بخلاف تصّلب وتحجّر كنعان كانو وصمت سمير تابت. ثم سألني دايفيد دودج: «ماذا سيكون موقف بشير إذا قبلت استقالتك وأغلقنا فرع الهندسة المستحدث؟» فأجبته: «لا أدري». فاستطرد قائلًا: «أنا أدري وهذا ما أخشاه».

مزّق دايفيد دودج ورقة استقالتي، موضحًا أن الوقت غير ملائم وليس من بديل لي في الوقت الراهن. ثم طلب مني أن أحدّد له موعدًا مع بشير الجميّل ليساعد في كسر قرار فتح فرع الهندسة وتهدئة الطلاب الحزبيين الذين سيهبّون بشكل عنيف إذا ما كسر القرار. إتصلت فورًا ببشير وأخذنا موعدًا بعد يومين في منزله في الأشرفية. فأبكر دايفيد دودج بالمجيء صباح يوم الموعد وبرفقته سمير تابت وكنعان كانو وأنا. وكانت مناسبة ولادة يمنى ابنة بشير وقدّمت لنا أطباق «المغلي».

فاتح دودج بشير بأن عملية استحداث فرع الهندسة في الشرقية بالشكل العفوي الذي حصل لن يكون مثمرًا من حيث المستوى، إذ إن الفرع غير مجهّز لاحتضان كلّية حسّاسة تتطلّب سنوات عديدة من التحضير والتجهيز لتصبح ملائمة.

ثـم أعطـى دودج الحديـث لسـمير تابـت الـذي سـعى أيضًـا لإقنـاع بشـير بعـدم نضـوج مـشروع الهندسـة في الشرقيـة بعـد؛ ثـم تكلّـم كنعـان كانـو وأدلى بحديـث مسـتفيض عـن المسـتوى وعـن المجازفـة الخطـيرة التـي قـام بهـا فريحـه.

كان بشـير يـدوّن عـلى ورقـة الملاحظـات، ثـم أخـذ الـكلام مجيبًـا دودج وتابـت وكانـوا معًـا بـأن المسـتوى التعليمـي في الغربيـة وخاصـة في كلّيـة الهندسـة لا يُحسـد عليـه وأعطـى أمثلـة عديـدة عـن أسـاتذة أهينـوا مـن طلابهـم وهُـدّدوا ليعطـوا علامـات غـير مسـتحقّة، وعـن أسـاتذة خُطفـوا، ومنهـم الدكتـور سـامي كلنـك، وكيـف تدخّـل شـخصيًا لإنقاذهـم مـن الهـلاك. وطـمأن الحاضريـن إلى أن الفـرع سـيكون مسـتواه أرفـع مـن رديفـه في الغربيـة لأن مناخـه سـيبقى أكاديميًـا وأسـتاذه حـرًا ومختبراتـه الموضوعـة في تصرفـه مـن قبـل جامعـات الشرقيـة صالحـة جـدًا. تحـدّث مجـددًا دودج فذكّـر بشـير بأنـه أصبـح مؤخّـرًا يبـشّر بتوحيـد البلـد وإعـادة الأمـور إلى مـا كانـت عليـه قبـل الحـرب. فوافقـه بشـير وقـال لـه إنهـا حـسرة في قلبـه أن يـرى لبنـان ثانيـة موحّـدًا كـما كان عليـه. وإذّاك سـيكون وضـع الجامعـة الأميركيـة مختلفًـا فيترأّسـها مثـلًا جـورج فريحـه بـدلًا مـن دايفيـد دودج.

قالهـا بشـير بمزيـج مـن المـزاح والجـدّ. وجـم وجـه دودج ثـم ابتسـم بتكلّـف، وقـال لبشـير: «أرجـو إبقـاء فـرع كلّيـة الهندسـة لجـورج فريحـه وإبقـاء رئاسـة الجامعـة لي». وهكـذا فقـد ثبـت فـرع الهندسـة في الشرقيـة؛ ولم يخطـئ بشـير الجميّـل برهانـه. فبأقـل مـن سنة أصبـح مسـتواه أرفـع مـن مسـتوى رديفـه في الغربيـة، إذ اجتـذب أسـاتذة مـن المسـتوى الرفيـع جـدًا، معظمهـم مـن خريجـي أكـبر الجامعـات الأميركيـة والأوروبيـة كهارفـارد وبرنسـتون ومساتشوسـتس ولنـدن، ويـال والسـوربون. ووصـل عـدد الطـلّاب في فـرع الجامعـة إلى ١٦٠٠ طالـب و١٠٩ أسـاتذة و٧٦ موظفًـا إداريًـا.

فروع الجامعة اللبنانية:

أمـا أوضـاع الجامعـة اللبنانيـة فكانـت صعبـة جـدًا وبخاصـة ابتـداء مـن مطلـع السـبعينات لوقوعهـا تحـت سـيطرة اليسـاريين. ومـما زادهـا تردّيًـا تسـاهل رئيسـها آنـذاك الدكتـور إدمـون نعيـم وتماديـه غـير المـبرّر الـذي بلـغ حـدود التواطـؤ مـع الطـلاب المتطرّفـين بالإذعـان المطلـق والمسـتمر لمطالبهـم، مهـما تكـن مخالفـة للقانـون

وحتى المنطق. فكانت النتيجة اهتراء وتردٍ لأوضاعها الأكاديميّة والتربويّة والإداريّة وللحياة الطلّابية فيها.

ولا يجهلنّ أحد أن وضع الجامعة اللبنانية يختلف اختلافًا جوهريًا عن وضع الجامعة الأميركية لأسباب عديدة، منها أن اللبنانية تتأثّر مباشرة بالدولة وبوزارة التربية على الأخص، وأنْ تكن محصّنة مبدئيًا، باستقلالها الذاتي إداريًا وتنظيميًا. فتعيين العمداء، والترقيات، وما إليها من الشؤون الإدارية خاضعة كلّها لموافقة وزارة التربية ومجلس الوزراء. وهذا ما يطبعها حتمًا بالطابع السياسي وتجاذباته المعروفة التي يتضاءل بنتيجتها مستواها العلمي والأكاديمي، ويجعلها، إلى حدّ ما، مكبّلة الأيدي ومسيّرة أكثر منها مخيّرة في خياراتها.

بدأ الصراع فيها بين اليسار واليمين في أواخر الستينات وأوائل السبعينات. وفي معظم الأوقات كان اليساريون يفوزون بأكثرية المقاعد التمثيلية للطلّاب. وأدّت علاقات اليساريين الوطيدة برئيس الجامعة إلى شلّ الحركة وعرقلة النشاط الطلّابي في مختلف الكليات، إلّا في كل ما كان يصبّ في خانة التيارات السياسية اليسارية والمناصرة للكفاح الفلسطيني. وتخطّى ضرر هذا الشلّل والعرقلة إطار الجامعة اللبنانية إلى معاهد عامة وخاصة عديدة. فإذا أضربت الجامعة اللبنانية سعى القائمون بالإضراب إلى جرّ المعاهد الأخرى للسير في ركابهم، وغالبًا ما نجحوا في مسعاهم باعتبارهم يمثّلون الجامعة الأم، والأكبر، والحاملة اسم لبنان. فلا عجب إذا اقتدت بها فورًا الجامعة العربية، ثم الأميركية، فالمعاهد على اختلاف ألوانها ونزعاتها. ولم يسلم من هذه الحلقة الهدّامة سوى الجامعة اليسوعية، ومعهد الحكمة والمعاهد الواقعة جغرافيًا في المنطقة الشرقية.

كان لهذا الوضع الشاذ تأثيره العميق، ليس في الحياة التربوية فحسب، بل في مختلف المناخات الاجتماعية والسياسية في البلد. ولم يغفل بعض السياسيين عن استغلال هذا الواقع، فكان كمال جنبلاط، مثلًا، إذا أراد أن يشلّ الحركة العامة، يوعز إلى طلاب اللبنانية بالإضراب والتظاهر، فتغلق المتاجر، وتقفر الأسواق، وتقفل المدينة، ويعمّ الجمود المنذر بالانفجار. وزاد الطين بلّة أن طلّاب الأحزاب اليمينية في الجامعة اللبنانية كانوا منقسمين. فالكتلة الوطنية في وادٍ، والأحرار في وادٍ آخر، والكتائب في وادٍ ثالث. ولا ننسى أن الأكثرية هي دائمًا صامتة ومشلولة، لأنها غير منظّمة.

تنادى بعض العمداء في الجامعة اللبنانية واتّصلوا بي طالبين الاجتماع ببشير ليدرسوا الوضع معه، ويتّفقوا على مخرج ينقذ الجامعة من دوّامة الفوضى والضياع. فهيّأت لهم هذا اللقاء الذي ضم سعيد البستاني، وإيلي طراد، وجاك نصر، رحمهم الله، وبشير العريضي. وبدأت تدريجيًا رابطة الطلاب اللبنانيين في الجامعة الأميركية تميل إليّ وتكرّر اجتماع بعض أركانها في منزلي وكان منهم روجيه ديب، وألفرد ماضي عن الكتائب، مارون حلو عن الأحرار، جورج بحر عن الكتلة الوطنية وغيرهم. في هذه الفترة، برز تحوّل كمال الصليبي فجأة إلى المعسكر الثاني أي إلى الفلسطينيين واليساريين، وأصبح بين ليلة وضحاها حليفهم والمدافع عن قضاياهم.

تعدّت نشاطاتنا التربوية إطار الجامعة الأميركية إلى جامعات وكليات أخرى كما تعدّدت اللقاءات على مستوى عمداء ورؤساء الجامعات برئاسة بشير. وقد نظّمت له تباعًا ندوات ولقاءات أهمها حصل في منزلي في ٢٤ كانون الثاني ١٩٧٤ بحضور رؤساء الجامعة الأميركية بالوكالة، سمير تابت، كلّية بيروت الجامعيةBUC ، رياض نصار، والجامعة اللبنانية ممثّلة بالعمداء زاهية قدّورة، وجاك نصر، وبشير العريضي، وقيصر نصر، وسعيد البستاني وقبلان كيروز ومن الرسميين الشيخ بيار الجميّل، وجوزيف شادر، وإدمون رزق، ولويس أبو شرف. وفي كل اجتماع كان بشير محوره، وأخذ تدريجيًا يستأثر بمشاعر الحاضرين ويتطوّر في استيعاب الشؤون التربوية في لبنان ويصبح المرجعية لحلّ المشاكل.

بعد تثبيت فرع الجامعة الأميركية، قصد بشير الدكتور أسعد رزق، وزير التربية، ليبحث معه مسألة استحداث فروع للجامعة اللبنانية في المناطق الشرقية. لم يتّفق الوزير رزق مع بشير مشدّدًا على توحيد العلوم الجامعية وعدم تقسيم الجامعات. كان الاجتماع صاخبًا إلى حدّ حمل بشير على أن يشكو الوزير رزق عند الرئيس الياس سركيس الذي دعاه لزيارته في القصر الجمهوري للبحث في الموضوع، فاصطحبني بشير معه. وبعد فترة وجيزة على بدء الاجتماع، حذّر الرئيس سركيس بشير من القيام بعمل شائن ضد الوزير رزق من خطف أو ما شابه، كما حصل سابقًا مع طوني سعد مدير عام كازينو لبنان عندما لم يلبّي هذا الأخير طلب المساعدة المادية للمقاومة اللبنانية.

ثـم طلـب الرئيـس سركيـس مـن بشـير أن يتحـاشى الاتصـال بالوزيـر رزق بموضـوع استحداث فـروع للجامعـة اللبنانيـة، بـل يتعـدّاه للعمـل مبـاشرة مـع رئيـس الجامعـة اللبنانيـة آنـذاك الدكتـور بطـرس ديـب الـذي تـولى رئاسـتها مـن سـنة ١٩٧٦ حتـى سـنة ١٩٨٠. وقـال لبشـير: «نتفـق مـع رئيـس الجامعـة وأنـا أتـولّى إصـدار المراسـيم لإنشـاء الفـروع».

وفي منتصـف شـهر شـباط سـنة ١٩٧٧ دعـا بشـير الدكتـور ديـب إلى الغـداء في منزلـه في الأشرفيـة ودعـاني معـه للبحـث بالموضـوع. كانـت جلسـة هادئـة اسـتفاض فيهـا الدكتـور ديـب بمـا عنده مـن معلومـات عـن الحقـل التربـوي مـن أيـام حمورابي حتـى يومنـا هـذا، مسـتأثرًا بالـكلام خـلال الغـداء مـن دون أن يـأكل أو يـشرب. وبعدمـا أنهـى الدكتـور ديـب حديثـه الطويـل، توجّـه بشـير إليـه وسـأله بشـكل هجومـي: «هـل ستقبل باسـتحداث فـروع للجامعـة اللبنانيـة أم لا؟» فـما كان مـن الدكتـور ديـب إلا أن تنهّـد تنهيـدة طويلـة ثـم قـال: «إسـمع يـا بشـير، أنـا رجـل شـبه مريـض بـداء المفاصـل Arthrites، لا أحتمـل صحيًـا دخـول صنـدوق سـيارة أو مـا شـابه. هـذا يضنينـي، لذلـك أرجـو أن تعـرض عـليّ مـا تشـاء بخصـوص تفريـع الجامعـة وأنـا عـلى اسـتعداد لتوقيعـه فـورًا. للتـو، أعطينـاه المرسـوم الـذي سـبق أن حضّرنـاه مـع الزمـلاء المعنيـين الأخصائيـين، فوقّعـه. وبهـذا أخـذ مـشروع تأسـيس الفـروع في الجامعـة اللبنانيـة شرعيتـه القانونيـة، بعدمـا كانـت الظـروف الأمنيـة والسياسـية قـد فرضـت البـدء في خضـم الأحـداث.

يمكـن اعتبـار هـذا الاجتـماع محطـة تاريخيـة بالغـة الأهميـة في مسـار بشـير السـياسي، فقـد تـوّلى رئاسـته في جـو مـن الرصانـة التامـة، وأدار مناقشـاته بمـا فُطـر عليـه مـن الحـزم والجـرأة والصراحـة. ففـي هـذه الفـترة، وكـما أسـلفنا سـابقًا، كان بشـير بـدأ يسـتفيد مـن أخطائـه الطفيفـة والبريئـة، عـلى مسـتوى الأداء والتواصـل، ويتطـوّر بسرعة مذهلـة ويبلـغ حـدًا متقدّمًـا مـن الاحـتراف الـذي أضفـى عـلى جاذبيتـه الفطريـة سـحره القيـادي الـذي جعـل منـه تلـك الأسـطورة.

الفصل السادس:

المقاومة الاجتماعية:
الهيئات الشعبية والأندية

راحـت الحـرب تسـتفحل وتتفاقـم، فتجـرف بويلاتهـا كل معـالم الحضـارة. وبقـدر ما ضعفـت سـلطة الدولـة وتقلّصـت، كانـت مؤسّسـاتها وخدماتهـا تصـاب بالشـلل ثـم تنهـار. واضطـر المواطـن اللبنـاني إلى دفـع ثمـن هـذا الاهـتراء مـن حياتـه وهنائـه وراحتـه مع غيـاب الخدمـات العامـة مـن التنظيـم البلـدي والصحـي والاجتماعـي عـلى اختـلاف أصعـده. تراكمـت النفايـات في زوايـا الشـوارع والأزقـة. تفجّـرت المجاريـر وتدفقّـت أوسـاخًا تنـشر الأوبئـة. تقطّعـت أنابيـب الميـاه وأسـلاك التلفـون والكهربـاء. أحدثـت القذائـف حفـرًا في الطـرق، وفجـوات في الأبنيـة، ودمـارًا في كلّ مـكان، فأصبحـت الحيـاة اليوميـة محفوفـة بالمصاعـب والخطـر. وامتـلأت النفـوس قلقًـا واضطرابًـا. فتنـادى بعـض شـبان الأشرفيـة العليـا وتجمّعـوا، ثـم اقتـدى بهـم شـبّان الأشرفيـة الوسـطى، وقـرّروا تنظيـم وحـدات منهـم لمعالجـة هـذه المشـكلات الحياتيـة المسـتجدّة، فألفـوا لجانًـا، ضم معظمهـا طلّابًـا، تصـدّت كل واحـدة منهـا لمشـكلة حياتيـة يعـاني منهـا أبنـاء الأشرفيـة، وبـاشروا العمـل بالسرعـة المرجـوّة والنشـاط المنشـود. وكانـت لجانهـم العاملـة آنـذاك: لجنـة الصحـة، لجنـة البلديـات، لجنـة المـال، ولجنـة الشـؤون الاجتماعيّـة. وكان لـكل لجنـة رئيـس يتـولّى مسـؤوليته دوريًـا مـرةً في الشـهر.

حجـزوا، عـلى يـد الكتائـب، بعـض شـاحنات البلديـة، واسـتعملوها لجمـع النفايـات، وتجنّـد لهـذا العمـل حـوالي أربعـين شـابًا تجـاوز نشـاطهم الأشرفيـة، فبلـغ الرميـل والمـدّور والصيفـي. وجـاءت النتائـج أفضـل بكثـير مـن العمـل الـذي كانـت عـشرات الشـاحنات ومئـات العـمال والموظفـين مـن صناديـق الدولـة. وحصلـت المجموعـات المتطوعـة عـلى مبيـدات أخـذت ترشّـها في الأماكـن القـذرة وتطهّرهـا مـن الجراثيـم والحـشرات والقـوارض. وأطلـق العاملـون في هـذا الحقـل الإنسـاني عـلى أنفسـهم اسـم «الهيئـة الشـعبية»، وأوجـدت الهيئـة في كل حـيّ فرعًـا أشركـت فيـه أبنـاءه في العمـل عـلى مختلـف الصعـد، واتخـذت اللجنـة الأم مركـزًا لهـا في تياتـرو الأليزيـه.

تحقّق بذلك حلم موريس الجميّل الذي باشر منذ الستينات التبشير بمثل هذا العمل الشعبي، وسمّاه «البرلمانات الشعبية» وسجّل تفاصيل تكوين جهازه ونواحي نشاطه في كتيّب أصدره لما كان وزيرًا للتصميم سنة ١٩٧٠ تحت عنوان «نواة التنظيمات للشعب اللبناني لتطبيق مبدأ المشاركة-برلمان الشعب». ويتجسّد حلم موريس الجميّل هذا بتنظيم الشعب في مجموعات، أو جمعيات، أو أندية، تصبّ كلّها في برلمان، أو هيئة، أو مجلس، مهمّته المشاركة في تحمّل مسؤولية الشؤون العامة، حتى لو كانت من اختصاص الدولة. وكان، رحمه الله، يريد إشراك كلّ مواطن في عمل ما يخدم المجموعة، على أن تكون هذه الخدمة في إطار الاختصاص والكفاءة، وعلى مستوى من التنظيم الدقيق الفعّال.

كان الشيخ موريس يعتقد أن لكل مواطن حقًا في النقد والمحاسبة. ولا يمكن أن يكون لنقده ومحاسبته قيمة واقعية، إلا إذا كان قريبًا من الأحداث واشترك في مسارها. وهذا ما جعله يفكر بصهر المجموعات في مجلس أو برلمان يحاسب المسؤولين إذا أخفقوا في توسيع نطاق المشتركين في العمل أو في تنفيذ الأعمال التي يفرضها التطوّر الحضاري.

«فالهيئة الشعبية» إذن، كانت، في جوهرها، تحقيقًا لحلم الشيخ موريس انطلاقًا من الأشرفية. وقد جاء هذا التحقيق عفويًا، تلقائيًا ووليد الحاجة الملحّة إليه.

إتّسع نشاط «الهيئة الشعبية» في الأشرفية، وكان نجاحه موازيًا لما يتلقّاه من حزب الكتائب من الدعم والمساعدة. وكان جان ناضر في البدء يراقب هذا النمو باهتمام مرموق، ولم يكن بشير أقلّ منه حرصًا على الوصول إلى نتائج إيجابية، وقد طَلَبَ إليّ أن أرعى الهيئة وأعمل على انتشارها في سائر مناطق بيروت. وبسحر ساحر، انتقلت عدوى نشوء الهيئات إلى الرميل، ثم الصيفي، ثم المدور، فوُضع لها نظام عام، وألحقت بها لجان تخصّص إضافية، وارتفع عددها من ٤ إلى ٧، بعدما استُحدثت ثلاث لجان للاهتمام بقضايا التربية، والإعلام، والتصميم.

ومع وضع تنظيم لها، رُسم مخطّط نظري واسع وفضفاض، وألحقت الهيئات بمؤسسة «دار العمل» التي أنشئت في الوقت نفسه. وطُلب إليّ أن أكون منسّقًا

عامًا للهيئات الشعبية. ومن أهم إنجازاتها: إستحداث سوق للخضار، وإطلاق فكرة أكياس النفايات وتنفيذها، وكان ذلك بالغ الأهمية ولم يسبق له مثيل في لبنان، وإنشاء مستوصفات، وإجراء إحصاء شامل لبيروت الشرقية استعانت به بعض الوزارات منها وزارة الشؤون الاجتماعية لتوزيع حصص من المواد الغذائية على المحتاجين والمهجّرين، ونشر دليل للهاتف يشمل الشخصيات، والوظائف، والمطاعم، والصيدليات، وغيرها من المؤسّسات التي لا غنى للمواطنين عنها، وإيجاد الملاجئ والإسعاف الأولي، والدفاع المدني في أثناء القصف، ووضع اليد على التعاونيات.

وفي مدة ستة أشهر، انتقلت عدوى الهيئات من بيروت إلى الجبل، فبدأت بالمتن، وانتقلت منه إلى بعبدا، فكسروان، فالشمال. وفي العام ١٩٧٦، أصبح عددها ١٤١ هيئة شعبية يديرها متطوّعون لا يقل عددهم عن ١٤٠٠٠ عضو. ولا يمكن تعداد ما أنجزته هذه الهيئات. أما اهتمامها الجدير بالذكر فيختص بضمان المدارس، وإنشاء الإذاعات، وبناء الجسور، ومنع الكسارات، وجمع المواد الغذائية وبيعها بأسعار مخفّضة، وإيجاد تعاونيات ومحلّات «سوبر ماركت»، وتأليف محاكم ميدانية، وغير ذلك من الشؤون الاجتماعية الرامية إلى إشاعة النظام والهدوء، وتوفير الأشياء الضرورية لسدّ الحاجات الحيوية. وكانت كلّها مرتبطة بجهاز تنسيق عام يضمّ أمانة سرّ، ومسؤولًا عن كل لجنة اختصاص مرادفة للجان العاملة في الهيئات المحلية. وقد أوردت تفاصيل أعمال الهيئات الشعبية في كتاب «شعب وهيئة» الصادر سنة ١٩٩٣.

حلّ «الهيئات الشعبية»... موقّتًا

بعد انتخاب الياس سركيس رئيسًا للجمهورية، طلب الشيخ بيار إليّ حلّ الهيئات الشعبية كلّها للإفساح في المجال للسلطة الشرعية، والتمهيد لعودتها إلى ميدان العمل العام، وتحريك أجهزتها، من بلديات، وقائمقاميات، ومحافظات، ودوائر، ومصالح تعمل كلّها لخدمة الشعب.

وافقت على حلّ الهيئات الشعبية مؤمنًا بأن هذا التدبير يدعم الدولة، ويشجّعها على القيام بدورها الطبيعي. وكم كان أسفي شديدًا، وخيبتي عظيمة

المـرارة لما تقاعسـت الدولـة، أو عجـزت لأسـباب معروفـة، عـن تأديـة عملهـا وإدارة أجهزتهـا في إطاراتهـا المحـدّدة، فبقيـت مشـلولة، وراحـت تـزداد تعـثّرًا، خصوصًـا لأن البلديـات أصيبـت بنـوع مـن الهـرم جعلهـا عاجـزة عـن القيـام بالعمـل المفـروض عليهـا، إذ تـوفيّ معظـم أعضائهـا وشـاخ بعضهـم الآخـر. في هـذه الفـترة، وُلِـدَت فكـرة إنشـاء «الهيئـة المشـاركة» التـي أردناهـا إطـارًا شـاملًا يحتـوي كل المؤسسـات والفعاليـات العاملـة في الحقـل الاجتماعـي والحيـاتي. فـإذا بهـا تضـم الهيئـات الشـعبية السـابقة، وهيئـة حمايـة المسـتهلك التـي تـولّى الدكتـور فكتـور غريـب الإشراف عليهـا، وحركـة الأنصـار، ولجنـة أصدقـاء الكتائـب، ولكـن هـذه الهيئـة لم تُعمِّـر لأنهـا لم تنشـط كـما يجـب، بـل تلاشـت تدريجيًـا ومـن تلقـاء نفسـها.

بقيـت الهيئـات منحلّـة أو مجمّـدة حتـى اسـتدرك الحـزب غيـاب الدولـة مجـدّدًا وانهيـار المؤسسـات العامـة، فطلـب إليّ في العـام ١٩٧٩ إنشـاء الهيئـات الشـعبية مـن جديـد وإلحاقهـا بـه، بموجـب مذكّـرة أصدرهـا الأمـين العـام لحـزب الكتائـب، وهـذا نصّهـا:

ومـا كـدت أعـود مـن لنـدن في حزيـران ١٩٨٠ حتـى بـادرني بشـير معربًـا عـن رغبتـه في إعطـاء دفـع للهيئـات الشـعبية وتنشـيطها وتحريكهـا، لأنهـا تؤلّـف، بحسـب رأيـه، عمـق المقاومـة الاجتماعيـة.

سـجّلت هـذه الهيئـات خطـوات تقدّميـة مرموقـة، وسـارت في عملهـا عـلى تنظيـم جديـد شـارك الحـزب في وضعـه ممثـلًا بجوزيـف معـرّاوي وميشـال تحومـي، مـع أركان المكتـب المركـزي ممثـلًا بالمنسـق العـام ونائبـه لورانـس شـدياق وساسـين كـرم، وطـوني مفـرّج، ونديـم شـويري. ولحـظ النظـام الجديـد وجـوب إيجـاد مكاتـب إقليميـة تقـوم عـلى ترتيـب هرمـي شـبيه بترتيـب المكتـب المركـزي، وفيـه مناصـب مرادفـة لمناصـب هـذا المكتـب هـي: الرئاسـة، نيابـة الرئاسـة، أمانـة السـر، أمانـة الصنـدوق، فضـلًا عـن رئاسـات لجـان الاختصـاص التـي أصبـح عددهـا إحـدى عـشرة هـي: الصحـة، التربيـة، الإعـلام، الشـؤون الحياتيـة، الأشـغال والبلديـات، المـال، البيئـة، التصميـم، الدفـاع المـدني، المفتشـية، والرياضـة والشـباب.

نشطت هذه الهيئات بزخم وعطاء كبيرَين أتاحا للمجتمع أن ينعم بطمأنينة قلّ نظيرها في فترة الحرب اللبنانية، وفي الوقت نفسه، أعطت بشير بُعدًا إضافيًا ميّزه عن سائر القادة السياسيين. إذ عندما جاءت اللجنة المختصّة في الشؤون الاجتماعية التابعة للمركز الدولي للإنماء في جامعة ماريلاند الأميركية برئاسة البروفسور لويس سنايدر من قسم الإنماء، تبحث عن أسباب نجاح بشير السريع في بلوغ رئاسة الجمهورية، توصّلت إلى خلاصة مفادها أن العوامل الثلاثة الأساسية التي مكّنته من ذلك هي: شخصيته الفذّة وقوته العسكرية، وتأليفه مجتمعًا نموذجيًا من خلال أداء الهيئات الشعبية[٢]. وكان بشير شديد الاهتمام بهذه الهيئات، يدعمها ماليًا ومعنويًا وعسكريًا، ويعتبرها مولودته وابنته المدلّلة. وحرص على أن يكون وفيًا لها، بعدما ساهمت في بداية انطلاقته السياسية في العام ١٩٧٦، من خلال تنظيم اجتماعات له مع عائلات المنطقة، وندوات كبيرة في الكنائس والقاعات، ألقى فيها محاضرات، وخاض فيها مناظرات، فأبدع وحلّق واجتذب الشعب بسحر لا يقاوَم.

وكانت الهيئات تهيّئ له أيضًا لقاءات مع المؤسسات والفعاليات والأندية لاستعراض مشكلاتها أمامه، فكان يبادر شخصيًا، إلى حل بعضها، ويحيل بعضها الآخر إلى أصحاب الاختصاص.

ضم «الهيئات الشعبية» إلى القوات اللبنانية

كانت الهيئات إذًا، بالنسبة إلى بشير، بمثابة منبر يطلّ منه على الشعب، فضلًا عن كونها وسيلته للاختلاط بالناس، والتفاعل معهم، ناهيك عن أنها كانت تضمّ خيرة أبناء هذا المجتمع، ومعظمهم من غير الحزبيين. وهذا ما أشار نظامها إليه بوضوح تام، مؤكّدًا أن هؤلاء اللاحزبيين هم أشدّ الناس إخلاصًا لبشير الجميّل، يحملون رسالته مؤمنين بقضيته وقيادته، وينادون باسمه فخورين معتزّين.

---

٢. مجلة «الشرق الأوسط» (Middle East Journal) في العدد ٣٨، رقم ١، سنة ١٩٨٤، من الصفحة ١ الى الصفحة ٣٣. ونُشرت أيضًا في المجلة الأميركية «التايم ماغازين» في الوقت نفسه و جاء فيها: «... اكتسبت «الهيئات الشعبية» أهمية على الصعيد الوطني، وشهرة على الصعيد الدولي، إذ أصبحت محط إعجاب الوفود الأجنبية التي زارت لبنان وتقديرها، وذلك لما تحمله هذه المؤسسة من رقي على صعيد العلاقة بين المواطن والمسؤول».

ولكن هذه العلاقة الوثيقة لم تحلْ دون حصول سوء تفاهم بينه وبين الحزبيين كاد ينقلب نفورًا متبادلًا، أو بيننا وبينه، عندما أراد أن يضمّ الهيئات الشعبية إلى القوات اللبنانية في أواخر العام ١٩٨١ وأوائل ١٩٨٢، ولكنه لم يفلح.

فقد فاجأني بشير يومًا، جريًا على عادته، وقال لي بلهجة فيها مزيج بين المزاح والجِد: «لن أدعك بعد اليوم فاتحًا على حسابك... ولا بد من إلحاقك مباشرة بي وبالقوات!» ما أعرت هذه الملاحظة، بل هذا التهديد، اهتمامًا كبيرًا، ظنًّا مني أنها دعابة عابرة. إلا أن أمين عام حزب الكتائب استدعاني بعد يومين إلى مكتبه، وقال لي إنه اتفق مع بشير على أن تُلحَقْ «الهيئات الشعبية» بالقوات اللبنانية.

ناقشته في هذا الموضوع رافضًا الضمّ. وكانت حجتي أن للهيئات نظامًا عامًا ينصّ صراحة على ارتباطها بالحزب، وبأنها تنشأ حيثما يوجد قسم كتائبي، وتبقى على اتصال أفقي بالأقسام والأمانة العامة، فلا يمكن استبدال ارتباطها بهذه الطريقة الهرميّة قبل استحداث هرميّة مماثلة فيها وتعديل نظامها. وبما أن القوات اللبنانية لا تقوم على هرميّة تشبه تكوين الحزب، ولما كانت الهيئات قد انطلقت، واقعًا وعددًا، حيث توجد أقسام كتائبية، فيُستحسن إبقاؤها كما هي. وإلّا، فلا بد من إزالة الهيئات الفرعية والإقليمية المحلية، وإبقاء المركزية فقط، وهذه وحدها يمكن ربطها بقيادة القوات اللبنانية. ولا سبيل، أو لا ضرورة، لاستبدال الحزب بالقوات، لأن المؤسّستين توأمان. وبشير فاعل فيهما على حد سواء.

إقتنع الأمين العام بوجهة نظري، وبشير بالحجج التي قدّمتها، إذ قال له: «يبدو أن جورج فريحه كتائبي أكثر منك». لكن ذلك لم يمنعه من أن يقول لي بشير في أول لقاء بيننا بقوله إنني مخطئ، وأنه مصّر على ربط الهيئات بالقوات، وإلا اضطر إلى إنشاء مؤسسة جديدة لا غاية لها غير الاهتمام بهذا الأمر.

الكتائب اللبنانية
حزب ديمقراطي اجتماعي لبناني

الامانة العامة

في خدمة لبنان

مذكرة رقم ١٦ / ٨٠

تاريخ ٢٥/٩/١٩٨٠

من الامين العام
الى
الاجهزة الحزبية كافة،

تحية كتائبية،

بالنظر الى الاوضاع الراهنة، ونسبة لخدمات الهيئات الشعبية التي قدمتها في الماضي.

وحيث انه من الضرورة بمكان، ان تعود هذه الهيئات الى ممارسة نشاطاتها لما في ذلك من خدمة للمواطنين ومصالحهم.

بناء عليه،

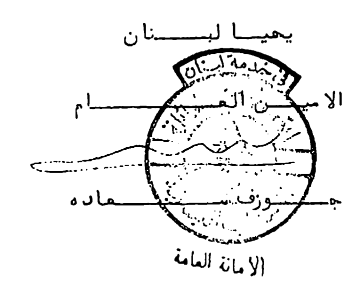
فاننا نطلب منكم ان تعيدوا احياء الهيئات الشعبية وفقا للاسس المنصوص عنها في القرار رقم ٣٦٤٥ تاريخ ٨/٨/١٩٧٧ المرفق ربطا.

ومن اجل هذه الغاية فقد انتدبنا الدكتور جورج فريحه للاشراف على هذه الهيئات والتنسيق فيما بينها وبين الاجهزة الحزبية، وبالتالي فاننا نطلب اليكم ان تتعاونوا معه بكل جدية واخلاص وان تزودوه بالمعلومات التي سيطلبها منكم.

يحيا لبنان

الامين العام

جوزف سعاده





الكتائب اللبنانية

حزب ديمقراطي اجتماعي لبناني

الامانة العامة

مذكرة رقم ١٥/ ٨٠

تاريخ ٢٤/٩/٨٠

من الامين العام

الى

الدكتور جورج فريحه ،

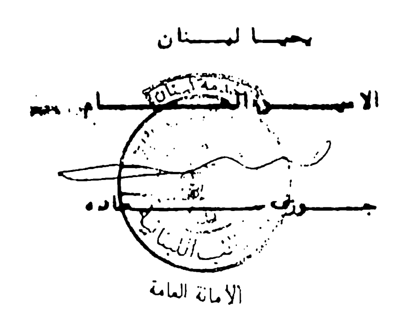
تحية كتائبية ،

- بناء على المادة ٢٥ من النظام العام
- وبناء على القرار رقم ٣٦٤٥ تاريخ ٨/٨/١٩٧٧ المنشأ بموجبه نظام الهيئات الشعبية سيما المادة ٩ منه .

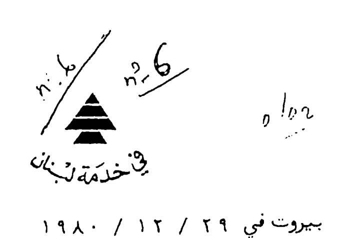
فاننا قررنا انتدابكم للاشراف على الهيئات الشعبية والتنسيق فيما بينها وبين الاجهزة الحزبية ، على ان تقدموا لنا تقريرا عن اعمالكم كل خمسة عشر يوما على الاقل .

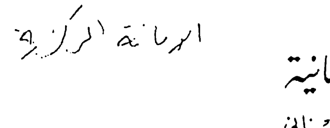
يحيا لبنان

الامين العام



جوزف سعاده





الكتائب اللبنانية
حزب ديمقراطي اجتماعي لبناني
الامانة العامة

بيروت في ٢٩ / ١٢ / ١٩٨٠

من الامين العام
الى
الدكتور جورج فريحه ،

تحية كتائبية ،

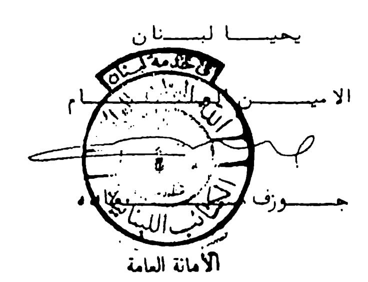
نتابع باهتمام نشاطاتكم المستمرة ضمن الهيئات الشعبية في مختلف المناطق اللبنانية المحررة .

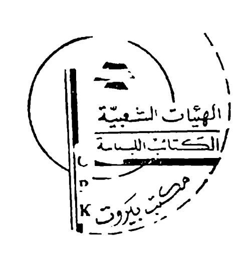
فاننا اذ ننوه بجهودكم المبذولة وسعيكم المتواصل لخدمة لبنان ، نتمنى عليكم المثابرة في عملكم هذا ، ونطلب اليكم ابلاغ تحياتنا وتقديرنا لجميع العاملين معكم في حقل الهيئات الشعبية .

يحيا لبنان

الامين العام

جوزف ...





الى حضرة المنسق العام
للهيئات الشعبية - الكتائب اللبنانية
الدكتور جورج فريحه

مع تقديرنا المستمر
ومحبتنا المتزايدة
واخلاصنا دون حدود.

رئيس واعضاء مكتب بيروت

عائده غنيمه

ريمون روفايل
١٩٨٩/٧/١٢

جبران حداد

إلى جانـب الهيئـات الشـعبية ولجنـة أصدقـاء الكتائـب في الأشرفيـة، أولَى بشـير اهتمامًـا كبـيرًا بالأنديـة والرياضـة، معتـبرًا أنهـا أساسـية في تنميـة الديناميكيـة وروح الالتـزام والعمـل الجماعـي عنـد الشـباب. وقـد كان هـو بنفسـه رياضيًـا ممتـازًا مـارس الرياضـة اليوميـة في المـون لاسـال حتـى بعـد انتخابـه رئيسـا للجمهوريـة، وكان رئيسًـا فخريًـا لنـادي أبنـاء نبتـون ورئيسًـا فخريًـا لنـادي الراسـينغ وصديقًـا حميـمًا لنـادي برمانـا الريـاضي.

وعندمـا اندلعـت الحـرب، وتعرّضـت الحيـاة الاجتماعيـة في لبنـان لضربـة كبـيرة نتيجـة الأوضـاع الأمنيـة والقصـف والعبـوات الناسـفة، قرّرنـا تفعيـل نـادي عريـق هـو «أبنـاء نبتـون» الـذي تأسّـس سـنة ١٩٢٩، والـذي أترأسـه منـذ سـنة ١٩٧٧.

ولتأسيسـه قصـة طريفـة: كان لبنـان تحـت الانتـداب الفرنـسي وكانـت تـزور مرفـأه قطـع بحريـة في شـكل دائـم. ذات يـوم أتـت فرقاطـة فرنسـية عـلى متنهـا بحّـارون يلعبـون لعبـة كـرة المـاء، فطلبـوا إلى المسـؤولين في المرفـأ أن يُؤمَّـن لهـم فريـق يلعـب هـذه اللعبـة. فاتصـل القيّمـون عـلى المرفـأ ببعـض شـباب محلـة المـدّور، وكانـوا سّـباحين قديريـن يمتهنـون السـباحة يوميًـا مـما جعلهـم بلياقـة جسـدية قويـة، منهـم: لويـس بـاز، إدمـون ملـكي، إيـلي خليفـة، عبـد الـرؤوف قبـاني، وفيـق العجـوز، تشـيكافي، عبـد الحليـم اللبـان، أنطـوان خـضرا، محمـود أرنـاؤوط . فلعـب الفرنسـيون ضـد اللبنانيـين بعـد أن علمّوهـم بسرعـة أصـول اللعبـة، فـما كان مـن اللبنانيـين إلأ أن تغلّبـوا عليهـم بسـبب تفوّقهـم البـدني. وصـل هـذا الخـبر إلى اتحـاد كـرة المـاء في باريـس، وبعـد فـترة دُعـي اللاعبـون اللبنانيـون للذهـاب إلى باريـس لمبـاراة ضـد نـادي «أبنـاء نبتـون في باريـس» «ENP» تيمّنـا بنبتـون إلـه البحـر، وكانـوا أبطـال فرنسـا. ذهـب اللبنانيـون مكرّمـين وفـازوا عـلى الفرنسـيين. فـما كان مـن القيّمـين عـلى النـادي في فرنسـا إلا أن سـمّوا الفريـق اللبنـاني بنـادي أبنـاء نبتـون في بـيروت «ENB» وطلبـوا إلى السـلطات الفرنسـية أن تُقـدّم لهـم مسـبحًا قـرب فنـدق السـان جـورج سـمّي «الحـمّام الفرنـسي» وعُـيّن لويـس بـاز مديـرًا لـه.

هـذا النـادي أنشـأ فيـما بعـد أول قاعـة مقفلـة في لبنـان وسـمّاها «قاعـة بشـير الجميـل». وقـد تبرّعـت القـوات اللبنانيـة وعـلى رأسـها فـادي افـرام وأنطـوان بريـدي بتغطيـة مصاريـف إنشـاء القاعـة التـي صمّمـت لتضـم كافـة الألعـاب الرياضيـة.

إضافـة إلى تنشـيط هـذا النـادي، وبغيـة تعويـض الفـراغ الـذي سـبّبه جمـود نشـاط مديريـة الشـباب والرياضـة واللجنـة الأولمبيـة اللتـين كانتـا فعّالتـين قبـل انـدلاع الحـرب، اضطررنـا بشـير وأنـا إلى أن نحيـي « تجمّـع الأنديـة الرياضيـة» سـنة ١٩٧٩ برئاسـتي وفيـما تـولّى أمانـة الـسر فكتـور حـداد رحمـه اللـه. هـذا التجمّـع أشرف عـلى كافـة الألعـاب الرياضيـة ووضـع نظامًـا وأدار الرياضـة بأفعـل وأنجـح طريقـة عـلى رغـم معوقـات الأوضـاع السياسـية والعسـكرية. وخصّـص بشـير فرقـة عسـكرية مـن القـوات اللبنانيـة تحـت إشرافي للمسـاعدة في تنفيـذ مقرّراتـه وتنظيـم المباريـات والـدورات وحتـى البطـولات في كافـة الميادیـن الرياضيـة. وقـد اسـتمر هـذا التجمّـع ناشـطًا إلى أن انتهـت الحـرب وعـاد البلـد إلى طبيعتـه ونشـطت مديريـة الشـباب والرياضـة واللجنـة الأولمبيـة وسـائر الاتحـادات الرياضيـة.

مشروع «غاما»

كان بشـير يغـيّر معاونيـه كطفـل يمـلّ دميتـه فيسـتبدلها، لا لـشيء غـير العبـث والتسـلية. وكان أيضًـا يصـدّق بسـهولة مـا يقـال، ولا يسـتغرب شـيئًا، فـلا يـكاد حـالم بإنشـاء مؤسّسـة مـا يهمـس في أذنـه كلـمات قليلـة حتـى يتحمّـس ويجيز مبـاشرة العمل بـلا قيـد أو شرط، كأنّ المؤسسـة التـي سـمع بهـا هـي بدعـة البـدع وأعجوبـة العـصر.

وأذكـر مـن المؤسسـات التـي اسـتأثرت باهتمامـه، ونالـت منـه الكثـير مـن الدعـم المـادي والمعنـوي، مؤسسـة «غامـا». وقـد أوعـز إلى ريمـون (مـوني) عـرب بإنشـائها وإدارتهـا. وذات يـوم، اسـتدعاني إلى مكتبـه بحضـور مـوني وطلـب إليّ، بوصفـي منسّـقًا عامًـا «للهيئـات الشـعبية»، أن أسـاعده عـلى إنشـاء غامـا، مؤكّـدًا لي أنهـا سـتقوم بـدور كبـير وفعّـال في الـدرس والتخطيـط لا غـير، لتسـهيل مسـيرة الشـؤون العامـة. ولفـت نظـري إلى إمـكان اسـتعانة «غامـا» «بالهيئـات الشـعبية» لتنفيـذ الدراسـات المتعلّقـة بالتأهّـب الـضروري لمواجهـة «السـاعة صفـر». وكانـت «السـاعة صفـر» تعنـي بـدء الاجتيـاح الإسرائيـلي.

فعقدتُ اجتماعات عدة مع موني عرب، وأحيانًا بحضور شارل غسطين نيابةً عن قائد القوات اللبنانية. وأطلعنا عرب على نظام «مجموعة غاما» فإذا به يختلف من الناحيتين الشكلية والنظرية، عن نظام الهيئات، إلا إنه يماثله من الوجهة العملية على الأرض. وأكثر من ذلك، كان هذا النظام نظام حكم أو حكومة ظلّ للقوات اللبنانية. ووضعنا بنيجة هذه الاجتماعات بروتوكولًا مكتوبًا عن أعمال التعاون والتنسيق، حظي برضى بشير وموافقته وحتى بركته.

غير أن التنسيق بين الطرفَين لم يحصل على الوجه المناسب بين «غاما» «والهيئات الشعبية»، فراحت الأعمال تتقارب حينًا وتتضارب أحيانًا، مما أدّى إلى تضارب بين الإنجازات ونشاط العاملين في الجانبين. وكان بشير يدعم «غاما» علنًا، وهذا ما قاله لي صراحةً وأكثر من مرة، عندما كان يقع خلاف أو نزاع بين الجانبَين. وقد وصل به الأمر إلى حد أنه قطع المساعدات المالية عن «الهيئات» وأسبغها على «غاما»، فقفزت موازنتها إلى ملايين الليرات. لم يحبط ذلك «الهيئات الشعبية» التي تابعت مسيرتها بتؤدة وإصرار ومثابرة، فضاعفت نشاطها، وعزّزت إعلامها بتوسيع نطاقه وزيادة إمكاناته، ووضعت إذاعتا «صوت لبنان» و«لبنان الحر» برامج كاملة في تصرفها إلى جانب مجلة شهرية واسعة الانتشار، حملت اسم «الشعبية».

في هذا الوقت، أدرك حزب الكتائب أهمية «الهيئات الشعبية»، وباشر بتوفير دعم حزبي حازم لها لا مثيل له، وبذل كل جهد ممكن لإبقائها، وتعزيز نشاطها، وتوسيع دائرة عملها.

حلّت «الساعة صفر»، وبوشر التنفيذ على الأرض. فإذا به يبدو مشلولًا كليًّا من جانب «غاما» حتى في أسهل الأمور، كتوفير الفُرش والمواد الغذائية للمهجرين...

تكرّرت الاتصالات «بغاما»، فأبت أن تتحّرك وأن تلبّي لنا ولو طلبًا واحدًا على مدى ثلاثة أيام، حتى اضطررت إلى التدخّل شخصيًا موبّخًا ومؤنّبًا، واستنكرت تقصير المسؤولين في المؤسسة عن القيام بواجبهم، وكّلت لهم أشدّ اللوم والتقريع.

وبعد ربع ساعة اتصل بي بشير تلفونيًا، وخاطبني بلهجة جافّة لا تخلو من نبرة غيظ. سألني: هل «شتمت «غاما»؟ أجبت: «نعم شتمتها، لأنها امتنعت عن

القيام بواجبها طوال ثلاثة أيام». فتضاعف غيظه حتى انفجر وقال: «أنا «غاما «. فليكن هذا معلومًا لديك». قلت: «تشرّفنا وأخذنا علمًا بذلك».

إنقطعت الاتصالات بيننا على مدى أسابيع لم نتلقّ خلالها قرشًا واحدًا يساعدنا على متابعة أعمالنا. فما اكترثنا بتلك النزوة، وثابرنا على بذل النشاط المطلوب لتظلّ الأمور في مجراها الطبيعي، فكان النجاح حليفنا عملًا بالقول المأثور: من جدّ وجد، ومن أراد فعل.

بعد شهر تقريبًا، كان بشير في الأشرفية، وقد جاء يقوم بزيارته التقليدية يوم الثلاثاء. إلتقى ساسين كرم، أمين صندوق «الهيئات الشعبية»، فبادره قائلًا: «كيف الهيئات الشعبية يا ساسين؟ شايفها بعدها ماشية أحسن من الأول، مع أني قطعت عنها المال».

أجابه ساسين: «لعيونك، يا باش... ما بحياتنا تأثّرنا بالمال. عم نشتغل متطوعين للقضية، ولنجاحك أنت معها».

فابتسم بشير وقال له: «سلّم لي على فريحه وقُلْ له: ما بيلبق الشغل إلا لكم. كلّفتني «غاما» ملايين الليرات بلا فائدة فيما أنتم كنت أساعدكم بالفتات، بالقليل مما يتيسّر. تابعتم العمل حتى بعد قطع المدد عنكم. أعطيتم الكثير. حقًا، لا يليق العمل إلا بكم!»

وفي اليوم التالي اتّصل بشير بي وقال: «أريد أن أخصّص يومًا في الأسبوع للاجتماع بكم والعودة إلى دعمكم من جديد». وهذا ما جرى حتى آخر أيامه. وفي آخر اجتماع له مع أركان الهيئات الشعبية، بعد انتخابه رئيسًا للجمهورية، قال بشير لهم: «المنسّق العام للهيئات الشعبية الدكتور جورج فريحه أصبح منسّقًا عامًا لرئاسة الجمهورية وأصبح Chief of Staff». وفي ١٤ أيلول ١٩٨٢، وهو يوم استشهاده: «سأنهي حفلات الوداع مع «الهيئات الشعبية»، ثم ألتقيكم يوم الخميس، ١٦ أيلول في الهوليدي بيتش للوداع».

وما بقي بشير ليطل عليه نور النهار التالي!

غادرنا تاركًا ألوف العاملين في «الهيئات الشعبية» يتحرّقون أسىً، وكلّهم توق إلى وداعه.

أهي مشيئة الله، أم صدمة أرادها القدر؟

مهـما نَغُـصْ في التفكـير والتحليـل والاسـتنتاج نبـقَ مقصّريـن عـن إدراك إرادة الحياة فينـا. ومـرارة الحيـاة أنهـا تقـف عـلى عتبـة الموت.

لقد راح! فهل بقينا نحن؟

بقاؤنـا متوقّـف عـلى قيمتنـا الإنسـانية، عـلى مـا فينـا مـن جوهـر الوعـي والرشـاد والحصافـة والإرادة الخـيّرة.

ولا إرادة خيّرة بدون أصالة. ولا أصالة بلا جذور حضارية.

فلنعد إلى هذه الجذور لنشقّ طريقنا إلى ما نصبو إليه من مصير أمثل.

وهـذا مـا نسـتطيعه إذا أبينـا أن نهـوي إلى الفنـاء والعـدم اللذيـن انتهـت إليهـما الشـعوب المنقرضـة.

الفصل السابع:

تنظيم مالية المقاومة

سارت الأمور المالية في منطقة الأشرفية «بالتي هي أحسن» وفق ما ذكرنا سابقًا خلال السنة الأولى من الحرب. فقد كنا مأخوذين بتسارع الأحداث وتطورات جبهات القتال ومحاولة تأمين ما يمكننا الحصول عليه لسدّ الحاجات المتزايدة للسلاح والحاجات اللوجستية. وبعدما اعتمدنا على التبرّعات التلقائية من المؤمنين بقضيتنا، وصلنا إلى مرحلة اضطررنا فيه لإجراءات أكثر فاعلية، أولًا لأننا استنزفنا مناصرينا، وثانيًا لأن ثمن الأسلحة النوعية التي كان بإمكانها تقوية قدراتنا العسكرية باهظة جدًا.

في تمام الساعة ٢٠:٤٥ من ١١ آذار سنة ١٩٧٦، وعلى أثر حركة عزيز الأحدب الانقلابية التلفزيونية، قُطعت المعابر بين المنطقتين، الشرقية والغربية، وما عاد يُسمح باجتيازها إلا للشاحنات والسيارات التي تحصل على ترخيص من الطرفَين. وكان المعبر الوحيد هو معبر المتحف، فَفُرضت رسوم على المركّبات التي كانت تجتازه. وأخذت الأموال تتدفّق على صندوق بيت الكتائب في الأشرفية، فيتسلّمها المرحوم جان ناضر، رئيس المنطقة، ويضعها في كلّ مكان، وكيفما تيسّر له الأمر بصورة فوضوية عشوائية.

وبقدر ما كبرت المبالغ، ازداد جان ارتباكًا في المحافظة عليها. إشترى صندوقًا حديديًا ضخمًا وضع فيه الواردات الكثيرة، لكنّه لم يشأ أن ينظّم محاسبة واضحة يُضبط فيها الداخل والخارج. وراح ينفق ألوف الليرات بالسهولة نفسها التي كان يتسلّمها بها، ويوزّع على المقاتلين الأسلحة والذخائر بلا حساب، ويجود على المعوزين بلا حساب أيضًا، حتى سادت الفوضى. وافتقرنا في حينه إلى الحد الأدنى من التنظيم الذي لا تستقيم الأعمال إلا به.

بقيت الحال على هذا المنوال أشهرًا، حتى طُلب في آخر السنة، إلى أمين الصندوق المرحوم ساسين كرم أن يقدّم تقريره المالي إلى لجنة المنطقة. فقدّم تقريرًا مشوّشًا، لا دقة فيه ولا وضوح، استحقّ أن نصفه بأنه «ورقة اللحّام». ثم تبيّن أن صندوق المنطقة في عجز، فاستولت علينا الدهشة حيال ميزانية عرجاء مغلوطة، مرتجلة، وغير محترفة لفقدان الوثائق والمستندات. إذ كنا نعلم جميعًا أن «السجّادات الزرقاء»، أي أوراق المئة ليرة، كانت تصل إلى مقر المنطقة بكميّات كبيرة، فكيف يكون الصندوق في عجز؟

طلبت شرحًا يوضح هذا الأمر، فأحسست أن جان ناضر، ومعه بشير، يعمدان إلى الغمغمة والتهرّب واللف والدوران، ثم أرجئ البحث إلى جلسة تالية. وبعد أسبوع بقي جدول الأعمال خاليًا من هذا الموضوع، فتضاعفت دهشتي، واستغربت هذا الإهمال، حتى أنني خشيت أن يكون مقصودًا. ولمّا تطرّقت إلى هذا الموضوع في آخر الجلسة، طلب جان ناضر إرجاء البحث إلى جلسة أخرى، وأيّد بشير هذا الطلب بلا تردّد. ولمّا أعدّت الكرة بعد أسبوع آخر، جاء الجواب تأجيلًا ثالثا، فرابعًا، حتى مضى شهران وأسبوعان، فلم أجد إذّاك بدًّا من تقديم استقالتي من لجنة المنطقة.

إستاء بشير منّي، وصارحني على حدة قائلًا إنه مضطر إلى إبعاد موضوع المال عن الدرس كي لا يضع الحزب يده على مواردنا، ووعدني بإطلاعي على ميزانيّة واضحة ودقيقة. ولكنّي أصررت على أن نتبّع طريقة علميّة أكثر ضبطًا وانضباطًا، يُعرف فيها الدخل والنفقات، فلا نبقى على ما نحن عليه من الاضطراب والفوضى. واتفقنا على تأليف لجنة مالية قوامها: جان ناضر، ساسين كرم، رفيق ضومط، الدكتور كميل قبع، مدير وزارة الإسكان آنذاك، وأنا.

ولمّا عقدنا اجتماعنا الأول، فَقَدَ جان ناضر صوابه عندما علم أن الأموال يجب أن تودع في مصرف، وأن سحبها لا يمكن أن يتمّ إلا بتوقيع إثنين من المسؤولين عنها، وأن محاسبة يومية دقيقة يجب أن تُجرى، فرفض هذا النظام في شكل قاطع. ونشبت بين بشير وبينه مناقشة حادّة أدّت إلى أزمة عصبيّة انتابت جان، وحملتنا على المبادرة إلى تهدئة الحال وإزالة التوتّر. وبالنتيجة فاز جان بعناده، وبقيت

ماليـة المنطقـة فوضويّـة، وسريّـة، وعديمـة الوضـوح، يتـصرّف بهـا هـو وحـده، فـما لبثـت اللجنـة التـي اجتهدنـا في تكوينهـا أن اضمحلـت وزالـت مـن الوجـود.

قرّرنـا بعـد فـترة ابتـكار طريقـة لجمـع المـال أسـهل مـن التـبرّع، وأطـول نفسًـا وأبعـد مـدى. وبعـد التفكـير الطويـل، والتـداول، والتحليـل، والأخـذ والـردّ، عزمنـا عـلى القيـام بعمليّـة جمـع المـال مـن المؤسسـات المصنّفـة في بـيروت الشرقيـة. وقـد ابتدعنـا نحـن هـذا «التصنيـف»، فوضعنـا لوائـح بالمؤسسـات التـي يجـب برأينـا أن تدفـع دوريًا تبرّعـات للحـزب، أي لصنـدوق الأشرفيـة، ومنهـا: الصيدليـات، السـوبر ماركـت، محطّـات الوقـود، المصـارف، المقاهـي، دور السـينما، المطاعـم ومـا شـابهها.

ثـم انتدبنـا لهـذه المهمـة إثنـين مـن شـباب القـوى النظاميـة، ممشـوقَي القامـة، أنيقَـي المظهـر هـما جـورج برنـس، رئيـس القـوى النظاميـة آنـذاك، وجوزيـف كفـوري. وسـلّمناهما دفاتـر إيصـالات، ودعوناهـما إلى التقـدّم مـن المؤسسـات بـكلّ مـا هـو مطلـوب مـن التهذيـب وحسـن التـصرّف، كأَنْ يؤدّيـا التحيّـة العسـكرية قبـل طلـب المسـاعدة مـن دون تحديـد المبلـغ.

إنطلقـا للعمـل في صبـاح ربيعـي صـافي الجـوّ، وأقمنـا ننتظرهـما في بيـت الأشرفيـة، بشـير، وجـان نـاضر، وساسـين كـرم وأنـا. فأخـذا يتّصلان بنـا مبشّرَيـن بالخـير كلّـما حصلا عـلى «رزمـة حرزانـة». وفي غضـون نصـف سـاعة، أبلغانـا تلفونيًـا أن مـا جمعـاه بلـغ خمسـة وثلاثـين ألـف لـيرة، وأن كل شيء يجـري عـلى مـا يـرام. وبعـد نصـف سـاعة آخر، اتصـلا بنـا مـن جديـد ليقـولا لنـا كلامًـا مبهـمًا أشـبه بالأحاجـي والألغـاز، مـا اسـتطاع أن يحـلّ رمـوزه إلاّ بشـير، فصـاح بنـا: «الهريبـة يـا شـباب! واصـل الشـيخ بيـار!...»

سـألته: «لِمَ الهـرب، يـا بشـير؟» فأجـاب، وهـو يعـدو مسرعًـا: «هلّـق هربـوا، بعدين بخبّركـم...» فهربنـا تلقائيًـا إلى خـارج البيـت، ولجأنـا إلى غرفـة في منـزل قريـب مطـلّ عـلى الطريـق. ومـا هـي برهـة حتـى وصـل الشـيخ بيـار وترجّـل مـن سـيارته قبـل أن تتوقـف عجلاتهـا عـن الـدوران كليًّـا، ودخـل بيـت المنطقـة وهـو ينـادي بصـوت مرتفـع: «ويـن جـان؟ ويـن بشـير، ويـن الشـباب؟ شـو مـا في حـدا؟ ويـن راحـوا؟ كيـف بيتركـوا البيـت فـاضي».

وبعد انتظار قصير من دون جدوى، غادر الشيخ بيار بيت المنطقة، ثم وصل جورج برنس وجوزيف كفوري، وعلمنا منهما أنهما دخلا أحد المصارف قرب مستشفى الروم والتمسا المساعدة من المدير، وهو كتائبي لا يعرفانه، فوعدهما خيرًا، ولكنه اتّصل هاتفيًا بالبيت المركزي، وتحدّث مع طانيوس سابا وأخبره بما جرى، فردّ الأخير مستهجنًا إقدام الميليشيات على جمع التبرّعات من دون إذن الحزب، وطلب إلى المدير أن يمرّر سماعة الهاتف إلى الشابين ليكلّمهما ويطلب منهما التوقّف عما يقومان به. ولمّا عرف أنهما من الأشرفية، نقل الخبر إلى الشيخ بيار، فكان ما كان. وبعد هذه الحادثة توقفت عملية جمع المال من المؤسّسات.

مالية القوات اللبنانية

ما حصل في الأشرفية بشأن المال حصل أيضًا في القوات اللبنانية. لم يكن بشير إداريًا، إذ كان متفوّقًا ببثّ النشاط في النفوس وحمل الناس على العمل، ولكن من غير تنظيم. فهو نفسه لم يكن منظَّمًا ولا منتظمًا، إنْ في طبعه أو في تصرفّه. وكان مترفّعًا عن المال أبيًّا، يرفض الغوص في المشكلات المادية، ويريد أن يقتدي به أعزّ الناس عليه، وأقربهم إليه. وعندما تسلّمت القوات اللبنانية في العام ١٩٧٧ مرفأ جونية، رفض أن أتعاطى في شؤون هذا المرفأ، أو أن أتدخّل في إدارته كي لا «تطلع ريحتك بنزين»، على حد قوله، وأسند مسألة الاهتمام بإفراغ حمولات بواخر الوقود في جونية إلى نسيب آخر.

وقد أدّى ترفعّه هذا إلى كارثة حقيقية في إدارة ماليته، ولا ريب أنه كان قادرًا على تفادي هذا الخلل، لكنه لم يفعل. ولو أنه اهتم، ولو قليلًا، بهذا الشطر الحيوي والحسّاس في مسيرته التاريخية لتوافر دخل المقاومة وفاض عن حاجتها.

ما حدث للأسف هو نقيض ذلك. تفرّقت المسؤوليات وتشرذمت الصلاحيّات، فصارت هناك أربعة صناديق، أو خمسة، أو ستة، ولكلّ واحد منها مسؤول. وما برهن واحد من هؤلاء المسؤولين عن كفاءة تُشكر في الشؤون المالية، أو عن خبرة في ضبط المحاسبة والحرص على المصلحة العامة، أو عن رغبة في ضمان

المستقبل بالتخطيط له، والتطلّع المخلص إلى أبعاده. كانت الأعمال المتعلّقة بالأموال فوضويّة، فقد تدفّق الخير، وامتلأت الصناديق، فكثر الإنفاق حتى بلغ أقصى حدود التبذير من دون مراقبة أو محاسبة، ومن غير أن يكون هناك ضبط علمي أو رادع وجداني، أو عاقل يهتدي بالحكمة والرشاد.

نبّهت بشير إلى هذه الأخطاء، وإلى نتائجها الوخيمة العواقب، فاقتنع بعد مدة وعمد إلى تأليف لجنة مكلّفة بأن تضع نظامًا مدروسًا لما يجب أن تكون عليه مالية القوات اللبنانية، بحسب الأصول العلميّة.

تألّفت هذه اللجنة من نبيل أبي اللمع، وجو حاتم، وطوني سعد، وجميل إسكندر، ولورنس شدياق، وجان عساف، وألبير فريحه، وكميل قبع، وتوليت أنا رئاسة الاجتماعات. فوضعنا نظامًا متقنًا على أثبت الأصول وأفضلها، يلحظ مختلف الأعمال المالية في القوات، ويخطط لسياسة فعّالة في جمع الأموال وضبطها وتقنين صرفها في السبل المؤدّية إلى أفضل النتائج وأوفرها فائدة للقضية التي نناضل من أجلها.

الكازينوهات والفليبرز

على رغم كلّ الإجراءات والموارد والتبرعات والرسوم المستوفاة من المعابر من وإلى المنطقة الشرقية، كان حاجة بشير إلى المال تزداد باطّراد لمتابعة مقاومته وزيادة إمكاناتها. فقد كانت تطلعاته البعيدة المدى ترمي إلى بناء هيكلية عسكرية وأخرى مدنية، تكونان متناسقتين وقادرتين على أن تحلّا محل هيكليات الدولة. ورسخ في يقينه أن المقاومة لن تكون ثابتة، وصامدة، وطويلة النفس ما لم تقم على جسم منظّم، وهيكليات بشرية لها صلاحيات وأدوار معيّنة. وهذا كلّه يتطلّب نفقات وفيرة، فمن أين المال اللازم لهذه النفقات؟

التبرعات تُبذل مرةً، أو مرتين، أو ثلاثًا ثم تشحّ تدريجيًا، ولا يلبث المتبرّع أن يستثقل العبء الذي يلقيه عليه صاحب الحاجة، فكيف السبيل إلى تفادي النفور وفقدان التجاوب بين الجانبين؟

طُرحت أفكار عديدة، ووُضعت مشاريع مختلفة الأبعاد والمرامي لبلوغ هدف تمويل حركة المقاومة، إلا أنها كانت كلّها عديمة الجدوى، أو محدودة النتائج. فكما أسلفنا فُرضت مثلًا رسوم على المركبات العابرة لخطوط التماس. وبعدما كانت الواردات إلى بيت منطقة الأشرفية ألوفًا تسد الحاجات الأولية، أخذنا نشعر بالحاجة إلى ضرورة تكوين اعتمادات مالية ضخمة من أجل الشروع في الانطلاقة التنظيمية التي كان يحلم بها بشير.

إذًا، لا بد من مورد آخر كبير، وثابت، ومضمون.

بعد حيرة مريرة، وارتباك مرهق، انبثقت الفكرة الذهنية المنشودة من ذهن زاهي البستاني. كان زاهي أحد المسؤولين البارزين في المديرية العامة للأمن العام ويساعد بشير بمعلومات قيّمة وقام في لحظات حرجة بتسهيل استلام أسلحة الأمن العام في شارع عبد الوهاب، بعدما سدّت السبل أمامنا للحصول على بنادق وغيرها من الأسلحة الخفيفة.

كان هذا الشاب متحمّسًا لبشير، شديد الغيرة عليه، متوثّب الذهن لاستنباط كل ما يؤدّي إلى إنجاحه. وكان، فضلًا عن ذلك، حاد الذكاء، ذا فكرٍ خلّاق ومبدع. رأيته للمرة الأولى لمّا أرسله بشير لإبداء رأيه في إيجاد مورد وفير وثابت من كازينو لبنان، بعد أن جرى تعيين مدير جديد له هو أنطوان سعد من الأشرفية، وكان من المستعدّين للتعاون مع بشير، ولمساعدته ماليًا. فتمّ الاتفاق على أن يقتطع مبلغ من واردات هذا الكازينو قدره ٣٠٠ ألف ليرة شهريًا، في مقابل خدمات معينة منها الحماية، والمراقبة، وتسهيل العمل على يد شباب من القوات اللبنانية.

أخفقت هذه العملية، لأن الدولة رفضت الموافقة عليها. وكان نصيب أنطوان سعد على أثر هذا التقاعس جولة في صندوق السيارة، أشرنا إليها في معرض الحديث مع الدكتور بطرس ديب عن إنشاء فروع للجامعة اللبنانية في المنطقة الشرقية. وعلمنا فيما بعد أن المبلغ الشهري قد تأمّن لبشير.

وهنا طُرح سؤال آخر: إذا كان تفاهمنا مع «الكازينو الشرعي» غير ثابت، فلمَ لا نُنشئ كازينو غير شرعي أو كازينوهات؟

جاء هذا السؤال بمثابة فكرة مطروحة للدرس، ومرشّحة للتنفيذ. وكان بشير، كلّما اجتاز مرحلة من البحث تُقرّبه من الاقتناع بوجهة نظر فكرة معيّنة، استدعى أصدقاءه، وأنا منهم، وتداول معهم في الأمر على سبيل الاستئناس بآرائهم، فضلًا عن رغبته في إراحة ضميره وإشراك الذين يثق بهم في المسؤولية. وكان بعضنا متشدّدًا، حتى ذلك الحين في رفض هذا المشروع، يطالب بنبذه، لأن كلّ عمل غير شرعي يتخذ طابع «المافيا». وعزّز القائلون بهذا الرأي وجهة نظرهم بقولهم إن المقاومة اللبنانية بدأت شريفة، وهكذا يجب أن تبقى. ورجّحت هذه الكفة، فطُوِتْ صفحة فتح الكازينوهات، ولكن إلى حين.

فقد راحت الحرب تتّسع وتشتدّ، والتهمت كلّ ما كان متوفرًا أو مدّخرًا من المال، وازدادت نفقاتنا. وألحّت علينا الحاجة مطالبةً بإيجاد مخرج لهذا المأزق في أقرب وقت ممكن.

وفي ليلة هادئة نسبيًا، لا يعكّرها أصوات الكثير من سقوط القنابل وتوالي الانفجارات، استدعاني بشير وقال لي بلهجة المغلوب على أمره، والتائق إلى التخلّص من الكابوس: «قرّرت أن أفتح «كرخانة» لأحصل على المال، وأردّ على هذه النيران المنهمرة علينا بنيران مثلها أو أشدّ. إننا لا نملك إلا القليل القليل من الأسلحة والذخائر، ولا نستطيع أن نردّ إلا بقذيفة واحدة على عشرين تنشر في مناطقنا الموت والدمار. نريد مالًا. لا بد من المال. إننا في موقف حرج. علينا أن نختار بين الحياة والموت، بين الصمود والانهيار. فافتحوا كازينوهات، دكاكين فليبرز، إفعلوا ما تشاءون لنثبت في مقاومتنا، لنردّ إلى خصومنا الصاع صاعين، والكيل أكثر من كيلين...»

وتحت الضغط المتزايد، والقصف الشرس الذي لا يرحم، اقتنعنا بقول بشير. أذعنّا بمنطق الأمر الواقع. سلّمنا بضرورة الدفاع عن النفس والكرامة مهما يكن الثمن، ففُتحت الكازينوهات، وكان الأول منها في الأشرفية، وكرّت حبات السبحة، فتدفقت علينا الأموال، وتوافرت لدينا الذخائر والمعدّات الحربية، وبدأت الثكنات تعجّ بالمقاتلين من متطوعين ومعوزين يحتاجون إلى رواتب يعالجون بها شؤون الحياة ومتطلّباتها.

كما وفّرت لنا الأموال إمكانية استحداث العديد من الأجهزة الإعلامية وتعزيزها، ومن إنشاء مكاتب تمثيلية لنا في عواصم الدول الكبرى، من أجل القيام بدعاية مضادة لتلك التي سبق للفلسطينيين والقوى اليسارية أن شنّوها علينا أمام الرأي العام العالمي وحتى في دول أوروبا الغربية المعتبرة في حينه أنها المدافعة عن الفكر الحر والديمقراطية. ولا بد في هذا الإطار من الإشارة إلى أن هذه الجهود قد أثمرت، إذ تمكّنا مع مرور الوقت والعمل الهادف من أن نغيّر نظرة العالم الغربي إلينا وأن نوضّح الحقائق المشوّهة عما كان يجري على أرض لبنان من محاولات لسيطرة الغرباء عليه.

الفصل الثامن:

في خضم القتال والاقتتال

أقبل صيف ١٩٧٦ ونحن في بكفيا. وذات يوم، وفيما كنا جالسين على سطحية منزل الشيخ موريس الجميّل. إذا ببشير يدخل كالعاصفة الهوجاء، ينتفض غضبًا، ويرسل المسبّات والشتائم من كلّ نوع، وكلّ شكل ولون وعيار.

بشير!... ما بك؟ ما القصة؟

فجاء جوابه كلمات أشدّ وقعًا من القذائف، وأسرع تلاحقًا من رشق الرشاش ومفادها أن أباه الشيخ بيار سمح للسوريين بأن يدخلوا مناطقنا، كما دخلوا المناطق الأخرى.

أقدم الشيخ بيار على هذه «البادرة» بعد زيارة قام بها محمد الخولي مع بعض الضباط السوريين، في الصباح الباكر من ذلك اليوم إلى بكفيا. وبعد جلسة استغرقت ساعات، اقتنع الشيخ بيار بضرورة دخول السوريين إلى مناطقنا فوافق عليها، بل رضي بأن تنتشر القوات السورية في بكفيا قبل أن تذهب إلى البسطة. وما أراد بذلك إلا التعبير عن ارتياحه إلى قدوم أخوة أحباء ومنقذين أبرار!...

فجّر هذا القرار في نفس بشير إعصارًا من الغضب، فجنّ جنونه، وراح يخاطب أباه بلغة الرجاء والاقتناع والتوسّل، ولكن من دون جدوى.

خرج من منزله هائجًا، ساخطًا، مضعضع الصواب وتوجّه إلى بيروت حيث حاول اجتذاب بعض أركان الحزب إلى وجهة نظره، ولكن من غير جدوى أيضًا. فصعد إلى بكفيا وهو يُرغي ويزبد.

أقنعته، بأن يذهب معي إلى نزهة في خارج البلدة. وتوجّهنا بسيارة والدته إلى كسروان. عرّجنا على منزل آل الخويري وعزّينا بالشاب إيلي خويري، شقيق سامي وجوسلين خويري. وعلى الطريق، حاولنا إقناع بشير بأنّ قرار إدخال السوريين هو قرار عاقل. وكنّا مقتنعين آنذاك كلّ الاقتناع، خصوصًا بعد خطبة حافظ الأسد الشهيرة عن لبنان واللبنانيين، أنّ السوري أصبح صديقنا الصدوق، بل الحميم، لا

يريد غير حمايتنا وخيرنا وإنقاذنا من الأزمة الخطيرة التي نتخبّط فيها. ولكن بشير أبى أن يقتنع. وما كان كلامنا إلا يزيده إصرارًا على التأكيد أن السوري لن يكون أبدًا صديقنا، وأنه يدخل بلدنا متوسّلًا الحيلة، ليحتلّ أرضنا احتلالًا يتّسم بلون الشرعية، فلا يستطيع أحد إخراجه من عندنا فيما بعد. وردّد قوله مرات عديدة: «سيأتي يوم نترحّم على الفلسطيني والجنبلاطي والشيوعي!...»

عدنا إلى بكفيا، ونمنا «طبًّا على وجهنا»، كما يقال، ينتابنا القلق وتعصف بنا الهواجس، من غير أن يتمكن بعضنا من إقناع البعض الآخر.

الجيش السوري يتمركز في برج رزق

مرّت الأيام، وأخذ الجيش السوري يتمركز في مختلف المناطق المحرّرة، حتى دخل الأشرفية، وانتشر جنوده في الساحات العامة. وكان يومًا مشهودًا آخر، لمّا سمح الشيخ بيار بأن يحتلّ السوريون برج رزق وهو أعلى برج في بيروت آنذاك. وهذه المرة أيضًا كاد بشير يخرج من ثيابه، وانتابه غضب شديد كاد يقضي على ما تبقّى فيه من صبر وصواب. وعبثًا حاول إقناع أبيه بأن تمركز السوريين في هذا البرج سيكلّفنا غاليًا في الأيام الآتية. وأعاد عليه مرارًا عبارته المعروفة: «أرجوك ألا تدع أحدًا يصعد إلى برج رزق، حتى لو كان حليفًا لنا كالأحرار، لأن من يأخذ هذا البرج، لا يشعر بالارتفاع والتفوّق فحسب، بل يرتفع ويتفوّق فعلًا». وللحقيقة إن برج رزق كان يُشرف، لا على الأشرفية وحدها، بل على معظم أحياء البيروتَين الشرقية والغربية. ولم يستطع بشير أن يتساهل يومًا، أو أن «يهضم» ولو ساعة واحدة وجود السوريين في مناطقنا عامةً، فكيف بالمراكز الحسّاسة الاستراتيجية التي يمكن اعتبارها بالغة التأثير في التحرّكات والمواصلات على اختلاف أنواعها، أكانت عادية عابرة، أو استثنائية حاسمة؟

وكلّما كان بشير يلتقي السوريين، كانت تهبّ فيه حساسية طاغية لا يقوى على كبتها، فيتحدّاهم أحيانًا كأنه يسعى إلى توتير الجو أو إلى التصادم. ولن أنسى حادثة بليغة التعبير عن حالته النفسية، خلاصتها أننا فيما كنّا عائدين على طريق كازينو لبنان في كسروان، أوقفنا حاجز سوري، وسأل بشير عن الآلة التي

بين يديه، وكانت جهاز تلفون، فأجاب: «هذا مسجّل موسيقي». تعجّب الجندي السوري، وأصرّ على أن يعرف الحقيقة، وأن يسمعها من فم بشير، فأعاد الأخير قوله، ولكنه تكلّم هذه المرّة باللهجة السورية: «قلتلك مسجّلة مَزّيكا أخي!» فنادى الجندي أحد زملائه: «حسين، يا حسين، في شي هون مو عاجبني، عم يضحكوا علينا...»

أسرع حسين وقال بلهجة الآمر: «هويّاتكم!» فراح بشير يتمهّل في تلبية الطلب ما طاب له التمهّل!... بحث في جيوب سترته، ثم بنطلونه، ثم في صندوق السيارة، وعاد مرة أخرى إلى سترته وبنطلونه، ثم إلى الصندوق، وهو مرتاح، غير مستعجل، بل غير مكترث، وأنا أتصبّب عرقًا!

أعطيتُ الرتيب حسين بطاقة هويّتي، فما حفل بها، بل ظلّ يحدّق ببشير والغيظ يتأجّج نارًا في عينيه، ويتجسّد غضبًا في ملامح وجهه. وبعد طول انتظار، أعطاه بشير بطاقته، فما كاد يلقي نظره عليها حتى سأله وعلى وجهه كل معالم الدهشة: «هل أنت هو؟» حرّك بشير رأسه إيجابًا، فأعاد حسين عليه السؤال: «بالله عليك، هل أنت هو؟» فهزّ بشير رأسه ثانيةً من دون أن ينبس ببنت شفة. فصاح السوري، ولكن صوته هذه المرة كان يعبّر عن مزيج من السرور والإعجاب، وقال: «يا أخ بشير، ليش ما بتحكي من الأول؟ عذرًا أخي، عذرًا... مع السلامة».

إنقطع نصف عمري في هذه الحادثة. وأصبحت عبارة «هل أنت هو؟» كلمة سر بيننا مدّة طويلة، نعني بها الرتيب السوري كلّما تحدثنا عنه من غير أن نذكر اسمه.

وفي الأشرفية وقعت حادثة أخرى مفادها أن جنديًا سوريًا طلب إلى الشيخ بشير على أحد الحواجز -وكنت معه- أن يشعل ضوء السيارة في داخلها. فاعتذر بشير قائلًا إن الضوء محروق. فدعانا الجندي إلى النزول من السيارة، فأجابه بشير: «هيك، دفعة واحدة؟» قال السوري: «لا تجادلني، إنزل». تدخّلت وقلت للجندي: «يا أفندي، هذا الشيخ بشير»، فأجابني مستغربًا قولي: «روح وَلا، خيّط بغير هالمسلّة». ولما ألححت عليه، وأدرك أني صادق في قولي راح يحدّق في وجه بشير، ثم صاح: «إيه والله! أنت الشيخ بشير وضوّك مضوّي كمان...» ومعنى هذا الكلام أن بشير كان قد فتح باب السيارة فاشتعل الضوء الذي كان زعم في أول اللقاء أنه

محروق، فرضي السوري إذ اعتبر أن طلبه قد قوبل بالتلبية.

تعكس هذه الحوادث-الطرائف العديدة التي اتصفت بها علاقات بشير بالسوريين حساسيته تجاههم التي ما برحت تشتدّ وتتفاقم مع مرور الأيام، بقدر ما كانت سيطرة القوات السورية تبسط ظلّها الضاغط على الأشرفية حتى بلغت فيما بعد درجة عالية من العنف.

تفاقم التوتر في العلاقة بين بشير والسوريين

أخذ السوريون يكّثفون وجودهم على المفارق وفي الساحات العامة، ويرسلون دورياتهم تجوب الأحياء، ويدخلون الأندية والأماكن العامة من غير استئذان، فيتصدّرون المجالس، ويتدخّلون في أمور خاصة لا تعنيهم، فضاعف هذا التصرّف الحساسية والنفور بينهم وبين بشير ومحبّيه ومؤيديه والقائلين قوله.

ذات يوم، كان يجتاز ساحة ساسين بالقرب من مطعم «التشايز»، فأوقفه الحاجز السوري المتمركز هناك، وطلب إليه الترجّل من السيارة للتفتيش. فعرّف بشير عن نفسه، ولكن السوري لم يكترث، وأصّر على تلبية طلبه فرفض بشير الانصياع، وامتنع عن النزول من السيارة، فتأزمّت الحال، وتوتّر الجو، وانتشر الخبر بسرعة البرق حتى بلغ بيت الكتائب في المنطقة حيث وصل الخبر بأن بشير محاصر في ساحة ساسين. فهبّ الشبان بأسلحتهم وكلّهم حماسة وثورة غضب. طوّقوا المركز السوري، وتمترسوا وراء الجدران، واحتلوا سطوح الأبنية. وردّ السوريون بطلب نجدة، فجاءت قوّة كبيرة وتمركزت على المفارق من برج رزق إلى السوديكو، فباب إدريس. وبلغ التوتّر ذروته...

كنت في تلك الأثناء مع جان ناضر نزور إبراهيم نجار في منزله الواقع في أول شارع عبد الوهاب الإنكليزي. فتلقّينا مخابرة تلفونية هرعنا بعدها إلى مكان الحادث. وكان جان يرغي ويزبد، فاقتحم الصفوف المحيطة بنقطة وجود بشير، وتوجّهت أنا إلى بيت الكتائب في الأشرفية تلبية لطلب المرحوم فؤاد أبي نجم الذي كان أمين المنطقة.

كانت الطرق تعجّ بالمسلحين الهائجين، وقلوبنا جميعًا ترتعد خوفًا على بشير، بل كانت معه في نطاق الحديد والنار، ومع جان ناضر الذي ذهب إليه مختارًا، بل راغبًا. ولا ريب في أن ذلك الحصار كان أول حزام سوري مسلّح عرفته الأشرفية منذ وصول القوات السورية إليها.

تدخّل المخلصون فورًا. وأجريت اتصالات على أرفع المستويات بين الحزب والقيادة السورية، فبدأت الأحزمة الأمنية المسلّحة السورية والكتائبية تنفك الواحد بعد الآخر، حتى أتيح لنا أن نسحب بشير وناضر ونوصلهما إلى بيت المنطقة.

قطوع ومرّ بسلام، والحمد لله!

فلو أطلقت رصاصة واحدة أو «فتّيشة» لوقعت مجزرة رهيبة سقط فيها ما لا يحصى من الضحايا، فضلًا عن حياة بشير التي كانت مهدّدة بصورة مباشرة.

مأساة إهدن

في هذه الفترة من الحرب، وبعد أكثر من ثلاث سنوات من التعاون بين مختلف التنظيمات العسكرية في القتال ضد الفلسطينيين واليساريين، في إطار الجبهة اللبنانية، تكاثرت الحزازات فيما بينها. وصرنا نسمع باشتباكات ووقوع قتلى وجرحى بين الكتائب والأحرار وحراس الأرز والمردة وسواهم من المقاتلين اللبنانيين. وفي ربيع ١٩٧٨، تفاقمت الصدامات خصوصًا بين شباب الكتائب وشباب المردة. ووصلت إلى ذروتها إثر مقتل رئيس إقليم زغرتا-الزاوية الكتائبي جود البايع في شكا.

طلب بشير مرارًا تسليم القتلة، فامتنع آل فرنجية عن ذلك مما جعل بشير يثأر للبايع بإرسال فرقة في ١٣ حزيران ١٩٧٨ برئاسة سمير جعجع ومساعده نادر سكر لجلب القتلة بالقوة. مرّ الكتائبيون على عدة حواجز للسوريين، فكان مرورهم سهلًا.

ووفق ما علمت في حينه، إن بشير قرّر إرسال الفرقة إلى إهدن بعد أن وردته معلومات مفادها أن طوني فرنجية وعائلته لن يكونوا هناك، وإنما في الرابية بعد

انتهاء عطلة نهاية الأسبوع. حصلت مجابهات عسكرية قبل الوصول إلى قصر آل فرنجية في إهدن أصيب فيها سمير جعجع ونقل فورًا إلى مستشفى اوتيل ديو، لكن المجموعة الكتائبية تابعت الهجوم ودخلت القصر، مما أدّى إلى نتائج مأسوية مريعة ومقتل نحو أربعين شخصًا بينهم طوني فرنجية وزوجته وابنته.

جُنّ بشير لدى تبلّغه ما جرى خلال العملية العسكرية، واتصل مرارًا بإبنة الرئيس فرنجية لميا ليقول لها إنه لم يعطِ هكذا أوامر، لكنها لم تردّ عليه. ويمكنني أن أؤكد أن الندامة والحسرة بقيتا تكتنفانه حتى استشهاده.

الواقعة مع السوريين

صحت مخاوف بشير، في صيف ١٩٧٨، إذ انقلب «الصديق» السوري علينا بعد تحقيق السلام المصري-الإسرائيلي وقرار الرئيس السوري حافظ الأسد النفاذ إلى قلب الساحة العربية والإسلامية ومحاولة تصدّر قيادة المواجهة العربية لإسرائيل. فتقرّب مجدّدًا من الحركة الوطنية ومنظّمة التحرير الفلسطينية، وقدّم إليهم التسهيلات في لبنان لاستعادة نفوذهم السابق الذي أدخل جيشه إليه قبل عامين، بهدف ضبطه والحد منه ومساعدة الدولة اللبنانية على استعادة سيطرتها على أراضيها، وفق التبريرات التي قدّمها في حينه.

إنعكس تقاربه مع خصومنا تباعدًا معنا، إذ سرعان ما لاحظنا تضييقًا على حركة شبابنا في الأشرفية وسائر المناطق المشتركة بيننا وبين السوريين. فتكاثرت المضايقات على الحواجز وأثناء الدوريات السورية، إلى أن اندلعت المواجهات ووقع ما سمي «بحرب المئة يوم» التي شهدت قصفًا عنيفًا لم يعرف لبنان مثيلًا له حتى تلك السنة. وانهمرت القذائف من مختلف العيارات وأثقلها وقتلت ودمرت وشردت الآلاف من السكان الأمنين. وانطلقت الحرب التي انتهت بإخراج القوات السورية من المناطق الشرقية أو مما أسميناه بالمناطق المحرَّرة، بعدما دفع شبابنا الأبطال ثمنًا كبيرًا من الدم والعرق والجهد.

أظهـرت المعـارك العنيفـة مـع السـوريين والخسـائر التـي تكبّدناهـا أن بشـيراً كان مصيبًـا في رفضـه القاطـع لتمركـز القـوات السـورية في المواقـع الاسـتراتيجية المتحكّمـة بمفاصـل المواصـلات في الأشرفيـة وسـواها مـن أحيـاء المناطـق الشرقيـة. وقـد كلّفتنـا الكثـير مـن الشـباب الشـجعان الذيـن لم يرضـوا بـأن تبقـى أرضنـا محتلّـة وتحـت سيطرة مَـن باتـوا يمالقـون أعداءنـا ويسـعون إلى اجتذابهـم إليهـم، ولـو عـلى حسـاب سـيادة البلـد واسـتقلاله واسـتقراره.

لسـت بحاجـة إلى التذكـير بـأن الأشرفيـة كانـت حزينـة في تلـك الأيـام، إذ كانـت تقـدّم عـلى مذبـح المقاومـة اللبنانيـة شـهيدًا أو أكـثر كل يـوم، ولكنهـا كانـت كذلـك فخـورة وعـلى ثقـة كبـيرة بنفسـها وببشـير الـذي صّـور لهـا إمكانيـة الانتصـار وجعلهـا تتأكـد أنهـا بقيادتـه سـوف تتمكـن مـن بلوغـه. وكان بيـت المنطقـة أول مـن يتلقّـى نبـأ استشـهاد الرفـاق الموجـع، ويترتّـب عليـه أن ينقلـه إلى أهـل الشـهيد. ولم تكـن عمليـة النقـل هـذه سـهلة، بـل مـن الصعوبـة بحيـث يرفـض القيـام بهـا مَـن في نفسـه ذرّة مـن الشـعور بالتضامـن الاجتماعـي. فمـن يجـرؤ مختـارًا عـلى نـشر هكـذا خـبر؟ مـن يجـرؤ عـلى مصارحـة الأهـل بالكارثـة؟ وكانـت النكبـات تتـوالى كلّ يـوم، ويهـرب الجميـع مـن مسـؤولية إطـلاع الأهـل عـلى مـا حـلّ بالشـهيد.

المهمة الصعبة

حيـال هـذا الأمـر، قـرّر بشـير أن يتـولّى جـورج باخـوس، أمـين سر منطقـة الأشرفيـة هـذه المهمـة الصعبـة. فـتردّد جـورج كثـيراً في قبـول القيـام بهـا، ولكنّـه نـزولًا عنـد إصرار بشـير، أذعـن في النهايـة لإصرار بشـير. فـكان يذهـب كلّ يـوم إلى الأحيـاء والزواريـب والمسـاكن، وخاصـةً منطقـة «كـرم الزيتـون» في الأشرفيـة حامـلًا إليهـا مـا يُدمـي القلـوب وينـشر اللوعـة والأسى. وقـد حـرص عـلى أن يتمـرّن قبـل القيـام بجولاتـه العسـيرة، فـإذا دخـل أحـد الأحيـاء راح يُوَلْـوِل ويصفّـر ويرسـل النحيـب والعويـل، ملوّحًـا بمحرمتـه فـوق رأسـه تلويـح النادبـات المحترفـات، ثـم يرقـص حينًـا ويندب أو يـرثي حينًـا آخـر: «يـا حرقـة قلبـي عليـك!... يـا لوعتـي عـلى الجـمال والكـرم! يـا ضيعـان الشـباب... مـا حـدا خـسرو قـدّي، أنـا يلـّي خسرتـو! أنـا يلـّي يتّمنـي! أنـا يلـّي ربيّتـو!...»

وعلى هذا المنوال يذرف الدموع، ويرسل الآهات، ويزعق متأوهًا.

تطلّ النساء من النوافذ وقد استولى عليهن خليط من الذعر والذهول. ينتظرن النبأ. يتساءلن عن الفقيد. يتبادلن نظرات الاستفهام: من هي المنكوبة؟ من هي الأم الثكلى، أو الأخت، أو الزوجة، أو النسيبة؟

هذه تدخل بيتها وتتوارى كأن الهرب من النبأ يُبعد عنها المصيبة. وهذه تتجاهل، كأنها لا تريد أن تسمع أو أن تصدّق، ومنهنّ من يصرخن باكيات حين يتجاوزهن باخس متوغّلًا في الحيّ، ويُسمع صوت إحداهن: «نشكر الله، زمطنا!»

وفي نهاية المطاف، يقف باخوس على باب بيت الشهيد ويصيح: «وينك يا فلان تشوف أمك! وينك يا أسد لا تعود إلى عرينك!»

فتعرف الأم، ويعرف الأب، وتعرف العائلة، وتنقضّ الفاجعة انقضاض الصاعقة.

أحيانًا، كان باخوس يتظاهر بالإغماء فيرشه الحاضرون بالكولونيا وماء الزهر. وأحيانًا كان عويله يرتفع فوق عويل ذوي الشهيد، فيبادرون إلى مؤاساته.

أخطأ باخوس، ذات مرّة، ودخل حيًا لينبئ عن استشهاد بطل، فبكى، كعادته، وصرخ وولول وانتحب، ولكنه لم يجد صدىً لصياحه. ذكر اسم الشهيد على باب منزله المفترض، فما تأثّر أحد. وتقدّم إلى منزل آخر، فما أعاره أحد اهتمامًا. عندئذٍ، استعاد روعه، وهدّأ أعصابه، وتمالك نفسه، ثم قال: «أعتذر! بيت الشهيد في غير هذا الحيّ!»

مهمّة جورج باخوس كانت أكثر من صعبة، وقد سبّبت له ورمًا في عنقه. نصحه الأطباء باستئصاله، فرفض خوفًا من تعذّر العثور على من يحلّ محّله للقيام بعمله الاستثنائي.

صحيح أن خسارة الشباب في القتال، وغير القتال، مؤلمة، غير أنها أكثر إيلامًا في معارك الاقتتال الداخلي. وبعد الجولات المشرّفة التي انتهت بإخراج القوات السوريّة من المناطق المحرّرة، تأزّمت العلاقات بين القوى المكوّنة للقوات اللبنانية، وبخاصة بين القوتين الأساسيتين: الكتائب اللبنانية ونمور الأحرار. وسرعان ما تلبّدت الأجواء بين بشير الجميّل وداني شمعون، إذ إن حزب الكتائب وحزب الوطنيين الأحرار لم يرضيا بتسليم أحدهما الزعامة للآخر، مما انعكس تدهورًا في العلاقة بينهما تحوّلت بداية إلى مناوشات خفيفة تطوّرت مع الوقع إلى اصطدامات مسلّحة أدّت إلى سقوط قتلى من الطرفين.

إنتدبني بشير مع سليم الجاهل وأنطوان نجم للاجتماع بداني شمعون وإقناعه بالتواصل مع بشير لحلّ الأزمة وكان من جهته أبو أرز (إتيان صقر) يعمل جاهدًا للغرض عينه وبخاصة لجمعهما في مركزه في بيت مري. لم يلبِّ داني شمعون دعوتنا إلى الاجتماع به مدّعيًا أن همّنا ينحصر بإيصال بشير إلى رئاسة الجمهورية، وأخذ يسمينا بالإنكليزيةPresident Makers ، أي صانعي الرئيس. وتسارعت للأسف الاصطدامات وأصبحت شبه يومية وبنتائج وخيمة مما جعل بشير يردّد علنًا أن علينا توحيد البندقية. وصباح ٨ تموز ١٩٨٠، زارني الأباتي بولس نعمان، في مقر إقامتي في الهوليداي بيتش، بوجهٍ مكفهر وحزين وكثير من الاستياء والغضب، وقال لي: «حصلت مذبحة صباح اليوم، إذ قضى بشير على حزب الوطنيين الأحرار بكامل عناصره المسلّحة، مما أنتج مئات القتلى والجرحى».

في اليوم التالي، ذهبنا سليم الجاهل وأنطوان نجم وأنا للاجتماع ببشير في المجلس الحربي والاستفسار عن عملية تصفية نمور الأحرار. بدأ كلامه معتذرًا عما حصل، لكنه كرّر أمامنا مقولته التي كان يردّدها في تلك الفترة: «يجب خلق مجنون يجمع السلاح بين الأحرار والكتائب ليوقف النزيف المتواصل بين مقاتلي الحزبين». وبينما كان مستطردًا في الحديث دخل علينا فؤاد روكز، أمين سر بشير، لينبئه بأن الرئيس كميل شمعون في طريقه إلى المجلس الحربي للاجتماع به. إستأذن منا بشير على الفور، وطلب تحضير ثُلّة من عسكر القوات اللبنانية تقف على جانبي المدخل لتأدية التحية للرئيس شمعون عند دخوله المبنى. غير أن الرئيس

شـمعون اختـار أن يمـرّ خلـف الصفـين متجاهـلًا التحيـة، ودخـل مـع بشـير إلى غرفـة مغلقـة.

بعـد نصـف سـاعة، غـادر الرئيـس شـمعون كـما دخـل، أي متجنّبًـا المـرور بـين صفَي الثُلّـة العسـكرية والتحيـة العسـكرية المخصصـة لـه. أمـا بشـير الـذي كانـت الدمـوع تترقـرق في عينيـه، فقـد طلبنـا منـه إطلاعنـا عـلى تفاصيـل اللقـاء، فأجابنـا باختصـار: «إنحنيـت لتقبيـل يـد الرئيـس شـمعون، فرفـض ذلـك قائـلًا: إنتـصرت يـا... مـاذا سـتفعل بعـد؟ ومـاذا سـيحصل بـداني ودوري؟ فأجبتـه بـأن ليـس عليـه أن يقلـق عليهـما، فـداني في فقـرا يسـتعد للسـفر إلى الخـارج ودوري هـو في منزلـه في منطقـة عبريـن في الأشرفيـة تحـت الحراسـة». ثـم أضـاف بشـير بأنـه طلـب مـن الرئيـس شـمعون أن يبقيـه تحـت جناحيـه، فلـم يجبـه وغـادر. وللتاريـخ يجـب التذكـير بـأن الرئيـس شـمعون بعـد سـنتين مـن هـذه الحادثـة المأسـوية، أيّـد بشـير في انتخابـات رئاسـة الجمهوريـة وعمـل بجـد وجهـد في سـبيل ذلـك، بعـد أن رشـحّه الأبـاتي نعـمان في أحـد اجتماعـات «الجبهـة اللبنانيـة»، إثـر قيـام الشـيخ بيـار بترشـيح الرئيـس شـمعون في الاجتـماع نفسـه.

الفصل التاسع:

بشير والولايات المتحــدة

كان مـن الطبيعـي أن يهتـم بشـير والفريـق المحيـط بـه بإقامـة علاقـة مبـاشرة ومتينـة مـع الدولـة الأميركيـة، زعيمـة العـالم الحـر كـما كانـت تسـمى في تلـك الفـترة. وكنـا مقتنعـين في حينـه أنـه لا بـد مـن مثـل هـذه العلاقـة لـشرح وجهـة نظرنـا وهواجسـنا وتأمـين أفضـل فهـم لهـا في زمـن الحـرب البـاردة الدائـرة بـين الجبّاريـن السـوفياتي والأمـيركي، وفي ظـل الدعـم الهائـل الـذي كان يوفّـره الاتحـاد السـوفياتي للفلسـطينيين وسـوريا والتنظيـمات اليسـارية في لبنـان، وحاجتنـا بالتـالي إلى تأمـين دعـمٍ دولي مـوازٍ لقضيتنـا.

لهـذا اهتـم بشـير كثـيراً بإنشـاء مكتـب تمثيـلي للقـوات اللبنانيـة في واشـنطن، بـإدارة ألفـرد مـاضي، وتأمـين كلّ مـا يلـزم لـه مـن مقومـات لـكي ينجـح في مهمتـه، وفي الوقـت نفسـه، حـاول، ولكـن مـن نجـاحٍ كبـير، إرسـاء علاقـة مـع السـفارة الأميركيـة في لبنـان.

تمكّـن قائـد القـوات اللبنانيـة، في نهايـة المطـاف، مـن إرسـاء العلاقـات التـي يصبـو إليهـا مـع الإدارة الأميركيـة، ولكـن بعـد جهـد جهيـد. ونجـح في الانتقـال بنظـر الأميركيـين -كـما في نظـر الكثـير مـن اللبنانيـين- مـن مجـرّد قائـد عسـكري لتنظيـم مسـلّح لبنـاني متقاتـل مـع سـائر التنظيـمات اللبنانيـة، إلى زعيـم سـياسي شـديد التأثـير عـلى مجريـات الأحـداث السياسـية والعسـكرية في لبنـان. غـير أن ذلـك لم يتحقـق في ليلـةٍ وضحاهـا بـل مـرّ بحقبـات متعـددة، تخلّلهـا العديـد مـن المنـاورات والمسـاعي.

بعـد التحـاق بشـير بمكتـب الأسـتاذ ألبـير لحـام للمحامـاة في بـيروت لمـدة سـنتين (١٩٧١-١٩٧٢)، بعـد تخرّجـه مـن كليـة الحقـوق في الجامعـة اليسـوعية، سـافر سـنة ١٩٧٢ إلى الولايـات المتحـدة والتحـاق بجامعـة South Western Methodist في دالاس للتخصـص في القانـون الـدولي. غـير أنـه لم يستسـغ الجـوّ الأكاديمـي الـصرف في هـذه الجامعـة، وهـو الـذي انغمـس في السياسـة منـذ نشـأته في كنـف والـده، ونشـط عـلى الصعيـد الطـلابي الصاخـب، فقفـل راجعًـا إلى لبنـان.

مـع بـدء الحـرب اللبنانيـة، قـرر كـما أشرنـا أعـلاه تحقيـق التواصـل مـع الإدارة الأميركيـة. وقـد سـاهمت اجتماعاتـه المتواصلـة مـع شـارل مالـك، وبعدهـا مـع بـوب بايـزل رئيـس الرابطـة الأميركيـة اللبنانيـة (ALL) في تعزيـز فهمـه لطريقـة تفكـير الأميركيـين وسـير الأمـور في دوائـر القـرار في واشـنطن. وقـد قـام بشـير بأربـع زيـارات للولايـات المتحـدة: الأولى مـن ١٨ تشريـن الثـاني لغايـة ١٠ كانـون الأول ١٩٧٧. والثانيـة مـن ٢٤ أيلـول لغايـة ٧ تشريـن الأول ١٩٧٩، والثالثـة في ربيـع العـام ١٩٧٨، والرابعـة مـن ٣ تمـوز لغايـة ١٥ آب ١٩٨١، وهـي الزيـارة التـي فتحـت أمامـه جميـع الطـرق التـي كانـت مقفلـة في وجهـه في السـابق.

جـرى الإعـداد جيـدًا لهـذه الزيـارة وعـلى مراحـل في لبنـان وفي العاصمـة الأميركيـة، وقـد سـاهم في إنجاحهـا تضافـر جهـود العديديـن وتلاقيهـا عنـد الفكـرة القائلـة بـأن بشـير الجميّـل هـو الشـخصية المحوريـة في الحيـاة السياسـية اللبنانيـة القـادرة عـلى الإيفـاء بالتزاماتهـا وتعهداتهـا وعـلى صـوغ مـشروع وطنـي جامـع مـن شـأنه أن يضـع حـدًا للأزمـة اللبنانيـة الممتـدة فصـولًا وحروبًـا منـذ العـام ١٩٧٥.

بـدأت المسـاعي مـع قيـام جـوني عبـده بجمع بشـير بالسـفير الأمـيركي في لبنـان جون غونترديـن وباجتـماع آخـر مـع السـفير الأمـيركي الـذي تـلا الأخـير في بـيروت، روبـرت ديلـون، طالبًـا منهـما تحضـير اجتماعـات مـع كبـار المسـؤولين الأميركيـين ومـع نائـب الرئيـس الأمـيركي جـورج بـوش أو مـع وزيـر الخارجيـة ألكسـندر هايـغ، إذا أمكـن. وعـد السـفير ديلـون مـن جهتـه بمحاولـة تأمـين اجتـماع مع هايـغ ومع وليـم كايسي عـن CIA.

بشـــير والرئيـــس ريغـــان

فجـأةً، تبـدّل كلّ المشـهد، وأخـذت ثمـرة الجهـود تظهـر في شـكل مطّـرد. ففـي ٩ آذار ١٩٨١، اسـتلم بشـير رسـالة مـن الرئيـس رونالـد ريغـان موجّهـة إليـه بالاسـم عـلى الشـكل الآتي:

To Mr. Bachir Gemayel Commandor in Chief of the Lebanese Forces

السيد بشير الجميّل - قائد القوات اللبنانية.

جُن جنون بشير لاستلامه هذه الرسالة التي بموجبها تعترف الولايات المتحدة للمرة الأولى رسميًا برئاسة بشير الجميّل لمؤسسة القوات اللبنانية التي كانت في نظرها سابقًا مجموعة مسلّحة من الميليشيات الكتائبية. طلب مني بشير على الفور جمع الدائرة الأميركية (American Desk) برئاسة الدكتور شارل مالك والأعضاء إيلي سالم، عبد الله أبو حبيب، ألفرد ماضي، فؤاد حداد للردّ على الرسالة المهمة. إجتمع الأعضاء في منزلي وعملوا لمدة ساعتين لتحضير ردّ يتضمّن جميع الأفكار التي تعبّر عن وجهة نظرنا وتشرح قضيتنا ولا تتعدى الصفحة ونصف الصفحة التي جاءت فيها رسالة الرئيس الأميركي. وبعد ساعتين من المداولات لم يقتنع الدكتور مالك ولا الحاضرون بالمسودة التي أعددناها، فقد كنا نريد أن تكون رسالتنا الجوابية على مستوى عالٍ من البلاغة لكي تترك الانطباع الذي نريده لدى الإدارة الأميركية.

فما كان مني إلا أن اقترحت على بشير استدعاء صديقًا لي هو الدكتور سيسيل حوراني العلاّمة في اللغة الانكليزية والذي خدم الرئيس الحبيب بو رقيبة كمستشار لمدة ٢٥ سنة في تونس. وكان البروفسور حوراني مقرّبًا من الدكتور مالك يساعده في بعض الأحيان على صياغة خطاباته عندما ترأّس الجمعية العمومية للأمم المتحدة. وكانت تربطني بالبروفسور حوراني صداقة حميمة أسسها لنا ابن اخته الدكتور رجا خوري عميد كلّية الطب في الجامعة الأميركية آنذاك، ووالد فضلو خوري رئيس الجامعة الأميركية المنتخب حديثًا.

كان البروفسور حوراني يقطن في المنطقة الغربية قرب منطقة «البطريركية»، لكن ذلك لم يمنع بشير من تأمين انتقال آمن له، فوصل إلى منزلي في الساعة الحادية عشرة ليلًا. وعند دخوله صرخ شارل مالك قائلًا: «أهلا بمعلّمنا». أخذ حوراني ورقة وصاغ الردّ بنفس المعنى الذي تمادت في وصفه الجماعة، لكن باقتضاب أي بصفحة ونصف، مما أعجب الجميع وحمل بشير على التقرّب منه وتعيينه مستشارًا له. وقد خدمه سيسيل في علاقاته مع مصر والعراق وإسرائيل ودول أخرى. وقد نشر نص رسالة ريغان بين الصفحتين ٧٦ و٧٩ من الجزء الثاني من كتاب سيسيل حوراني وعنوانه: «An Unfinished Odyssey».

وأهم ما جاء في رسالة ريغان:

- الولايات المتحدة تدعم الاستقلال والسيادة وسلامة الأراضي والوحدة الوطنية للبنان، وهي ظلّت ولا تزال معارضة للتقسيم.

- تدعم الولايات المتحدة الحكومة الشرعية والدستورية المركزية ومؤسسات لبنان الوطنية. من المهم الحفاظ على الشرعية.

- تقرّ الولايات المتحدة بأن هناك مؤيدين لهيكلية حكومية ودستورية معترف بها.

- ليس لدى الولايات أي رؤى حول تغييرات خاصة. ويعود للّبنانيين التقرير، لكن مثل هذه التغييرات في نظرها يجب أن تتم عبر وسائل سياسية سلمية.

- قد ترحب الولايات المتحدة بحرارة بتطوير إجماعي سياسي حول شكل لبنان الجديد، يعكس رؤى جميع المجموعات العديدة اللبنانية.

- تقلق الولايات المتحدة بشدة بالنسبة إلى سلامة وأمن وخير الطوائف اللبنانية المسيحية.

- تعتبر الولايات المتحدة أن المجموعة الفلسطينية الكبيرة في لبنان تشكّل مشكلة اللبنانيين. وهي تؤمن بالتصدي للمشكلة الفلسطينية بما في ذلك البعد اللبناني، رغم سلام عربي إسرائيلي شامل.

- تُعلن الولايات المتحدة بأنه يجب أن لا يضر أي قرار شامل للمشكلة الفلسطينية بمصالح لبنان الوطنية.

- تستهجن الولايات المتحدة العنف في لبنان حيثما يجري.

- تعارض الولايات بشدة اللجوء إلى الإرهاب، كما تعارض بقوة الجهود الهادفة إلى الاعتداء على إسرائيل من الأراضي اللبنانية. هذا ينشئ دورة من العنف اللامتناهي تقريبًا يضاف إلى معاناة الشعب البريء في إسرائيل ولبنان على السواء.

- تدعم الولايات المتحدة انسحاب، على مراحل، للقوات السورية مما يؤدي إلى إنهاء تامٍ لأي وجود عسكري سوري في لبنان. هذا يقتضي أن يستكمل عبر

مراقبـة موسّـعة ثابتـة ومسـتمرة لجيـش وشرطـة الحكومـة اللبنانيـة في مناطـق التوتـر التـي يراقبهـا الآن السـوريون.

- يجـب أن تجـري انسـحابات السـوريين بطـرق لا تـؤدي إلى صراع مـدني متجـدد أو حـرب كـبرى بـين مختلـف الميليشـيات ومجموعـات الفدائيـين الفلسـطينيين.

- نأمـل مـن القـوات اللبنانيـة أن تمـارس التحفّـظ والصـبر. حتـى في مواجهـة التحريضـات والتحديـات التـي قـد تـأتي مـن السـوريين والمجموعـات الفلسـطينية.

- إننـا نشـجع أي جهـود للحـوار بـين القيـادة المسـيحية والطوائـف الإسـلامية والدرزيـة في لبنـان.

- نعتقـد أن القـوات اللبنانيـة والمنظّـمات المسـيحية الأخـرى هـي في وضـع يؤثّـر عـلى مجـرى مسـتقبل التاريـخ اللبنـاني، ونأمـل أن تتابـع أهدافهـا عـبر طـرق سياسـية سـلمية وأن تتعـاون عوضًـا عـن التحـدّي، مـع الحكومـة المركزيـة والجيـش الوطنـي.

بعد نشره رسالة ريغان، استطرد الدكتور حوراني في كتابه قائلًا:

لقـد أثارتنـي ظاهـرة بشـير في بعـض الوقـت. شـاب يتجـرّأ عـلى تحـدّي الوجـود العسـكري والسـياسي السـوري في لبنـان. كيـف كانـت أهدافـه واسـتراتيجياته؟ أتابعـة لسـعد حـداد في الجنـوب؟ ومـاذا كانـت أو يمكـن أن تكـون العلاقـة بـين الرجلـين؟ كانـت أسـئلة أملـت الحصـول عـلى إجابـات عنهـا. لم يخـب ظنـي بالاجتـماع. فقـد وجـدت بشـير صريحًـا، قويًـا، وطبعًـا سـاحرًا للجماهـير (كاريزماتـك). لقـد تفهّمـت باهتـمام اعتقـاده بـأن الوقـت مناسـب لمحاولـة اسـتخدام الدعـم الأمـيركي لحملتـه مـن أجـل تحريـر لبنـان مـن قبضـة السـوريين.

لقـد طلـب صياغـة رسـالة للإجابة عـلى الرسـالة الأميركية بهـذا الخصـوص. كان حزب القـوات اللبنانيـة يمثّـل لسـنوات عديـدة، وبصـورة غـير منصفـة، في نظـر وسـائل الإعـلام الدوليـة منظّمـة مسـيحية فاشـية. وكان مصطلـح «الجنـاح اليمينـي» يُسـتخدم عـادةً مـن قبـل بعـض الصحافيـين وخـبراء الـشرق الأوسـط لتمييـزه عـن مزيـج الاشـتراكيين والرادكاليـين ومجموعـات المقاومـة الفلسـطينية ومؤيديهـم الأجانـب، الذين رغبـوا في أن

يسمّوا أنفسهم «قوميين». كانت تسمية «الجناح اليميني» لاصقة أيضًا بالسياسيين والمثقفين المسيحيين الذين ألّفوا «الجبهة اللبنانية» والذين دعموا الجهود التي بدأت عام ١٩٧٥ لمقاومة ما لحظوه من محاولة فلسطينية للسيطرة على لبنان كقاعدة لانطلاق عمليات يقومون بها ضد إسرائيل بعد أن فقدوا قاعدتهم في الاردن عام ١٩٧٠. فيما اتهمت «الحركة الوطنية» تكرارًا أعضاء المقاومة اللبنانية بسعيهم إلى تقسيم لبنان إلى مربّعات طائفية واعتمادهم على إسرائيل لتحقيق هدفهم.

رغم كتابة الرسالة بلغةٍ غامضة نموذجية لدواونية واشنطن، استطعت قراءة فيها بعضًا من هذه الأفكار الخاطئة لواقع الصراع في لبنان. كنت مدركًا مسبقًا أنه، بين المقاومة اللبنانية لتسلّل الفلسطينيين والنضال المسلّح الفلسطيني ضد إسرائيل، هناك تفاوت ملائم للقضية الفلسطينية يطغى ليس فقط على معظم الصحافيين الأجانب المتمركزين في بيروت، بل أيضًا على بعض الدبلوماسيين، والمسؤولين الرسميين الأميركيين في واشنطن. في الكتاب الذي طلب مني بشير صياغته للرد على الرسالة السرية، حاولتُ تبديد بعض الأفكار الخاطئة وتقديم صورة حقيقية عما كان يسعى الجميّل في الشمال و(سعد) حداد في الجنوب إلى تحقيقه، كلٌ في مجموعته الخاصة التي تختلف ظروفها عن الأخرى.

في الواقع، كنت إلى حدٍّ ما متفاجئًا وخائب الظن بما ظهر من بشير من تحفظات حول بعض القيادات الفاعلة والوضع في الجنوب. لم أعلم في حينه أنه أرسل بعض الأعضاء من القوات اللبنانية إلى هناك، في مهمة لمساعدة جيش سعد حداد، وأنهم لم يتصرّفوا جيدًا، ولذلك أعادهم حداد. لقد رمى أيضًا الشك على انتماءات بعض الفئات من السكان اللبنانيين، واصفًا إياهم بالأقرب إلى فلسطين منهم إلى لبنان. هذا كان حقيقيًا جغرافيًا، إذ كان لبنان تاريخيًا محصورًا بجبل لبنان والمنطقة الداخلية المارونية، ولكن كان حكمه غير منصف على حداد والجنود والمدنيين الذين كانوا يدعمونه. لقد بذلت جهودي لتصحيح رؤيته وإعطائه نسخة عن كتاب حداد إلى ريغان الذي كان يربط بموجبه أفعاله في الجنوب بما كان يقوم به بشير في الشمال.

وبعد التعبير عن العرفان بالجميل لتكرار الرسالة السرية التعبير عن الدعم الأميركي لاستقلال لبنان وسيادته وسلامة أراضيه ووحدته الوطنية، كتبتُ صياغتي:

- تكرّر القوات اللبنانية للإدارة الأميركية إحدى الفرضيات المركزية لفلسفتها وبرنامجها، وهي أن لبنان ينتمي إلى جميع طوائفه التي تعطي ولاءها الأساسي والوحيد للدولة اللبنانية. وهي دائمًا حاضرة من أجل عقد حوار مع السنة والشيعة والدروز وأي طائفة لبنانية أخرى تتقاسم رغبة القيادة المسيحية في إنشاء إجماع لبناني واسع، في إطار سيادة لبنان واستقلاله.

- علاوة على ذلك إنها تدعم القوات الوطنية التي تحافظ على السلطة الشرعية للبلد، وهي دائمًا جاهزة للتعاون ولا تتحدّى الحكومة المركزية والجيش الوطني في متابعة السياسات والمصالح الوطنية بصورة حقيقية وبإخلاص.

- تعتقد القوات اللبنانية أن تقوية الجيش والحكومة المركزية وتسوية وضع الفلسطينيين ومنع استخدام أي جزء من الأراضي اللبنانية لنشاطات إرهابية دولية ومحلية، وحلّ مشكلة جنوب لبنان، ممكن فقط في سياق انسحاب سوري مبكر وكامل.

- يقتضي أن يكون انسحاب القوات السورية، برأي القوات اللبنانية، غير مشروط بتحقيق مسبق لأي من هذه الأهداف، وإن خشية إدارة الولايات المتحدة أن يؤدي هذا الانسحاب إلى تجدّد النزاعات في لبنان غير مبررة. إذ إن وجود القوات السورية هو السبب الأساسي لغياب القانون وعدم الاستقرار السائدين في لبنان، وهو العائق الأساسي لتحقيق الإجماع السياسي الواسع بين اللبنانيين.

- تعتقد القوات اللبنانية أن الانسحاب المبكر والكامل للسوريين قد يؤدّي بسرعة إلى المصالحة والاتفاق بين اللبنانيين وأن الحكومة التي يمكن أن تعكس هذا الإجماع الجديد ستكون قادرة على التعاطي بفعالية مع مشكلة الوجود الفلسطيني المسلّح، وعلى إعادة توطيد السيادة اللبنانية فوق جميع المناطق التي هي حاليًا تحت السيطرة الفلسطينية. وقد يصبح وجود اليونيفل في جنوب لبنان بالتالي غير ضروري.

- في غضون ذلك تشعر القوات اللبنانية بقلق عميق حيال الجهود التي تبذلها أمانة الأمم المتحدة، بدعم واضح وتشجيع من إدارة الولايات المتحدة، لإشراك اليونيفل والجيش اللبناني غير الجاهز، بعمليات في الجنوب. وقد يكون لذلك أثر على مستوى زعزعة استقرار الجنوب وسائر البلد.

- تعتقد القوات اللبنانية أن استعادة السيادة اللبنانية على كامل البلد لا يمكن أن تبدأ على الحدود مع إسرائيل، بل في العاصمة بيروت، ويتم بسطها من هناك على كامل المناطق التي ليست حاليًا تحت سيطرة الحكومة المركزية.

- تتعاون القوات اللبنانية مع الجيش اللبناني في المناطق التي حافظت على الوجود اللبناني فيها، وهي مستعدة لمؤازرة الجيش في عملية توسيع انتشاره في المناطق الأخرى، حالما تزول العوائق الكبرى أمام هذا الانتشار.

- أخيرًا تعتقد القوات اللبنانية أن استعادة لبنان استقلاله وسيادته بصورة حقيقية، الناتجة عن انسحاب القوات السورية وتسوية وضع الفلسطينيين، لا تصبّ فقط في مصلحة اللبنانيين، بل أيضًا في مصلحة الولايات المتحدة الأميركية التي ستجد مجددًا في لبنان شعبًا يتمسّك بالحرية، كما تتمسّك بها أميركا».

واستطرد البروفسور حوراني:

كان بشير سعيدًا بكتابي وطلب مني المجيء مجددًا والعمل معه والبحث في جهوده من أجل تحرير لبنان من القبضة السورية. قبلت عرضه وذهبت إلى واشنطن ونيويورك وأسديتُ إليه النصائح المتعلّقة بما عليه توقعه من هناك، واكتشاف كيفية مساعدة القضية التي يحملها. وصلتُ إلى واشنطن في أوج الاصطدام الخطير بين القوات اللبنانية والجيش السوري في مدينة زحلة في وادي البقاع. كان الوضع مقلقًا جدًا في واشنطن بسبب دخول الصواريخ الروسية إلى المنطقة الخاضعة لسيطرة السوريين وإمكانية حدوث ما من شأنه توسيع دائرة الصراع واستدراج إسرائيل إليه.

تحرّكت الإدارة الأميركية لتطويق أزمة الصواريخ المتفاقمة. وأرسل الرئيس الأميركي رونالد ريغان فيليب حبيب، الدبلوماسي الأميركي من أصل لبناني، كمبعوث رئاسي مكلّف بالتواصل مع الأطراف المعنية من أجل إيجاد حل لأزمة الصواريخ. وبغض النظر عما آلت إليه المبادرة الأميركية، شكّلت سلسلة لقاءات فيليب حبيب مع بشير محطة رئيسية في توطيد العلاقة بين قائد القوات اللبنانية والولايات المتحدة، إذ كوّن المبعوث الرئاسي الأميركي انطباعًا جيدًا جدًا عن بشير، حتى أنه وصفه بأنه «الرجل السياسي الأقوى». وقد لعب فيليب حبيب دورًا مهمًا في واشنطن على مستوى إقناع ألكسندر هايغ وزير الخارجية الأميركية بجدوى المراهنة على بشير، وبخاصة إشارته إلى أن بشير يصلح لقيادة لبنان كرئيس جمهورية.

بناءً على هذه التطورات، جاءت الزيارة الرابعة لبشير الجميّل إلى الولايات المتحدة في تموز ١٩٨١ مختلفةً تمامًا عن الزيارات التي سبقتها والتي أقصى ما تخللها بعض الاجتماعات غير المهمة والنصائح بدعم الرئيس الياس سركيس. وبعدما جرى ترتيب اجتماعات له مع عدد من المسؤولين في وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية الأميركية من بينهم نيكولا فيليوتس. وبعدما أصر بشير على الاجتماع مع شخصيات أرفع، تحرّك من جديد ألفرد ماضي، رئيس مكتب القوات اللبنانية في واشنطن، وبوب بايزل رئيس الرابطة اللبنانية-الأميركية وأمّنا اجتماعًا مهمًا مع موريس درايبر، نائب وزير خارجية الولايات المتحدة لشؤون الشرق الأوسط الذي جزم بأن لا مجال لترتيب اجتماع لقائد القوات اللبنانية مع الوزير ألكسندر هايغ.

في هذه الأثناء، التقى بشير المدير المساعد لوكالة الاستخبارات المركزية بوبي راي ايتمان الذي فتح له بابًا للقاء المسؤولين عن مكتب لبنان في الـ CIA تشاك كورغن وجاي روجيرز، حيث جرى الاتفاق على تبادل المعلومات بشكل متواصل مع القوات اللبنانية. وقد طلب أيضًا منهما بشير السعي لاستصدار بيانات من البيت الأبيض مطالبة بإخراج الجيش السوري من لبنان. وتوالت الاجتماعات مع أركان الاستخبارات الأميركية، وكان أهمها مع وليم كلارك المسؤول عن قسم العلاقات، ومن بعدها مع رئيسها وليم كايسي. واعتبر بشير في حينه أن هذا

الاجتماع كان مفيدًا جدًا لأن كايسي بدا حريصًا على حسن العلاقات بين الطرفين مستقبلًا، باعتباره كاثوليكيًا متديّنًا ويحبّ الموارنة.

بعد عودة بشير إلى لبنان، أخذت العلاقات بين الإدارة الأميركية والقوات اللبنانية منعطفًا جديدًا. إذ على مستوى التعاون الأمني، أرسل إيلي حبيقة وزاهي بستاني للتنسيق في العمل المشترك الاستخباراتي لمساعدة لبنان. أما على المستوى السياسي، فقد انفتحت الطرق والآفاق أمام الفريق اللبناني المكلّف من بشير الدفاع عن المصالح اللبنانية وشرح وجهة نظرنا من مجرى الأحداث. وأخذ هذا الفريق يشعر بالتفهّم والتجاوب مع طروحاتنا، الأمر الذي انعكس إيجابًا على مشروع ترشيح بشير الجميّل لرئاسة الجمهورية اللبنانية. وقد أشار البروفسور روحاني في كتابه المشار إليه أعلاه «An Unfinished Odyssey» بوضوح إلى ما تحقق على هذا الصعيد لا سيما لجهة مبادرة الإدارة الأميركية إلى لعب دور مباشر في فتح طريق المملكة العربية السعودية أمام بشير المرشح لرئاسة الجمهورية في تموز ١٩٨٢:

في واشنطن، التقيتُ بدافيد تانتر في مجلس الأمن القومي، وبوب بايزل ممثل بشير في الولايات المتحدة الأميركية، وأصدقاء قدامى لهم ارتباطات شرق أوسطية تعرّفت إليهم خلال زيارات سابقة. وفي ضوء ما اكتشفت، قمت بصياغة مذكرة وعددًا من المقالات الصحافية وضعت فيها الأزمة اللبنانية في إطار البُعد الإقليمي الواسع الذي كان لا يزال في ذلك الوقت تحت تأثير الحرب الباردة. تمّ إرسال المذكرة إلى وزير الخارجة السعودية الأمير سعود الفيصل الذي كان قلقًا من تدهور الأمن في لبنان. فما كان منه إلا أن سعى لعقد اجتماع لوزراء الخارجية العرب في الطائف مع بشير للتعرّف إليه وسماع كلامه المنطقي عن التدخّل السوري في لبنان. حصل الاجتماع في ٢ تموز ١٩٨٢، وكان ناجحًا من حيث تأثير بشير على الوزراء العرب. وقد حضر ذلك الاجتماع الوزيران السعودي سعود الفيصل، والكويتي عبد العزيز حسين، والأمين العام لجامعة الدول العربية الشاذلي قليبي، وسفير السعودية في لبنان علي الشاعر.

زرع ١٠٠ نصبة أرز وشربين وخروب، على صخرة الصمود في نهر الكلب ١٩٨٩.



الشيخ موريس الجميل وابنته.

حفلة في تياتر الإيليزي الاشرفية لروميو لحّود عام ١٩٧٧

قدّاس الرابطة الارثوذكسية في كنيسة السيدة الاشرفية ١٩٨٦

قدّاس تأبين الشهيد مالكوم كير رئيس الجامعة الأميريكية ١٩٨٣

في حفلة تعارف فرع الجامعة بالجامعة الأم عام ١٩٨١. الدكتور سمير تابت نائب رئيس الجامعة الأميريكية محاطًا بالدكتور رجا خوري والدكتور فؤاد حداد والدكتور فريحة وعقيلته.



رئيس مجلس أمناء الجامعة الأميركية كالفين بلمتون في زيارة للدكتور جورج فريحه ١٩٨٧.

حفلة تعارف رؤساء وعمداء الجامعة في منزلي. يبدو في الصورة سجعان القزّي وإيفون الجميّل عام ١٩٧٤.

الرئيس شمعون والشيخ بيار الجميّل يتحدّثان مع الرئيس هولشر ونائبه سمير تابت ١٩٨٠.

بشير الجميّل مع رئيس الجامعة هارولد هولشر في حفلة تعارف في الجامعة ١٩٨٠.



رابطة الأساتذة الجامعيين في منزل الرئيس صائب سلام ١٩٧٣.

كميل شمعون وشارل مالك وبيار الجميّل في حفلة تعارف في الجامعة والفرع عام ١٩٨٠.

إتيان صقر (أبو أرز) في حفلة تعارف الجامعة والفرع ١٩٨٠.

الأباتي بولس نعمان في حفلة تعارف في الجامعة مع الفرع ١٩٨٠.



أمين الجميّل في حفلة تعارف في الجامعة الاميريكية والفرع ١٩٨٠.

الدكتور شارل مالك في حفلة تخرّج طلّاب الOCP عام ١٩٨٤.

قدّاس تأبين الرئيس الشهيد ملكوم كير غام ١٩٨٣.

CIMAISE S

الرئيس كميل شمعون في حفلة تعارف الجامعة والفرع ١٩٨٠.



سفير بريطانيا جون غراي في زيارة فرع الجامعة الأميريكية وإلى يمينه الدكتور سليم الضاهر ١٩٨٦.

إجتماع رؤساء وعمداء الجامعة للتعارف إلى بشير في منزلي ١٩٧٤.

حفلة تخرّج طلّاب الOCP ١٩٨٦.

المكتب المركزي للهيئة الشعبية ١٩٨٦.

الدكتور شارل مالك في حفلة تخرّج طلّاب الOCP عام ١٩٨٤.

قدّامَ الرابطة الأرثوذكسية في كنيسة السيدة الأشرفية ويبدو في الصورة: فؤاد بطرس وميشال عمن وجورج فريحه عام ١٩٨٤.

وضع الحجر الأساس لافتتاح المكتب المركزي للهيئة الشعبية ١٩٨٢.

إفتتاح المكتب المركزي للهيئة الشعبية. وضع الحجر الأساس ١٩٨١.

إفتتاح للسوق الشعبية بحضور إيلي حبيقة ١٩٨٥.



إفتتاح EXPO للهيئة في نهر الكلب ١٩٨٥.

الفصل العاشر:

دخول إسرائيل إلى لبنان

لم يكن خيار بشير الجميّل بالدخول في علاقة مباشرة مع إسرائيل موجهًا ضد أحد من اللبنانيين. وما لجأ إليه إلّا بعدما سدّت السبل وأحكم أعداء لبنان الخناق عليه وعلى المقاومة اللبنانية للمشروع الفلسطيني - السوري - السوفياتي، ومنعوا وصول السلاح للدفاع عن النفس. إذ بعد نحو عام من بدء الحرب وتواصل الاعتداءات في لبنان من فلسطينيين وسوريين من دون توّقف واستشهاد آلاف المقاومين اللبنانيين من كتائب وأحرار وقوات لبنانية قال بشير: «إذا أتتنا مساعدة من الشياطين فسنقبلها لربما تغيّر معادلة الحرب».

مطلع ١٩٨٢، وبعد اتصالات عديدة مع الإسرائيليين، وخاصة مع وزير الدفاع آرييل شارون، أنبأنا بشير بأن إسرائيل عازمة على دخول لبنان لتضرب السوريين والفلسطينيين ولتؤمّن حدودها الشمالية. فقد جمعنا بتاريخ ١١ كانون الثاني ١٩٨٢، وصرّح بأن دخول الإسرائيلي أصبح حتميًّا، وأخبرنا أنه قرر إعلام رئيس الجمهورية الياس سركيس بهذا الأمر التاريخي. وحصل اجتماع في القصر الجمهوري في ١٣ كانون الثاني ١٩٨٢ ضمّ إليه وإلى الرئيس سركيس، وزير الخارجية فؤاد بطرس ومدير المخابرات جوني عبده، والوزير سليم الجاهل وزاهي بستاني. أعلمهم بشير بقرار الإسرائيلي بالدخول إلى لبنان وضرب السوريين والفلسطينيين بشكل واسع. فصفّق بعض الحاضرين قائلًا: «أتانا الفرج»، وبدا السرور على الرئيس سركيس مشيرًا على جوني عبده بالتنسيق مع بشير.

وفي ٦ حزيران ١٩٨٢ دخل الجيش الاسرائيلي إلى لبنان بشكل واسع وصولًا إلى بيروت. وتفاصيل الاحتلال ذكرت على لسان مناحيم بيغين في الاجتماع المغلق في نهاريا الذي سنأتي على نشره بالتفصيل في الصفحات التالية.

ترحيل طلاب الجامعة من جونيه

وصل الاجتياح الإسرائيلي إلى مشارف بيروت وحاصرها وشرع بقصفها قصفًا كثيفًا، وفي منتهى الشدّة. فاتصل بي دافيد دودج، رئيس الجامعة الأميركية بالوكالة طالبًا المساعدة على إخراج بعض الطلاب الأجانب من حرم الجامعة، ليتمكّنوا من مغادرة لبنان عبر ميناء جونية، وهو المخرج الوحيد الباقي بعد تعطيل مطار بيروت وإقفال طريق الشام.

إستمهلت دودج ريثما أفاوض القوات اللبنانية قبل بدء عمليّة نقل الطلاب. وبعد نصف ساعة، اتصل بي رئيس الجامعة من جديد ليخبرني أن الطلاب المعنيين توجّهوا شرقًا على متن مركبات، ولم يتمكّن أحد من ردعهم لأنهم كانوا مذعورين، فتحرّكوا مغامرين وعلى مسؤوليتهم، ركبوا ما تيسّر لهم من السيارات.

إتصلت فورًا ببشير طالبًا تسهيل انتقالهم وعبورهم طريق المتحف. فلبّاني فورًا وأرسل مجموعة مقاتلين واكبتهم من المتحف إلى الهوليداي بيتش حيث كنت مقيمًا. وما كادوا يصلون حتى علمنا أن القوات الإسرائيلية أغلقت طريق البحر، فاضطررنا إلى إبقاء الطلاب في ضيافتنا.

كانوا حوالي ١٦٠ طالبًا من مختلف الجنسيات، وأكثرهم من الفلسطينيين والأردنيين. وفي المرتبة الثانية، من حيث العدد، الباكستانيون والصوماليون.

حلّوا ضيوفًا علينا معزّزين مكرّمين في حماية القوات اللبنانية طوال ثلاثة أيام. وكم كان أسفي شديدًا لما تبيّن لي أن بعضهم قابل ضيافتنا السخيّة بأحطّ ما يمكن أن يصدر عن الرعاع والسفلة. إذ عمد هذا البعض، بدافع حقد وخساسة لا ندري لهما سببًا، إلى تمزيق أثاث ردهات الاستقبال، وتحطيم ما يمكن تحطيمه من الأوعية والمقاعد والأسّرة وأدوات الزينة التي وُضعت في تصرفهم للترفيه عنهم.

وكان العميد إيلي سالم، وعبد الله صفير، وكريم هيكل، وألكس عبد النور يتناوبون على الاتصال بهم، فلوحظ أن أحد الطلاب استأثر بالزعامة على رفقائه، فراح يرسل برقيات إلى واشنطن ويتسلّم ردودًا عليها، لكون والده من أصحاب النفوذ هناك، أو على علاقة بوزارة الخارجية الأميركية، مما جعل هذا الطالب رقيبًا على رفقائه، ومسؤولًا عنهم، ومتحدثًا باسمهم.

جاء الفرج بعد ثلاثة أيام، فغادر ضيوفنا جونية بفضل ما وفّرنا لهم من تسهيلات في مختلف مراحل انتقالهم. وما كادوا يبتعدون عن البرّ حتى اعترضتهم سفن حربية إسرائيلية واقتادتهم إلى إسرائيل، لعلمها أن بينهم مقاتلين فلسطينيين، وأن الطالب صاحب النفوذ مستشار خطير الشأن في منظمة فتح، خصوصًا في الفئة المنتمية إلى المسؤول الفلسطيني أبو جهاد.

إستشاط بشير غضبًا لمّا علم بهذا الأمر، إذ اعتبر ما حدث اعتداءً عليه، وإهانة مقصودة وموجهة إليه، فأتاني كالعاصفة يرغي ويزبد ويرسل الشتائم من كلّ وزن وعيار. وهاله أن تضمّ مجموعة من الطلاب الأبرياء المظهر أربعين مقاتلًا استغلّوا ثقة الناس وغفلة الغافلين، ليتسلّلوا، ويخرّبوا، ويلوذوا بالفرار متوسّلين حسن نيتنا، بل بلاهتنا.

هدّأته مقسمًا بأني لم أكن أعرف شيئًا عنهم، وبأن بادرتي لم تكن إلا وليدة غيرتي على الجامعة الأميركية، وحرصي على سمعتها انطلاقًا من اعتقادي أن الطلّاب يؤلّفون أسرة واحدة متينة الأواصر، سليمة العلاقات، بغضّ النظر عن الميول السياسية والحزبية والمذهبية، وعلى هذا الأساس تصرّفت، فكانت النتيجة نقيض ما أردت.

هدأ بشير، لكنه حذّر من تكرار هذه العملية كيلا يتاح لليهود أن «يمرّكوا علينا» بعد اليوم.

خطف دايفيد دودج

في ١٩ تموز سنة ١٩٨٢، خُطف دايفيد دودج من داخل حرم الجامعة الأميركية وكنت في تلك الأثناء مستاءً من بشير ومنقطعًا عنه، لاعتراضي على أسلوب العمل المتبع في «غاما»، وامتناعي عن تأييد ترشيحه لرئاسة الجمهورية.

في اليوم التالي، اتصل بشير بي يسألني عنه. أجبته بأني أجهل مصيره، وأضفتُ: «أعلم من الجامعة أنها ترحّب بتدخّلك في هذا الأمر، وتشكرك سلفًا على كلّ جهد تبذله للاهتداء إلى مكان رئيسها، وللعمل على إنقاذه».

وعدني خيراً. وفي اليوم الثاني، اتصل بي من جديد، وسألني عن دودج، وهل من جديد بشأنه. أجبته بالنفي، متمنّيًا عليه أن يساعدنا على تحريره. وفي اليوم الثالث اتصل أيضًا يسأل، فتلقّى الجواب نفسه، ثم سألني: «ألا تنوي أن تتخلّى عن الرضّاعة (سماها البيبرونة) لتعود إلى عملك معي؟»

فاجأني بهذا السؤال، بهذا الانتقال الفوري من موضوع إلى آخر بعيد كلّ البعد، هكذا بلا تردّد، وبلا تمهيد، فأجبته عفويًا كأن لساني يسبق فكري: «لا أريد أن أنزل!» فرد بسرعة: «يجب أن تنزل».

ومرّت ثلاثة أيام، فعاد إلى مخاطبتي تلفونيًا كأن شيئًا لم يكن.

– كيف دودج؟

– لا أعلم شيئًا عنه.

– متى ستنزل لاستئناف العمل؟

– لا أريد.

– يجب أن تنزل.

بعد أسبوع، اتصل في الصباح الباكر وبادرني جازمًا: «رح تنزل أو ببعت حدا يصادرك وينزّلك بالقوة؟ إما ريمون أسايان أو ديب أنستاز».

أجبته: «هيدا حكي! هيك كان لازم تحكي من الأول... يّلاَ أنا نازل...» وعدنا إلى ما كنّا عليه تعاونًا، وتفاهمًا، وكدحًا، ليل نهار، ورغبةً في تحدّي الصعاب، رغبة نابعة من الثقة بالنفس، من الإيمان بالقيم المتجسّدة بهذا البلد الصغير لبنان، من الطموح إلى مستقبل لن يكون إلا كما نريد، وكما نستحق ما دمنا مخلصين لقضيتنا، صادقين مع نفوسنا، مع جيراننا الأقربين والأبعدين، ومع العالم أجمع.

وبعد انتخابه رئيسًا للجمهورية، سلّمني الصليب الأحمر الدولي رسالة موجّهة إليه من دايفيد دودج المخطوف. وقد كتبت بخط يده، وفيها يطلب المساعدة عن طريق المقايضة: إخلاء سبيل الموقوفين لدى القوات اللبنانية في مقابل الإفراج عن دودج.

كلفّني بشير الرد على هذه الرسالة عن طريق الصليب الأحمر الدولي أيضًا. كتبنا رسالة إلى دودج هذا نصها مترجمًا:

عزيزي السيد دافيد دودج،

إستلمت رسالتك بواسطة الصليب الأحمر والتي كانت مرمّية أمام مطعم عقل في شتورة. طلبنا من الدكتور إيلي سالم، عميد «كلية الآداب والعلوم» في الجامعة الأميركية ليتعرّف على خطك والتأكيد بأن الرسالة أصلية. فأكد لنا أنها مكتوبة بخط يدك. أريدك أن تعلم وبكلّ صدق أنه ليس لدينا أي موقوف من الفلسطينيين أو غيرهم، وإلا لكنّا قد أخلينا سبيلهم فورًا مقابل الإفراج عنك. أتمنى لك العودة السليمة.

بشير الجميل

وقّعها بشير، وكانت آخر رسالة تحمل توقيعه.

حدث ذلك قبل كارثة الأشرفية بثلاث ساعات......

صُدِمنــا جميعــًا.

إسـتولى علينـا ذهـول ممـوّه بـشيء مـن الاسـتغراب، وحتّـى مـن الاسـتنكار والرفـض، يـوم قـرّر بشـير ترشـيح نفسـه لرئاسـة الجمهوريـة.

قليلـون مـن أصدقائـه الأوفيـاء أعلنـوا معارضتهـم، لا رغبـة منهـم بالمعارضـة، بـل تـداركًا لمـا في هـذه الخطـوة مـن الخطـورة والخطـر.

أذكر من هؤلاء الأصدقاء: سليم الجاهل، وأنطوان نجم وأنا.

أعلـنّا موقفنا واضحًا صريحًا. قلنا: لا!

قلناها بكل ما في أعماقنا من صدق واقتناع.

وكان صدقنــا مــن أنفســنا ولهــا، فضــلًا عــن كونــه وليــد محبّتنــا لبشــير، وغيرتنــا عليــه، وحرصنــا عــلى مســتقبله.

إلتقينـاه يومًـا في مطعـم واكيـم، في الأشرفيـة. وكنـا قـد خطّطنـا لإقناعـه بالعـدول عــن خــوض معركــة الرئاســة.

عقدنا معه اجتماعًا اعتبرناه مصيريًا.

قلنـا لـه إننـا أصحـاب «قضيـة لبنانيـة»، وإن هـذه القضيـة أصبحـت وثيقـة الارتباط بـه شـخصيًّا، بشـخص واحـد أحـد اسـمه بشـير الجميّـل، فـلا يجـوز لـه أن يبلبلهـا، أو يزحزحهـا، أو يخفّـف زخمهـا، أو يلجـم انطلاقهـا الكاسـح والمتصاعـد بترشـيح نفسـه لمنصـب لا يخـرج عـن كونـه «وظيفـة معيّنـة ومحـدودة» مهـما يكـن رفيعًـا، فنتعـرّض لخســارة رصيدنــا الضخــم، رصيــد الفضائــل والمناقــب والإنجــازات العديــدة التــي جمعناهــا بكثــير مــن البطــولات، والمواقــف التاريخيــة، والأعــمال المجيــدة، والصمــود الــذي تجاوزنـا بـه حـدود الأسـاطير. فكيـف يجـوز لنـا أن نطرحـه في مسـتنقع السياسـة التقليديــة، ومــا إليهــا مــن روتــين الإدارة، ومســايرات الأســاطين والســماسرة، وألاعيــب أسـاتذة التطبيــق المشــبوه، ودهاقنــة المســاومة واللــف والــدوران؟

وطرحنا عليه سؤالًا اعتبرناه يكفي وحده لحمله على إعادة النظر في قراره: «كيف تنوي أن تتعامل مع مبدأ ٦ و٦ مكرّر؟

نظر إلينا مبتسمًا.

كانت ابتسامته خليطًا من الوضوح والغموض، مزيجًا من العقاب والإعجاب، تعبيرًا عن ثقته الوطيدة بنفسه وبنا، ثم قال متمهّلًا كأن كلماته تنسلّ من روحه وعقله: «هل ضعف إيمانكم بي؟ هل خامركم شبه ظنّ بأن الرئاسة قد تغيّرني؟ وهل تذبل «القضية» أو تموت بوصولي إلى الرئاسة؟»

واستطرد بعد سكوت قصير: «العكس هو الصحيح! لتحيا القضية، لتتحقّق. لتصبح واقعًا ثابتًا ساطعًا حيًّا، يجب أن نتسلّم الحكم».

خاض انتخابات الرئاسة من دون التأكد من نتائجها، إذ إن بعض النواب الذين سعينا لإقناعهم بالذهاب إلى جلسة الانتخاب باءت بالفشل، وبخاصة النائب محمد يوسف بيضون الذي أوكلني بشير بإقناعه للذهاب، فذهبنا ميشال سماحه وأنا وسعينا من دون جدوى. كما أنه أوكلني بمحاولة إقناع الدكتور ألبير مخيبر بانتخابه، فلم نجده في أي مكان. ولما جرت الانتخابات، ونجح بشير بـ٥٧ صوت من أصل ٦٢، وأصبح رئيسًا، أصرّ على أن يشكر من انتخبه ومن لم ينتخبه، وخاصةً الدكتور ألبير مخيبر الذي قال له: «أشكرك يا حكيم لأنك بغيابك أكدت ديمقراطية الانتخابات».

بعد الهرج والمرج، السكرة والنشوة، اتصل بي مساءً من هاتف سيارته، وكان معه النائب الدكتور جورج سعادة، ودعاني إلى منزله ليسلّمني مهمتي الجديدة معه.

وصلت بعد قليل. إستقبلني على باب المنزل معانقًا. ونظر إلى رفقائه في الداخل، وهم: جورج سعادة، وأنطوان نجم، وجوزيف أبو خليل، وزاهي بستاني، وكريم بقرادوني، وقال لهم وهو يدلّ عليّ: «إن أول تعيين يقوم به فخامة الرئيس هو تعيين Chief of Staff. فهنّأني الجميع على هذه الخطوة ثم ذهبوا في سبيلهم وبقيتُ معه وحدي.

قويًّا كان. فلا عجب إذا أحب الأقوياء.

وليسـت قـوّة العضـلات وحدهـا كانـت تسـتهويه، بـل اهتـمّ بالفكـر، والمعنويـات، والجـرأة الأدبيـة، والثقـة بالنفـس، ومتانـة الأخـلاق. وكـم رأيتـه يبحـث عـن أصحـاب هـذه المزايـا، حتـى إذا عـثر عـلى واحـدٍ منهـم بـادر فـورًا إلى ترقيتـه، والاعتـماد عليـه، وإسـناد المسـؤوليات إليـه، وشـجّعه بمختلـف الوسـائل عـلى العمـل والعطـاء، ووضـع إمكاناتـه ومواهبـه في خدمـة القضيـة اللبنانيـة. وبهـذه الطريقـة كان يغربـل معاونيـه، ويختـار منهـم مستشـاريه.

وكان يحـب السرعـة في كلّ شيء، في التفكـير، والتصميـم، والتحـرّك والإنجـاز، ويُحـذّر مـن إضاعـة الوقـت سـدىً، كأنـه كان يشـعر، في قـرارة عقلـه الباطـن، أن وقتـه محـدود، وأن عليـه أن يعمـل في يـوم مـا يعملـه سـواه في شـهر أو سـنة، وكأنـه عاهـد نفسـه عـلى أن يجعـل كلّ لحظـة مـن حياتـه زاخـرة بالنشـاط، وافـرة النتائـج، يانعـة الثـمار. ومـا كان أشـدّ نفـوره مـن البطيئـين والكسـالى والمترهّلـين.

وعمـلًا بهـذه الخطـة، أو هـذا المـزاج النابـع مـن الطبـع والسـليقة، رأيتـه يـسرع في تعيـين مستشـاريه، وتبديلهـم بـين يـوم وآخـر، وأتذكّـر أكـثر مـن مائـة شـخص تعـاون معهـم، واتخذهـم مستشـارين في موضـوع معـيّن، أو عمـل محـدود، ثـم أقصاهـم عنـه مراعيًـا شـعورهم. ومـن حقّـه عـليّ أن أعـترف بحنكتـه ومرونتـه في هـذا المجـال، إذ اسـتطاع أن يسـتعين بإمكانـات الآخريـن وكفاءاتهـم في الوقـت الـلازم، والفرصة السـانحة، ثـم ينـصرف إلى شـأنٍ آخـر مـن غـير أن يجـرح إحساسًـا أو يمـسّ كرامـة.

ومـن أبـرز أسـاليبه الدالّـة عـلى الفطنـة والخـبرة الواسـعة في فهـم طبـاع النـاس، وإجـادة التعامـل معهـم، أنـه كان شـديد الحـرص عـلى صيانـة مـاء الوجـه، فـإذا أراد إقصـاء مستشـار، رقّـاه إلى مرتبـة أرفـع مـن التـي هـو فيهـا، ولكـن مسـؤوليته في هـذه المرتبـة تكـون مرحليـة ومحـدودة الزمـان والمـكان.

راقبـت هـذا «التـصرف البشـيري» باهتـمام لا يخلـو مـن الفضـول، عـلى شيء مـن الدهشـة، أو التعجّـب، وشـئت يومًـا أن أصارحـه بمـا في نفـسي، فسـجّلت ملاحظـاتي الإيجابيـة والسـلبية عـلى أدائـه عـلى شريـط وأرسـلته إليـه، تحـت عنـوان: «شريـط أبيـض وأسـود».

ولبشير القدرة على تحليل مستشاريه وإدراك أدقّ ما في نفوسهم وفكرهم، وقراءة الخفايا في ملامح الوجوه، وأساليب التعبير، ومعاني الإشارات والحركات، مهما تكن بارعة التمثيل لإظهار غير الحقيقة. فإذا جالس أحدًا مرةً أو مرتين، توغّل في أعماقه، وأدرك كلّ ما فيه، ومنه، وله، كأنه يقرأ في كتاب، أو يرى صورةً ملوّنة.

ولبشير، فوق ذلك قدرة مذهلة، أو سحر ساحر، في اجتذاب الناس، ولا يكتفي بأن يغرس حبّه في قلوبهم، بل يُدخل في يقين كلٍّ واحد منهم أنه هو المفضّل لديه على الآخرين جميعًا. وسمعتُ بعض معاونيه يدّعي أنه يستطيع أن يؤلّف كتابًا ضخمًا عن «الأيام الحلوة» التي أمضاها مع بشير مسترشدًا بتوجيهه، متمتّعا بثقته الكاملة.

لا يخامرني ريب بأن هذه الفراسة المستنيرة بذكاء فطري وعزيمة متوثّبة، جعلت بشير واسع الاطلاع على ما يستطيع أن يستنتج من معاونيه في مختلف حقول النشاط، فإذا به يُعطي كلًا منهم ما يناسب إمكاناته وينسجم مع مواهبه، لا أكثر ولا أقلّ.

عندما أصبحنا وحدنا سألني: «هل تصدّق أني صرت رئيس الجمهورية؟ إحذر أن تناديني: فخامة الرئيس. إن شاء الله سنبني لأطفالنا وطنًا جميلًا وهانئًا وسعيدًا».

تحدّثنا طوال ساعة عن كلّ شيء.

أحسسنا الكون مسرحًا لآلامنا. حسبنا القدر خادمًا يخضع لأمرنا، صار المستحيل لعبة طيّعة بين أيدينا. ضاقت بنا الدنيا... شعرنا بأننا أكبر منها حجمًا وأبعد منها مدىً.

وفي نهاية هذا المطاف المرفرف في أجواء الحبور، المحلّق في أعالي الهناء والثقة بالنفس، والنظرة الصقرية إلى المستقبل، تلك النظرة التي يتضاءل دونها التفاؤل في أبعد معانيه قال لي: «جورج! إيّاك أن تترك الجامعة الأميركية. إبقَ فيها. لك بها ارتباط لا يجوز أن يتزعزع. أنت رَبّ عائلة. لا أريد أن يخترب بيتك».

وصمت صمتًا رهيبًا، كأن فكره تجاوز الزمان إلى أيام آتية لا يراها إلا الملهمون، ثم استطرد: «قد يُسَوِّحوني»!

خرجت هاتان الكلمات من بين شفتيه وفيهما ما يشبه انفجار القنبلة.

إنهما لترنّان في سمعي حتى اليوم، بل هما مستقرّتان في قلبي، مدويتان في وجداني، ترافقان كل ثانية من حياتي...

لماذا قالهما؟

أتراه قرأ مصيره في عالم الغيب؟

هل سبق ما هو مقدّر له منذ انتخابه رئيسًا؟

هل تأثّر بما قيل له عن محاولات قتله.

يُخّيل إليّ الآن، وأنا أخطّ هذه الكلمات بكلّ ما أملك من القدرة على التعبير، أن كلمتيه ما تزالان موجهتين إليّ من الآخرة، من المكان الذي ذهب بشير إليه...

ليس الجسد وحده معرّض للأسر.

الروح أيضًا تؤسر.

وروحي هي الآن، وستبقى ما حييت، أسيرة تينك الكلمتين، كأن بشير أرادني أن أظلّ مشدودًا إليه حتى بعد رحيله.

سألته عن مصير رفاقنا في عهده، فأجاب: «هم أحبّائي خدّموني بإخلاص، وسيبقون أحبّائي، لكن يا جورج نحن في صدد تأسيس دولة. سنختار الأصلح لكلّ من المواقع في الحكومة والدولة. إجمع أسماء معارفنا الكفوئين وسننتقي منهم، وأقصِ من تشاء إذا اعتبرته غير صالح أو غير مناسب. ولا يخفي عليك أن بين المتعاونين معي أشخاصًا اقتصر عملهم على موضوع معيّن ومحدود هو انتخاب الرئاسة. وهذا لا يعني أني مدين لهم، وأن من واجبي أن أبقيهم إلى جانبي إلى أبد الآبدين. إني مدين بالفوز الذي أحرزته لإثنين فقط: أبي والياس سركيس. ولكامل الأسعد أيضًا فضل في هذا الشأن من الناحية الماديّة».

وفي معرض الحديث عن استعدادته لمرحلة الحكم، تطرّق إلى التشكيلة الحكومية التي كان يفكّر بها وبخاصة قدرتها على مواكبة ما كان يرمي إليه لإخراج جميع الجيوش الغريبة عن أرض لبنان. ومما قاله في ذلك اليوم: «في ذهني بعض الأسماء لرئاسة الحكومة وإني أتردد بين سليمان العلي وعثمان الدنا ولكن أميل إلى العلي لأنه أكثر مرونة، ولأنه جاء مع كتلة نواب عكار متجاوزًا مختلف العقبات والمحاذير، وانتخبوني على الرغم من كلّ إنذار وتهديد. كما أفكّر بعلياء الصلح وعبد الحميد الأحدب الذي سأعيّنه وزيرًا للعدل وربما رئيسًا للحكومة إذا لم يتوفّق سليمان العلي أو عثمان الدنا، ومن الموارنة أفكّر بجورج افرام لحقيبة الصناعة، ومن الكاثوليك وعدتُ فؤاد سعيد حدّاد، بوزارة التربية وطلبتُ إليه أن يجتمع بسفير أميركا. إن الأسماء الأخرى نبحث فيها لاحقًا. أريدك أن تجتمع بفيليب حبيب Chief of Staff لريغان، واستفد من خبرته في هذا المنصب».

أما أنطوان نجم وكان بشير يحبّه ويحترمه، فغصنا بموضوعه طويلًا وأقنعته أن المديرية العامة للقصر الجمهوري تليق به.

ومما قاله بشير لي في هذه الجلسة التاريخية: «ماذا سنفعل بعسكر القوات، عددهم بالآلاف. هل نضمّهم إلى ميليشيا الكتائب؟ إنهم خيرة الشباب». أجبته: «ضمّهم إلى الحرس جمهوري، ولو كان عددهم كبيرًا. هم سيكونون ضمانة لك وللبنان». إستساغ هذه الفكرة وقال: «ربما هذا ما سأفعله».

في اليوم التالي، اجتمعت بفيليب حبيب، وردًا على تساؤلاتي عما يجب أن أقوم به، قال: «إنصح رئيسك بألا يُدلي بتصريح لا فائدة له، وألا يقوم بعمل لا فائدة له».

خصصتُ مكتبًا لي في المجلس الحربي. وبدأت أضع برنامج العمل.

وأخذت أتردد، من حين إلى آخر، إلى القصر الجمهوري في بعبدا لإنجاز الأمور الرسمية، أو لاستقبال شخصيات وطنية وأجنبية.

ما أحبّ بشير القصر الجمهوري. طلب إلى موني عرب تغيير ملامحه كلّها. وكان يسائل نفسه: «كيف أستطيع تمضية ولايتي كلها في هكذا قصر؟»



زيارة سمير جعجع للهيئة الشعبية ١٩٨٦.

افتتاح المكتب المركزي للهيئة الشعبية ١٩٨١.

زيارة البطريرك صفير في بكركي ١٩٨٦.

إجتماع تنسيق لوزارة الاقتصاد والهيئة الشعبية بحضور الوزير فكتور قصير عام ١٩٨٦.

شهادات مسعفي الهيئة الشعبية للتزلج في فقرا ١٩٨٨.

قاعة بشير الجميّل في نادي أبناء نبتون ١٩٨٦.

سفير إيطاليا مكرّمًا فكتور حداد وجورج فريحه ١٩٨٢.

نهائي دورة برمانا الدولية بحضور الرئيس كميل شمعون ١٩٦٩.

مؤتمر صحافي للشخصيّات الرياضية طالبة بإنشاء وزارة الشباب والرياضة ١٩٨٣.

بعد انتخاب بشير وفوزه برئاسة الجمهورية.

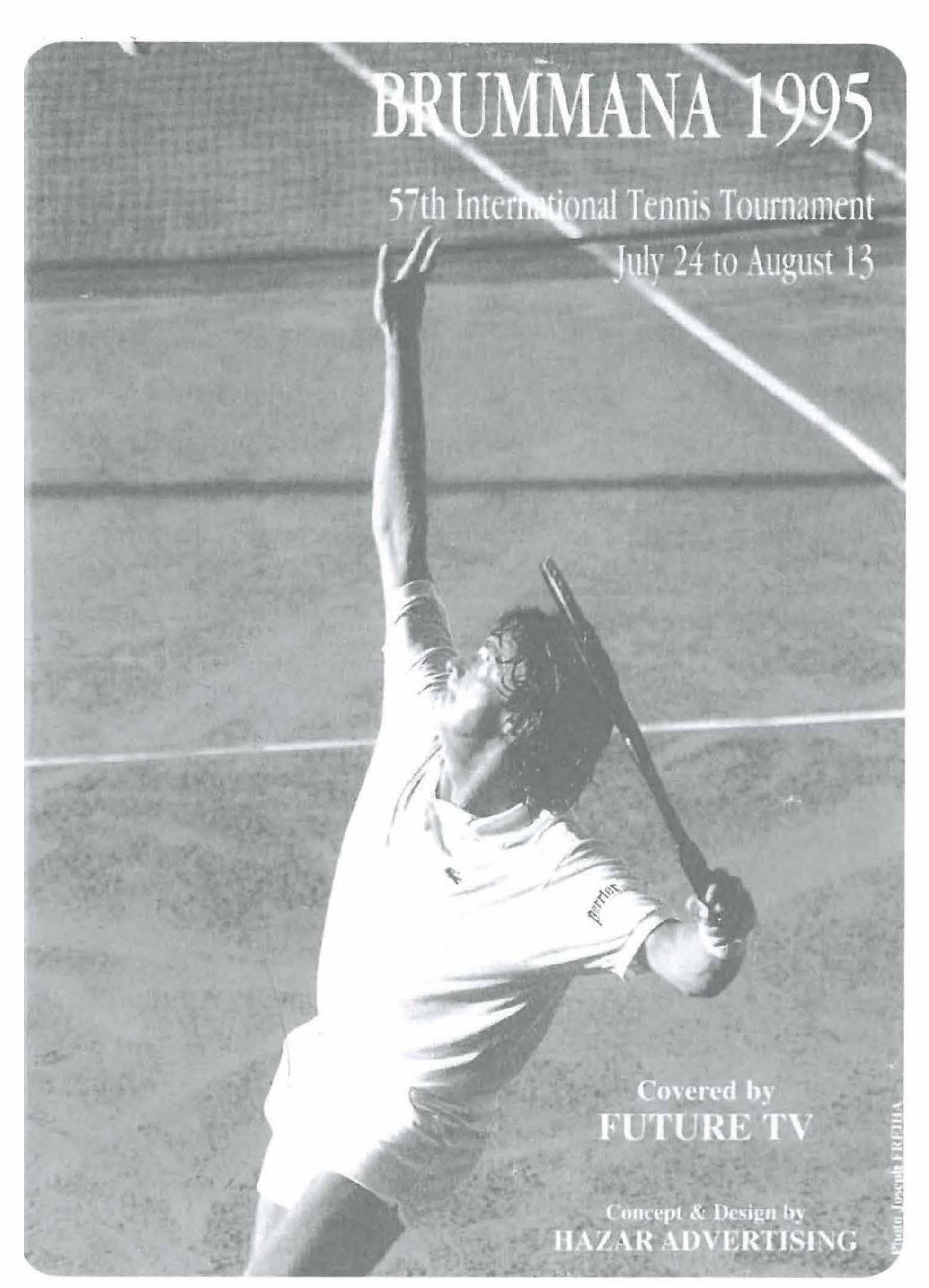


بشير الرئيس يستعرض الحرس الجمهوري.

نهائي دورة برمانا الدولية بحضور الشيخ أمين الجميّل وفؤاد لحّود وميشال ساسين.



نهائي دورة برمانا الدوليّة ١٩٩٤ بحضور الرئيس الياس الهراوي.



نهائي دورة برمانا الدولية ١٩٩٥ مع اللاعب الدولي هنري لو كونت.

الفصل الحادي عشر:

تهيّب العلاقة مع حزب الكتائب

في تلك السهرة الطويلة التي أمضيتها مع بشير، بعد ستة أيام من انتخابه، بحثنا في أمر بدا له على مستوى كبير من الأهمية وهو شكل علاقته بحزب الكتائب بعد تولّيه رئاسة الجمهورية. ففي كنف هذا الحزب الذي أسسه والده، ويرئسه، وشاهد انطلاقته وأعطاه الدعم لينطلق في مسار تحقيق مصيره، ولدت ظاهرته التي تخطّت في نهاية المطاف حدود الحزب.

ذلك المساء، أعطاني نسخة عن مذكّرةٍ مهمة عن حزب الكتائب اللبنانية متعلّقة بمكونات الحزب وإنجازاته وتطوّره مع الزمن، وقال لي: «إقرأها جيدًا وأعطِني رأيك فيها. أنا أصبحت رئيس دولة لبنان وحزب الكتائب أصبح مع مرور السنين دولة ضمن دولة. فما العمل مع هذا الحزب العظيم الذي نشأتُ وترعرعتُ في كنفه؟»

كانت العلاقة المستقبلية مع حزب الكتائب بالفعل استحقاقًا يستوجب الكثير من التفكير من جانب الرئيس الخارج من حزب الكتائب. فهو حسم فورًا وبسهولة علاقة شباب القوات بالعهد الجديد الذي كان مزمعًا أن يبدأه، فيما لو قُدّر له أن يحكم، على قاعدة «الرجل المناسب في المكان المناسب له» التي كررها على مسمعي في تلك الليلة. غير أن العلاقة مع حزب الكتائب لم تكن لتكون بالسهولة نفسها، باعتبار أن هذا الحزب كبير ومتشعّب ولا يدين له بالولاء بالكامل.

لم تسمح لنا الظروف ولا الوقت القصير الذي عاشه بشير كرئيس لأنّ نبحث بموضوع الكتائب. لذلك سأنشر مضمون المذكرة التاريخية لحزب الكتائب من دون التعليق عليها.

مراحل التنظيم الأمني والعسكري في حزب الكتائب اللبنانية

واجه حزب الكتائب اللبنانية ثورة ١٩٥٨ بثورة مضادّة أسفرت عن النتائج التي يعرفها الجميع. وعلى أثر هاتين الثورتين، تحوّلت منظّمة الشباب الكتائبية فرقًا عسكرية نظاميّة عُرفت آنذاك بإِسم «القوى النظامية».

بعد حوادث ١٩٥٨، أنشأ الحزب ثلاث فرق عسكريّة اتخذت لدى تخريجها أسماء ثلاثة من شهداء الحزب في معارك ١٩٥٨. وقد أُجريت مراسم التخريج في ٢٤ نوار، في البيت المركزي، فسمّيت الفرقة الأولى بإِسم الشهيد قيصر الحلو، والثانية بإِسم الشهيد رياض محمود طرّاف، والثالثة باسم الشهيد فؤاد حداد (أبو الحن).

وتولّى قيادة هذه الفرق إيلي محفوظ، مفوّض بيروت آنذاك، وإدوار محفوظ مفوّض الأشرفية، في الوقت نفسه. وتميّزت هذه الفرق الثلاث عن القوى النظاميّة العاديّة، فعُرفت «بالميليشيا الكتائبية».

وفي العام ١٩٦٨، أنشأ بطرس الخوند أولى فرق الكومندوس في الحزب. وكانت تتألّف من فصيلتين، الأولى برئاسة الشهيد جورج فرح، والثانية برئاسة سامي خويري، فيما تولّى بطرس الخوند قيادة الفصيلتين. وقد خاضت هذه الفرق معركتها الأولى في الدكوانة - تل الزعتر عام ١٩٦٩، في شهر نيسان، وأسبوع الجمعة العظيمة. وقد حوصر آنذاك بيت الكتائب في الدكوانة، وكان فيه رئيس إقليم المتن المرحوم موريس الجميّل. ووقعت هذه الحادثة على أثر معركة الكحّالة، ثم خطف الشيخ بشير الجميّل، فيما كان آتيًا من الكحّالة إلى الدكوانة.

وأُنشئت فرقة الصخرة سنة ١٩٦٨، برئاسة فؤاد الشرتوني. وعام ١٩٧٠ حصلت على موافقة رسمية من الرئيس الأعلى. وكانت هذه الفرقة تتولّى حماية الرئيس الأعلى، ومواكبته وحراسة بيته. وقد خاضت أولى معاركها في الكحّالة عام ١٩٦٩، يوم الأربعاء، عيد الفصح، فكبحت تجاوزات الفلسطينيين، وكبّدتهم ١٧ قتيلًا، ثم خاضت معركة الناصرة - الدّباس، في اليوم التالي - الخميس. ويوم الجمعة العظيمة، أي في اليوم الثالث، خاضت معركة سن الفيل - حرش تابت، وعُهِدَ إليها بتطويق المخيّم الفلسطيني من جهة المكّلس، فضلًا عن مساندة فرق الكومندوس. وظلّت منذ العام ١٩٧٥ مرابطة على جبهة القتال وخطوط التماس في بيروت، من جسر فؤاد شهاب حتى السوديكو.

أنشئت سرّية الطلاّب عام ١٩٧٠، وتولّى رئاستها أنطوان بعقليني. وقامت بعمليّات ردع بعض التظاهرات والإضرابات التي نظّمها طلاب معادون للكتائب وللبنان. وفيما بعد، تطّورت هذه الفرقة، وأُلحِقَت بها عناصر كتائبية برئاسة فادي خويري، وسُميّت «ب.ج»، ولم تكن أصبحت رسمية بعد، وذلك عام ١٩٧٣.

وأنشئت فرقة «ب.ج»، رسميًّا عام ١٩٧٥، مع بدء الأحداث، برئاسة سامي خويري. وكان يشرف على تدريبها شقيقه فادي، ثم تولّى قيادتها جورج فوريدس. وقد خاضت معارك عدّة على مختلف الجبهات، وتميّزت، على الأخصّ، بحماية البيت المركزي، ومعارك الفنادق والأسواق وفي الجبل. واكتسبت شهرةً مرموقة في خلال حرب السنتين.

تولىّ قيادة فرقة كومندوس الرميل حبيب أبو جوده، مفوّض الرميل آنذاك، ثم التحق به سامي خويري، بعد أن تسلّم منه جورج فوريدس قيادة «ب.ج.». وقد أنشئت هذه الفرقة في منتصف العام ١٩٧٥، واشتركت في معركة النبعة – البدوي – الكرنتينا – الفنادق - الأسواق التجاريّة، وخصوصًا معركة هايكزيان الشهيرة.

أنشئت فرقة المغاوير عام ١٩٧٧، وكانت تكملةً لفرقة «ب.ج.». فتولّى رئاستها جو إدّه، ثم إبراهيم ضاهر، وخلفه إبراهيم حدّاد. وبعدها بعهدة يوسف بعقليني. وقد خاضت معارك كلّ لبنان، وأهمها ثلاث: معركة الأشرفية وبيرتي خلال حرب المئة يوم، في مواجهة السوريين، ومعركة قنات الشهيرة، ومعركة زحلة التاريخية عام ١٩٨١.

أنشِئَت الشرطة الكتائبية في الأربعينات. أسّسها المرحوم الشيخ موريس الجميّل، وتولّى رئاستها جورج سليمان، ثم الشهيد أسعد كحالة. وسنة ١٩٧٦ تسلّمها الشيخ بشير الجميّل بالوكالة. وبعد تأسيس المجلس الحربي، انتقلت قيادتها إلى ديب انستاز عام ١٩٧٧. وكانت تتولّى حماية البيت المركزي، ومواكبة الرئيس الأعلى، وتنظيم المهرجانات والتظاهرات الحزبيّة. وقد اشتركت فعلًا في ثورة ١٩٥٨، وصدّت هجمات «المقاومة الشعّبية الناصريّة» قرب البيت المركزي، وفي ساحة الشهداء والمناطق الأخرى. ولما عُهد بقيادتها إلى أنستاز عام ١٩٧٧، بدأت تمارس صلاحيّات الشرطة بردع المخالفين ومعاقبة المجرمين والمتطاولين على أمن المجتمع المسيحي.

«طـوارئ بـيروت»، كان يـشرف عليهـا ويتـولّى قيادتهـا عـام ١٩٧٦ مفـوّض بـيروت جـورج شـعنين، فيـما كان رئيسـها العسـكري أنطـوان خوراسـنجيان. وقـد اشـتركت في معـارك الأسـواق والجبـل: صاليـما – الكحالـة – عاريـا – كفرشـيما – بـدادون - عيـون السـيمان - شـكّا. وسـنة ١٩٧٨، خاضـت معـارك الأشرفيـة – التعاونيـة – الجسـور - الأسـواق، وخصوصًـا معركـة بـدادون، ثـم معركـة إهـدن الشـهيرة، والبـدوي (الأحـرار). وكان السـوريّون قـد ركّـزوا قواهـم عـلى منطقـة الجسـور لفصـل العاصمـة بـيروت عـن الجبـل.

في ١٣ نيسـان ١٩٧٥، بـدأ القتـال في عـين الرمّانـة، عـلى أثـر استشـهاد مفـوّض فـرن الشـباك جـوزف أبـو عـاصي. ولمـا مـرّت سـيارة البـاص تنقـل فلسـطينيين، أطلقـت عليهـا النـيران، فقُتِـل القسـم الأكـبر مـن ركّابهـا، واسـتُنْفِرتْ القـوى النظاميّـة في معظمهـا. وفي المسـاء احتـدم القتـال في مختلـف الجبهـات عـلى الوجـه التـالي:

*__جبهـة عـين الرمّانـة – الشّـياح:__ تـولّى القيـادة فيهـا آنـذاك الشـهيد إميـل غنطـوس. وبعـد استشـهاده، خلفـه مسـؤولون عديـدون هـم، عـلى التـوالي: كميـل حرفـوش، جـان حـرب، جـورج مزرعـاني، ناجي بطرس، جوزف الأسـمر، إيـلي أبي عكر، وأنطـوان أبو جوده.

*__جبهـة الحـدث - المريجـة:__ فُتِحـت عـام ١٩٧٥، ومـا تـزال حتـى اليـوم. كان قائدهـا لويـس كـرم، وتـلاه أبـو نبيـل، ثـم طـوني كـرم. وسـاهم فيهـا بعـض قـادة الثكنـات المركزيـة.

*__جبهة بدادون ١٩٧٥ مع القماطيّة:__ كان قائدها الشهيد ميشال حويّك.

*__جبهـة الكحّالة-عاريّا:__ تولّـت الأشراف عليهـا ثكنـة الكتيبـة الأولى - المـتن الجنـوبي، بقيـادة لويـس كـرم.

*__جبهــة كفرشــيما:__ منــذ ١٩٧٥ تــولّى قيادتهــا رئيــس القســم أنطــوان مخلــوف، بــإشراف القيــادة المركزيــة ومســاعدتها.

*__جبهــة جــسر الباشــا:__ نشــأت في ١٣ نيســان ١٩٧٥، وكان قائدهــا ســمير أبي نــادر، بــإشراف مفـوّض جبـل لبنـان آنـذاك بطـرس خونـد وقيادتـه. وهـو الـذي شـنّ هجـوم تحريـر هـذا الجـسر في ٩ حزيـران ١٩٧٦.

***جبهة الدكوانة - تل الزعتر:** إشتعلت في ١٣ نيسان ١٩٧٥. وتوالى على قيادتها مسؤولون عديدون، أبرزهم الشهيد كرم صدقة. وقد أشرف عليها، وتولّى قيادة تحركات المقاتلين فيها مفوّض جبل لبنان في ذلك الحين بطرس خوند، بالتعاون مع رئيس مجلس الأمن الشهيد وليم حاوي. وأسفر القتال عن تحرير هذا القطاع في شهر آب ١٩٧٦، بعد قتالٍ ضارٍ استغرق أربعين يومًا. وكانت جبهات تلّ الزعتر عديدة، تمتّد من المنصورية إلى المكّلس، فحرش تابت، فسنّ الفيل، فالدكوانة، فالفنار.

***جبهة سن الفيل - النبعة:** بدأت في ١٣ نيسان ١٩٧٥. وكانت منطقة النبعة امتدادًا للكرنتينا، وهمزة وصل بينها وبين البدوي وتلّ الزعتر، وجسر الباشا. ومن أهم جبهاتها: سنّ الفيل، الأشرفية، الرميل، برج حمّود، الدورة. وقد تمّ تحرير هذه القطاعات في ٦ آب ١٩٧٦. وساهم في عملية التحرير هذه إقليم المتن الشمالي، قسم سن الفيل، وبرج حمّود، والدورة، فضلًا عن منطقتي الأشرفية والرميل.

***جبهة البدوي:** بدأت صيف ١٩٧٥. وكانت هذه المنطقة أيضًا امتدادًا للكرنتينا - النبعة - تلّ الزعتر. والغاية من الترابط بين هذه الأقسام هي ربط الجسور فيما بينها وبالمخيّمات الفلسطينيّة، وعزل بيروت عن الجبل المسيحي. وكانت قيادة هذه الجبهة منوطة بمنطقة الرميل - الأشرفية، ومن أبرز المسؤولين الذين ساهموا في تحريرها الشهيد فرج عبيد، في تشرين الأول ١٩٧٥.

***جبهة الكرنتينا (معركة الجسور):** بدأت في ١٣ نيسان ١٩٧٥،الساعة ٩:٤٥ مساءً. وكان قائدها مفوّض منطقة المدوّر في ذلك الحين جورج شعنين، يساعده القسم الأول من منطقة الرميل المشرف على جسر الكرنتينا، ابتداءً من مدخله الشمالي. وفي ١٧ نيسان ١٩٧٥، شُنّ هجوم اقتحام بقيادة فرج عبيد وجورج شعنين كاد يُكلّل بالنجاح، لو لم يحصل تدخّل سياسي تراجع المهاجمون على أثره، بعد أن كانوا قد احتلّوا مساحة واسعة. وقد أُعلن آنذاك وقف إطلاق النار. وهذه هي الجولة الأولى في حرب السنتين. وقد اشتهرت فيها هذه الجبهة، وعُرفت بـ «معركة الجسور» بالنظر إلى موقعها الجغرافي الذي يربط العاصمة بالجبل. وقد تمّ تحرير الكرنتينا في ١٩ كانون الثاني ١٩٧٦، بعد معارك ضارية استغرقت ثلاثة أيام، واشتركت فيها مناطق المدوّر، الرميل، الأشرفية، «ب.ج.»، المتن الشمالي، من

الجهـة الشـمالية. وكان يتـولّى القيـادة فيهـا فـرج عبيـد، وسـامي خويـري، وحبيـب أبـو جـوده، وجـورج شـعنين. وأشرف عـلى العمليـة كلّهـا وتـولّى قيادتهـا العامـة الشـيخ بشـير الجميّـل.

***جبهـة الضبيّـة:** بـدأت عـام ١٩٧٥ بـإشراف مفـوّض المـتن الشـمالي وقيـادة الشـهيد كـرم صدقـة الـذي حـرّر المخيّـم، يعاونـه جـورج رشـوان، مفـوّض كـسروان آنـذاك، وذلـك في نهايـة العـام ١٩٧٥.

***جبهـة حـارة الغوارنـة:** بـدأت عـام ١٩٧٥، وتـمّ التحريـر في العـام نفسـه بقيـادة كـرم صدقـة.

***جبهـة كمـب رحّـال:** بـدأت عـام ١٩٧٥، وتـمّ تحريرهـا آخـر العـام نفسـه عـلى يـد قيـادة منطقـة الأشرفيـة التـي كان يتوّلاهـا الشـهيد طنّـوس بـيروتي، وقسـم فـرن الشـباك بقيـادة الشـهيد كميـل هرمـوش.

***جبهـة الفنـادق:** تـوالى عـلى قيـادة المقاطعـة الرابعـة منهـا مسـؤولون عديـدون ومفوضـون مـن قبـل القـوى النظاميـة. بـدأت في ١٣ نيسـان ١٩٧٥. وقـد سـقطت المنطقـة عسـكريًّا وهُجِّـر أهلهـا في كانـون الثـاني ١٩٧٦، بعـد مـرور أسـبوعين عـلى تحريـر الكرنتينـا. وأول مسـؤول فيهـا كان بـول شربـل، وخلفـه نخلـه حجـار، ثـم انتقلت المسـؤولية إلى قياديـين مـن المناطـق والأقاليـم، أبرزهـم: سـامي خـوري، حبيـب أبـو جـوده، فـرج عبيـد، كميـل هرمـوش، جـورج شـعنين، جـورج فوريـدس.

***جبهـة الأسـواق:** تركّـزت معالمهـا بعـد سـقوط منطقـة الفنـادق في كانـون الثـاني ١٩٧٦. وتـوالى عـلى قيادتهـا مسـؤولون عديـدون. وكانـت تمتـدّ مـن المرفأ إلى المتحـف وهـي مقسّـمة عسـكريًا عـلى الوجـه التـالي:

- المرفأ - دائرة السير، تولّى الإشراف عليها كمال المرّ (الأشرفية).

- فتـال – القناطـر – الجامـع - أوتيـل ريجنـت، تـوالى عـلى تسلّـمها مندوبـون مـن مناطـق وأقسـام عديـدة، أبرزهـا منطقـة الرميـل، وطـوارئ بـيروت، والباشـورة (نـزار نجاريـان).

- بناية الباطون، تسلّمتها جوسلين خويري، وهي من النظاميّات.

*جبهـة الصيفـي: تمتـدّ مـن الأسـواق العموميّـة إلى دائـرة المباحـث فالأمبـير، فبنايـة سرسـق، فالبيغـال، فحّـي التينـة، فكنيسـة الأرمـن. تسـلّمها مفـوّض الصيفـي آنـذاك جـورج الجليـل، وتـلاه ميشـال عبرينـي، فنائـب مفـوّض بـيروت جـورج شـعنين بالوكالـة، حتـى عُـيّن أبـو يوسـف (وليـم نعـمان). وأخـيراً عُـيّن سـيمون تيّـان. ويـشرف عـلى هـذه المنطقـة، منـذ العـام ١٩٧٥ رئيـس منطقـة الصيفـي شـاكر عـون.

*جبهـة التباريـس: منـذ ١٣ نيسـان ١٩٧٥، كانـت باسـتلام منطقـة الرميـل حينًـا، ومنطقة الأشرفيـة (القسـم العـاشر) حينًـا آخـر. وأوّل مـن تـولّى القيـادة عـلى هـذه الجبهـة هـو شـارل حـصري الملقّـب خريسـتو.

*جبهـة الصخـرة: تمتـدّ مـن منـزل الرئيـس الأعـلى حتـى السـوديكو. وقـد تسـلّمتها فرقـة الصخـرة بقيـادة فـؤاد الشرتوني.

*جبهـة السـوديكو - البرجـاوي - الليسـيه - المتحـف: تسـلّمتها منطقـة الأشرفيـة، وتـوالى عـلى قيادتهـا الشـهيد طنّـوس بـيروتي، وكـمال المـرّ، وميشـال جبّـور، وسـليم جلـخ، ومـارون تابـت.

*جبهـة بـيروت - الأسـواق: كانـت ومـا تـزال تابعـة لمفوضيّـة بـيروت. وقـد تـولّى قيادتها، منـذ العـام ١٩٧٥ جـورج شـعنين ثـمّ أنشـئت مجموعـة عسـكريّة دعيـت «طـوارئ عمليّـات» ثـمّ «طـوارئ بـيروت»، وتـولّى رئاسـتها أنطـوان خوراسـنجيان، وكانـت مهّمتهـا دعـم مختلـف النقـاط والفـرق عـلى طـول امتـداد الجبهـة، ثـم عُـيّن مفـوّض بـيروت كـمال المـرّ، وتـلاه مسـعود الأشـقر، فجـوزف جبيـلي. وقد أنشـأ مسـعود الأشـقر، وحدات دفـاع بـيروت ١٩٨١، وكان رئيسًـا لهـا، وتوّلاهـا بعـده جـوزف الزايـك في ٣١ تشريـن الأول ١٩٨١. وفي نيسـان ١٩٧٨، نشـبت معركـة بـدارو لمّـا تحـرك السـوريّون لدخـول هـذا الشـارع واحتلالـه مـن جهـة الطيّونـة. وقـد عُهـد آنـذاك إلى مفـوّض بـيروت جـورج شـعنين بالتصـدّي للمهاجمـين وردعهـم بالقـوّة. وصـدر الأمـر بهـذا الشـأن مـن القائـد العـام الشـيخ بشـير الجميّـل، فنشـبت معركـة ضاريـة في بـدارو، واشـتركت فيهـا طـوارئ بـيروت، مـع قسـم بـدارو وقسـم فـرن الشـباك. فصُـدَّ الجيـش السـوري وعجـز عـن دخـول بـدارو، ثـمّ أعلـن وقـف إطـلاق النـار، واتخـذ قـرار بإحـلال الجيـش السـعودي محـل السـوريين عـلى جبهـة الطيونـة - بـدارو - عـين الرمانـة - غالـيري سـمعان.

توالي المعارك واحتدام القتال

في أول تموز ١٩٧٨ احتدم القتال من جديد على جبهة بيروت - الأسواق، على أثر المعركة التي خاضتها الكتائب ضد الجيش السوري، وعُرفت بِاسم «حرب المئة يوم».

تسلّمت جبهة الأسواق آنذاك مجموعة «طوارئ بيروت» لتفرغ المناطق والأقسام، فتسهل عليها مقاتلة السوريين في الداخل. وأهمّ مراحل هذا الصراع معركة بيرتي، وقد خاضتها المغاوير بقيادة جو إدّه، ثم معركة الجسور - الكرنتينا.

(منطقة المدور مع «طوارئ بيروت») وقد استشهد فيها عدد لا يُستهان به من المسؤولين، أبرزهم الشهيد الصيدلي ميشال بيرتي، ثم معركة التعاونيّة، وأبطالها المغاوير و«طوارئ بيروت»، ومنطقة المدوّر.

خلال هذه المعارك، كان بطرس خوند، المفوّض العام للقوى النظاميّة آنذاك يشرف على العمليّات ويتولّى قيادة المقاتلين مع إيلي حبيقة الذي كان رئيس الشعبة الثالثة في ذلك الحين.

وكانت معركة بلاّ في الشمال، عام ١٩٧٦، بداية مقاومة الاحتلال السوري. وكان قائدها جوزف جعجع. واشتركت في القتال عناصر الشمال بقيادة سمير جعجع، وعناصر من ثكنة S.K.S التي كان يتولّى قيادتها ريمون أصايان.

ونشبت معركة قنات ضدّ الاحتلال السوري، فكان قائدها سمير جعجع. وقد تميّزت بإحراز أوّل انتصار كتائبي على السوريين. وأبرز من ساهم في القتال إلى جانب كتائب الشمال، عناصر المغاوير بقيادة إبراهيم ضاهر، فضلًا عن ثكنة أدونيس، بقيادة نزار نجاريان.

أما معركة شكّا، في صيف ١٩٧٦، فقد تولّى عمليّاتها الشيخ أمين الجميّل. واشترك فيها جميع القياديين والمقاتلين الكتائبيين، إنْ من بيروت أو من الجبل والشمال. والسلاح الذي كان أوفر جدوى في إحراز النصر، وصدّ العدو، والتمكّن من احتلال المنطقة والوصول إلى تخوم الكورة هو المدفعية التي كان يتولّى قيادتها طنّوس قرداحي.

وتـولّى قيـادة معركـة صليـما، عـام ١٩٧٦ الشـيخ بشـير الجميّـل نفسـه. واشـترك فيهـا عـدد مـن الفـرق والقـوى النظاميّـة في المـتن الشـمالي، ومنطقـة الرميـل، و«طـوارئ بـيروت»، وثكنـة .S.K.S. وأبـرز الذيـن نفّـذوا العمليّـات العسـكريّة فرقـة «ب.ج.» بقيـادة مـارون مشـعلاني.

بـدأت معركـة زحلـة في ٢ نيسـان ١٩٨١. وكان قائدهـا جـو إدّه، تسـانده مجموعـة كبـيرة مـن المغاويـر، ويسـاعده اليـاس الزايـك. وقـد انتهـت في تمّـوز مـن العـام نفسـه. وكان أبـرز الذيـن نفّـذوا عمليّاتهـا مجموعـة حنّـا عتيـق إلى جانـب عنـاصر مـن ثكنـة أدونيـس، وإبراهيـم حـداد إلى جانـب عنـاصر مـن المغاويـر. واشـتهرت هـذه المعركـة باسـم «معركـة التـلال» وكانـت أشرس قتـال عُـرف حتـى ذلـك الحـين. وقـد خاضتـه القـوّى النظاميّـة ضـد جيـش منظـمّ ومجهّـز أفضـل تجهيـز عديـدًا وعتـادًا، ويسـانده سـلاح الجـو.

أسلحة مجلس الأمن الكتائبي

كان مجلس الأمن الكتائبي يملك، في هذا الصراع، سبعة أسلحة هي:

١. المدفعيّـة: أنشـئت عـام ١٩٧٦. وتـولّى القيـادة فيهـا عـلى التـوالي: طنّـوس قرداحـي، أنطـوان بريـدي، ديمـتري نعـمان، إيـلي طنّـوس.

٢. المدرّعـات: أنشـئت عـام ١٩٧٦ أيضًـا، وتـولّى قيادتهـا تباعًـا بيـار جورجيـو، جـوزف اليـاس، أوغسـتان تاغـو، نعمـة اللـه القاعـي، طـوني فوتـس.

٣. الطـيران: أنشـئ عـام ١٩٧٦، وتـولّى قيادتـه عـلى التـوالي جـو قصـير فالشـهيد جـورج زعتر.

٤. الإشـارة: أنشـئت عـام ١٩٧٦، وتـولّى قيادتهـا تباعًـا فايـق شـهاب، شـادي بسـتاني، إيميـه جـبر، نبيـل الجمـل، ريمـون صومـا، غسـان نـدّاف، جـاك خـير اللـه.

٥. البحريّـة: أنشـئت عـام ١٩٧٦. وتـولّى قيادتهـا تباعًـا أنـدره حـدّاد، روجيـه داغـر، ألكسـندر أنانـوف، فـادي الزغبـي، جـوزف غريّـب، طـوني الزغبـي.

٦. الهندسة: أنشئت عام ١٩٧٦. تولّى قيادتها تباعًا ميشال روفايل، فادي افرام، جاك منش، جورج عجمي.

المكاتب والشعب التابعة لمجلس الأمن

أما المكاتب والشعب التابعة لمجلس الأمن الكتائبي فكانت خمسة، وهي:

١. **الشعبة الأولى:** تتألّف من المكتب الإداري، وأمانة السرّ التي أنشئت عام ١٩٧٦. وقد تولّى مسؤوليتها تباعًا إيلي غسطين، نبيل أبو متري، ريمون صوما، ريمون أصايان، حنّا حكيم. وتجدر الملاحظة هنا أن أمانة السر فُصِلت عن الشعبة الأولى بأمر من رئيس مجلس الأمن بطرس الخوند، وأسندت إلى أنيس أنطون. أما الشعبة الأولى، فأول من تولّى قيادتها هو ديب أنستاز في بناية سوكومكس.

٢. **الشعبة الثانية:** أنشئت عام ١٩٧٦. تولّى قيادتها تباعًا جوني عبده، ألفرد ماضي، فادي افرام، غبريال توتونجي، إيلي حبيقة.

٣. **الشعبة الثالثة:** أنشئت عام ١٩٧٦. تولّى قيادتها تباعًا فؤاد روكز، روبير عنيد، إيلي حبيقة، فؤاد أبو ناضر، أسعد سعيد، مسعود الأشقر، ريمون سعاده.

٤. **الشعبية الرابعة:** أنشئت عام ١٩٧٦. تولّى قيادتها على التوالي جوزف سعاده، مارون غزال، سامي نصّار، ريمون أصايان، ريمون عرب (من القوات اللبنانية) حبيب خوري، رجا مرقده، جاك سونيكيان، جورج جبور.

٥. **الشعبة الخامسة:** أنشئت عام ١٩٧٦. تولّى قيادتها تباعًا إيلي قرداحي، نعوم فرح، عفيف ملكون، إيلي خيّاط، أنطوان جلوان.

كانت هذه الشُعَب تُعرف بالنظام في مجلس الأمن. فالأولى هي المكتب الإداري، والثانية تضطلع بالأمن والاستخبارات، والثالثة تهتم بالعمليّات والتدريب، والرابعة تعمل في التجهيز والتموين والمواصلات، والخامسة للتوجيه والإعلام.

وهناك ثلاث وحدات كانت تابعة لمجلس الأمن من غير أن تُلحظ في النظام، وهي:

١. **سلاح المشاة:** أنشئ عام ١٩٨٢. وتولّى قيادته تباعًا الياس الزايك، جورج قزّي، جوزف الأسمر.

١. **الشرطة العسكرية:** أنشئت عام ١٩٨١. تولّى قيادتها تباعًا ريمون أصايان، جورج شعنين، جيلبير غسطين، أنطوان سماحه، إيلي لوقا.

١. **وحدات الإسعاف:** أنشئت عام ١٩٨١. تولّى قيادتها الدكتور بول الجميّل.

المفوضيات:

أوّل مفوض عام كان جورج كسّاب. وسنة ١٩٧٦، عُيّن في هذا المركز بطرس خوند (رئيس مجلس الأمن، ومفوض جبل لبنان سابقًا)، وسنة ١٩٨٢ عُيّن الياس الزايك.

مفوضية بيروت

توالى إيلي محفوض ١٩٥٩، عباد زوين ١٩٦٧، أرثور شادر ١٩٧٣، بطرس خوند ١٩٧٤، فؤاد روكز ١٩٧٥، جورج شعنين ١٩٧٦، كمال المرّ ١٩٧٩، مسعود الأشقر ١٩٨١.

مفوضية جبل لبنان

توالى عليها بطرس الخوند، إيلي حبيقة، ناجي بطرس.

مفوضية الشمال

توالى عليها نعوم موسى، إدمون صهيون، حبيب خوري، سمير جعجع، جوزف جعجع .

مفوضية الجنوب

توالى عليها لويس حصروني، جورج فرح، شكيب سماره، نزار نجاريان.

مفوضية البقاع

توالى عليها يوسف مخّول، جورج سعاده، جوزف الياس.

المفتشية العامة

تـوالى عليهـا بشـير الجميّـل ١٩٧٣، فـؤاد روكـز ١٩٧٦، رفيـق عيـد ١٩٨١، جـورج شـعنين ١٩٨٢.

رئاسة مجلس الأمن

توالى عليها وليم حاوي، بشير الجميّل ١٩٧٦، بطرس الخوند ١٩٨٢.

الثكنات وقادتها

ثكنة S.K.S ١٩٧٦: ريمون أصايان، كمال المرّ، حبيب كرم.

ثكنـة الأشرفيـة ١٩٧٦: كـمال المـرّ، ميشـال جبـور، سـليم جلـخ، مـارك فلامـون، مـارون تابـت.

ثكنة الكتيبة الأولى:)المتن الجنوبي) ١٩٧٦، لويس كرم.

ثكنة الكتيبة الثانية: (المتن الجنوبي) ١٩٧٦، جان حرب.

ثكنة ضهر الصوان ١٩٧٦، أنطوان أبو حيدر.

ثكنة تجمّع الشوف ١٩٧٦، أنطوان عنيد.

ثكنة الدامور ١٩٧٦، إيلي قرداحي.

ثكنة لبنان الجديد (ددّه) ١٩٧٦، سمير جعجع.

ثكنـة قصرجيـان ١٩٧٦، جـان حـرب، جـورج مزرعـاني، ناجـي بطـرس، أنطـوان أبـو جـوده.

ثكنة المغاوير ١٩٧٧، جو إدّه، إبراهيم ضاهر، إبراهيم حدّاد، يوسف بعقليني.

ثكنة الرميل ١٩٧٨، ريمون نون.

ثكنة وحدات الجبل ١٩٨١، تولّى قيادتها المفوض العام آنذاك بطرس الخوند.

ثكنة أدونيس ١٩٧٩، عبّاس عبّاس، نزار نجاريان، حنّا عتيق، شارل حبيقة، جوزف ناصيف (الجعفر).

ثكنة غزير ١٩٨١، جورج أبو شديد، إبراهيم حدّاد (المظلّيين).

ثكنة غوسطا ١٩٨١، ميشال مكرزل، حبيب خوري (معهد بشير الجميّل) حنا عتيق.

ثكنة فرن الشباك - التحويطة ١٩٨٢، ايلي أبي عكر، شارل قربان.

ثكنة القطارة ١٩٧٨، سمير جعجع.

ثكنة التزلّج في فاريا ١٩٨٣، سليمان عقيقي، جوزف بطيش.

ثكنة اللقلوق ١٩٧٨، نجا خوري، فادي خوري، الياس الخوري، وليم بدر.

مراكز التدريب

قهمز كسروان-النعص بكفيا-بقليع المتن-طبريا كسروان-المدينة الكشفية البترون-غوسطا (معهد بشير الجميّل)-منطقة الكرنتينا-معهد مفوضية بيروت-حراجل-وطى الجوز-دون بوسكو-الفنار-باستثناء دورات الخارج (خارج لبنان)- والأسواق القديمة أيّام السلم.

الأقسام والمكاتب في المدن والقرى: بالمئات.

ملاحظة:

في أثناء حصار بيروت ركّزت القوى النظاميّة الكتائبيّة على فتح ثغرة لمجابهة خطّة الجيش السوري الرامية إلى عزل الجبل عن العاصمة. وقد أراد السوريّون بهذه الخطة الاستيلاء على الجسور، وأهمّها جسر الكرنتينا، للحؤول دون وصول النجدات العسكريّة، رجالًا وعتادًا، ولتجويع سكان بيروت. فقامت القوى النظاميّة الكتائبية بتوفير المواد الغذائية للأهالي، وضغطت على السوريين عسكريًا، فنشبت معارك أدّت إلى تحرير الخطّ الممتد من البيت المركزي إلى المرفأ فالتعاونيّة وجسر الكرنتينا حيث تم انسحاب القوات المعادية، واستلم قسم منها بإشراف القوى النظاميّة الكتائبية.

وكان قائد العمليّة الاستسلامية السورية بطرس الخوند، يعاونه جورج شعنين، وديب أنستاز.

أما القائد السوري المستسلم فكان المقدّم زهر الدين، وكان مركزه في التعاونيّة، والمسؤول عن الخط الممتدّ من قتّال إلى المرفأ فالتعاونيّة وجسر الكرنتينا. وقد انسحب السوريّون إلى منطقة سن الفيل - جسر الباشا - حرش تابت. وتمركزت على جسر الكرنتينا مجموعة من الجيش السوري، ثم قوى من الجيش والدرك اللبنانيين.

الفصل الثاني عشر:

إجتماع نهاريا المتوتر

حكي الكثير عن اجتماع نهاريا وتدهور علاقة بشير بإسرائيل وجرى الغمز حول مسؤوليتها عن اغتياله بنتيجة مداولات هذا اللقاء، ورفع الغطاء الدولي عنه وما شابه ذلك. وقد أشار العديد من الباحثين والصحافيين ووسائل الإعلام في مؤلّفاتهم وبرامجهم إلى لقاء نهاريا وتناقلوا مداولاته مجتزأة وخالية من بعض الحقائق المهمة. وبعد خمسة وثلاثين سنة، أجدني مضطرًا إلى أن أكشف محضر الاجتماع كاملًا من دون التعليق عليه أو محاولة تفسيره معتبرًا أنه ينطوي على ما يروي غليل الباحثين عن الحقيقة والكشف عن المستور.

والحقيقة الكاملة هي أن أركان إسرائيل اجتمعوا في جلسة مغلقة في نهاريا بحضور بشير وأمين حزب الكتائب جوزف سعادة وجورج فريحه فقط لا غير. وفي هذا اللقاء، أخذتُ شخصيًا محضر الاجتماع باللغة الإنكليزية. وأكتفي بالقول إن المحادثات فشلت لعدم تجاوب بشير مع بيغين بموضوع معاهدة السلام، لأن الرئيس المنتخب أصرّ على أن تكون المعاهدة برضا كافة اللبنانيين، والمسلمين بنوعٍ خاص، وبعد خروج الجيش السوري المتبقي في لبنان. وكان بشير يتصرّف في هذا الاجتماع المغلق كرئيس للجمهورية وكرجل دولة.

تلى لقاء نهاريا اجتماع في بكفيا بين بشير وشارون بحضور جورج فريحه فقط، مساء ١٢ أيلول ١٩٨٢، استمر ٥ ساعات حتى فجر ١٣ أيلول ١٩٨٢. وقد أخذ جورج فريحه المحضر بحذافيره كما هو مدوّن في الفصل التالي، ويتضمّن نصّ الاتفاق الذي توصّل إليه الرئيس اللبناني المنتخب مع وزير الدفاع الإسرائيلي.

وقد أصرّ بشير على أن يوقعه رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغين ليصبح ساري المفعول. أتت موافقة بيغين الخطية وسلّمت لجورج فريحه في مركز إقامته في الهوليداي بيتش بواسطة سفير أميركا بالوكالة بوب باريتس عند الساعة الرابعة بعد الظهر في ١٤ أيلول بالوقت نفسه الذي حصل انفجار الأشرفية واستشهد فيه بشير.

وفيما يلي تفاصيل الاجتماعين:

إلى نهاريا

بعد ظهر ١ أيلول ١٩٨٢، دعاني بشير إلى التأهّب لتمضية ليل طويل معه، قائلًا: «قد يمتد سهرنا حتى الصباح، للقيام بمهمة على جانب كبير من الأهمية». كنت آنذاك في مكتبي، في المجلس الحربي، أفرز الوثائق والرسائل وأصّنفها لتوثيقها بالسرعة المرجوّة. فخطر لي فورًا أن «المهمة الخطيرة» التي حدّثني بشير عنها تعني أن «ليل العمل» الذي دعاني إليه سيتجاوز الغربلة الهادئة المقتصرة على حصيلة نهار العمل.

وصل بشير قبلي إلى هوليداي بيتش مركز إقامتي، فداعب أولادي، وشاركهم في أكل العنب، و«باطحهم» على الحصيرة وعلى عشب الحديقة الناعم أمام الشاليه. ثم انتقل فورًا من اللهو إلى الجد، من فرح اللعب مع الأطفال إلى موقف الرجل المسؤول في حقبة تاريخية عصيبة وحاسمة، من المداعبة إلى مواجهة قرار مصيري، فقال لزوجتي فيفيان: «لا تقلقي إذا أمضى جورج بعض لياليه في خارج البيت بعد اليوم، أو إذا طال غيابه عنكم. إننا نعمل لخير بلدنا وشعبنا. سنبني بلدًا جميلًا وسعيدًا لهؤلاء الأولاد الأبرياء!»

هذه الكلمات القليلة، في تلك الثواني السريعة تختصر بشير. تستوعب كل ما كان فيه من الحزم، والنشاط، والشجاعة، والعزم على العمل، والتوق إلى مستقبل يرفل بالازدهار والهناء.

غير أن حبه لم يكن غزلًا عاطفيًا أجوف، ولا تّغنّيًا بماضٍ عظيم، ولا افتخارًا بإنجاز عابر سريع الزوال، ولا ادعاءً عنتريًا فارغًا، ولا ابتهالًا عاجزًا يلجمه الخوف ويكبّله التزمّت... بل كان قوةً أشدّ عصفًا من الإعصار، قوة حرّة، واعية، تدعمها إرادة فولاذية، وتسدّد خطاها ثقة بالنفس لا تتعثّر، ولا تتردّد، ولا تخشى السقوط أو الخيبة، لكأنه خلاصة ما في تاريخنا الطويل من قمم شامخات وعظمة باذخة، وعطاء سخي، خلاصة أولئك الجبابرة العباقرة الذين رسموا الحرف على هذا الشط، وبنوا ماخرات العباب، وشيّدوا بعلبك معجزة الزمان، وزرعوا مستعمرات الخير على كلّ ساحل، وأشعلوا منارات المعرفة تحت كلّ سماء.

غادر بشير منزلي، في ذلك اليوم، ثم عاد وأخذني معه.

إتجهنا إلى جونيه. وصلنا إلى فسحة رحبة. بدأت السيارات تتقاطر. هوذا جان ناضر، يليه جوزيف أبو خليل، وجوزيف سعادة، الأمين العام في حزب الكتائب، وفادي افرام، وزاهي بستاني.

جاء ضابط إسرائيلي. وقفنا جميعًا ننتظر طوافة تنقلنا إلى إسرائيل.

وصلت الطوافة. نقلتنا فوق البحر إلى نهاريا. إستغرقت رحلتنا ساعتين وثلاثين دقيقة.

كان استقبالنا بسيطًا، بل في منتهى التواضع. ما رأينا على المدرج غير دايف (دايفيد كمحي) وآخرين لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد.

نقلونا، أو انتقلنا معهم، إلى باص صغير كان ينتظرنا. لا معالم استقبال. لا مراسيم ترحيب. لا هتاف، لا تصفيق، لا شيء يشير، ولو من بعيد، إلى أن الزائر رئيس جمهورية.

بعد عشرين دقيقة، بلغنا مصنعًا في نهاريا علمنا أنه مركز عسكري. كان ينتظرنا فيه إسحق شامير، وآرييل شارون، ودايف، وهوفي، ونامير، وبيتر، وماندي، وساغي، وستوربرت.

لم يكن مناحيم بيغين بين الحاضرين، إذ كان عليه أن يأتي من القدس، بعد اشتراكه في جلسة مهمة عُقدت في الكنيست. وما هي دقائق معدودة حتى وصل. وبدا متجهّمًا، مقّطب الجبين. ولما حيّاه بشير جاء ردّه على التحية باردًا وخاليًا من كلّ مظاهر الموّدة. ثم رأيناه يعرج، وعلمنا أنه يعاني وجعًا في رجله. وما حيّانا جميعًا إلا لمّا وصلنا إلى مكان الاجتماع، وتحلقنا حول طاولة مستديرة كبيرة، عليها زجاجات نبيذ أحمر وأبيض، وأصناف من «المازة» الإسرائيلية، وهي مرقوقات محشوة بالجبنة أو اللحم، إلى جانبها بذورات. هذه «المازة» بعيدةً جدًا عن «المازة» اللبنانية الغنيّة بتنوعها ومحتوياتها. هنا أخذت دفتري لأدوّن ما سيقال في الاجتماع بكل تفاصيله.

بيغين: تأثّرتُ جدًا لمّا أنكرتَ ما بيننا

إفتتح بيغين الحديث بالمجاملات التقليدية: «كيف الحال، كيف بيروت؟» أجابه بشير بأن الأوضاع آخذة في التحسن، وبأن الجيش اللبناني قادر على ضبط الأمور في العاصمة خلال بضعة أيام، «ثم ننتقل إلى المرحلة الثانية».

بيغين: كيف حال بيار الجميّل، وكميل شمعون؟

بشير: على ما يرام.

كان الرئيس الإسرائيلي يتكلّم جالسًا. وبعد صمت قصير، وقف كمن يتأهب لإلقاء خطاب. وقد خفّ ذلك التجهّم الذي رأيناه على ملامح وجهه، فقال:

«أرحّب بوفدكم الكريم، وعلى رأسه الصديق الرئيس بشير الجميّل. ومع كلمة الترحيب بكم، أريد أن أعبّر عن لفتة إكبار وتقدير إلى إسحق رابين، رئيس مجلس الوزراء السابق، لأنه كان البادئ، مع حكومته، في وضع أسس الصداقة بين إسرائيل ولبنان.

«كانت علاقتنا الماضية رومنسية. بدأت بتعاونٍ خفي، فوصلت اليوم إلى صداقة علنية.

«منظّمة التحرير عاشت في لبنان ضد الشعب المسيحي طوال خمس سنوات، أوجدت فيها دولة ضمن دولة، فخنقت الحرية، واعتدت على سيادة الدولة اللبنانية. وكان هدفها إبادة المسيحيين، إن في الجنوب أو في المناطق اللبنانية الأخرى. وفي هذا السبيل، قصفت المدنيين بشراسة ووحشية. وهذا ما جعل الرائد حداد يستقيل ويعيش في إسرائيل. عمل الفلسطينيون في لبنان كأنه أصبح بلدهم البديل عن فلسطين لدرجة أن أحد قياديي فلسطين أبو أياد أعلن «أن طريق تل أبيب تمّر بجونية».

«أقف أمامكم، في هذه الليلة، لأقول: لن يهددكم أحد بعد اليوم. أصبح لبنان حرًا، بعيدًا عن الخطر. فالجيش الإسرائيلي حطّم منظّمة التحرير. جرّدها من السلاح وطردها. والجيش السوري مُني بالهزيمة. دمّرنا ٤٠٥ من دباباته. أسقطنا ١٠٢ من طائراته. وللمرة الأولى أُسقطت طائرات من طراز «ميغ - ٢٥»، وأُبيدت

إحدى وعشرون بطارية من صواريخ «سام ٦ و٧ و٢٩». ألوية عديدة من الجيش السوري تضعضعت وتبعثرت، فأمست سوريا عاجزة عن محاربة إسرائيل. وحافظ الأسد يعرف الآن أنه إذا فكّر بمواجهتنا فسيتحطم جيشه بسرعة.

«إن سوريا لا تعترف بلبنان. ولا تقيم علاقات دبلوماسية بينها وبينه. والسوريون جميعًا سيغادرون لبنان. وستأتي المرحلة الثانية، وتليها الثالثة.

«في المرحلة الثانية، سيغادر المخرّبون الشمال والبقاع والأراضي اللبنانية كلّها. سنباشر تنفيذ هذه المرحلة غدًا. أما في الثالثة، فسيتم إخراج مختلف القوى الغربية من لبنان. وأنا، بصفتي رئيس مجلس الوزراء الإسرائيلي أعلن أن جيش إسرائيل هو غريب أيضًا.

«إتخذ السوريون من لبنان منطلقًا لمجابهة إسرائيل. والعملية التي قمنا بها ترمي إلى «صيانة أمن الجليل». وقد كانت ناجحة إلى أقصى حد.

«نحن اليوم في نهاريا بعيدون عن أي تهديد. الجيش السوري هو جيش احتلال. في المرحلة الثالثة سنخرجه من لبنان. ونحن بدورنا سنخرج في الوقت نفسه، الوقت الذي فيه يخرج الجيش السوري.

«هناك طرحان إثنان لكلّ من ينظر إلى هذا الأمر:

١. أن لا نغادر لبنان إلا بعد إخراج السوري منه. وهذا مبدأ سلبي.

٢. أن نغادر لبنان في الوقت نفسه الذي يخرج فيه السوري. وهذا مبدأ إيجابي.

جنودنا يجب أن يعودوا إلى منازلهم. وسيغادرون لبنان حين يذهب السوريّون. هذا ما تمّ الاتفاق عليه مع الولايات المتحدة الأميركية.

«يمكن أن تتمّ عملية الجلاء في غضون أسبوعين: تخرج مجموعة من السوريين وأخرى من الإسرائيليين في يوم محدّد، فتعود كلّ منها إلى بلدها. وتليهما في اليوم التالي مجموعتان أخريان، وهكذا دواليك، حتى يخرج الجيشان، في الوقت نفسه، من لبنان.

«نريد أن نعيش بسلام مع لبنان. ومتى انتهت مرحلة الجلاء، سيولد لبنان جديد. وسيولد أمل جديد يمهّد لمستقبل مزدهر بعد معاناة طويلة.

«سينشأ لبنان سيد، حرّ، ديمقراطي، مستقل. لبنان المستقبل يجب أن يبني جيشًا قويًا مزوّدًا بأحدث عتاد. ومن حيث أنا صديق لكم أستطيع القول إنه لا يجوز مطلقًا أن يتفكّك الجيش اللبناني. فعلى ضباط جيشكم أن يكونوا أوفياء لرئيس الجمهورية ولقائد الجيش. من ألف باء الديمقراطية أن يكون الجيش خاضعًا للسلطة المدنية. ومن واجب لبنان أن يحافظ على أمنه الداخلي على يد أجهزة فعّالة، فلا يفاجأ بعصيان، ولا يؤخذ على حين غرة. ونحن على أتمّ الاستعداد لمساعدتكم في هذا المضمار.

«حضرة الرئيس،

«منذ العام ١٩٤٨ حتى هذه الليلة، كان بَلَدانا في حالة حرب. وها نحن الآن أصدقاء. إلا أننا، على الصعيد الرسمي، ما نزال في حالة حرب. يجب إنهاء هذا التناقض.

«حضرة الرئيس،

«تأثّرتُ جدًا لمّا أنكرتَ ما بيننا. إسرائيل تستحق منك أكثر من ذلك. أميركا وفرنسا والآخرون ما ساعدوكم. نحن ساعدناكم. لا نطلب ثمن ما عملنا. لا نمنّ عليكم. لا نطالبكم بعرفان الجميّل. لقد قمنا بواجبنا. الرئيس شمعون أعلن أن لبنان لن يوقع معاهدة صلح مع إسرائيل. فيما نحن ما ترددنا في تلبية ندائكم. تعهدنا بإنقاذكم. أعطيناكم حريتكم. قطعنا لكم عهدًا من القلب. أدهشني قول الرئيس شمعون أيضًا لما أعلن أن لبنان يحتاج إلى العرب، ومساعدة العرب. هذه «برشانة» مرّة يصعب عليّ بلعها. فكيف يمكن أن يقول الرئيس شمعون إن لبنان عاش برفاهية بفضل مساعدة العرب؟

«وقال شمعون أيضًا إن مصر بلد فقير، وهذا ما جعلها توقع معاهدة سلام مع إسرائيل. وهذه «برشانة» أخرى أشدّ مرارة من الأولى. فهل يعني هذا القول إن الفقير يوقّع معاهدة السلام لأنه يجب أن يبقى فقيرًا؟ وهل المال هو الذي سيقرر نوع العلاقات التي ستقوم بيننا؟

«علاقاتنا يجب أن ترتكز على الكرامة والشرف. والحرب يجب أن تنتهي إلى الأبد. من أجل ذلك، لا بد من توقيع معاهدة سلام.

«نحن أحرار. دولتانا حرتان. لا حرب بعد اليوم. ولا دم يُهرق. السلام لنا. هذا ما يجب أن يكون بإرادتكم الحرة. إرادتكم الحرة هي التي تجعلكم توقعون معنا معاهدة سلام. وسيكون ذلك باللغتين: العبرية، والعربية. نوقّع النسخة العبرية في القدس، والعربية في بيروت. كنت أقول إنك ابني، وأنظر إليك كأنك ابني. وقد أصبحتَ رئيسًا، فلم أعد قادرًا على ذلك القول وتلك النظرة. فأنت الآن صديقي، فلتنعكس صداقتنا إيجابيًا على دولتينا.

«بنينا صداقتنا تدريجًا. فهيا بنا لنبني اليوم علاقاتنا الوديّة، وننسج أواصر صداقتنا في حقول الاقتصاد، والصناعة، وأمور أخرى عديدة. في وسع بلدينا أن يعملا معًا، وأن يجعلا عملهما جدّيًا ومجديًا في مختلف الميادين. ونستطيع أن نعمل معًا في الحلبة الدولية. فإلى جانب معاهدة السلام، ثمة صداقات على الصعيد العالمي يمكن أن نفيد منها، وأن نتبادل الفائدة فيما بيننا.

«هذا ما أتصّوره وأقوله في هذه الليلة.

«نأمل أن يعّم السلام الشرق الأوسط. لن تجرؤ سوريا بعد اليوم على مهاجمة إسرائيل ولبنان. الأردن ما فكر يومًا بمهاجمتنا. يخيّل إليّ أننا قد وصلنا اليوم إلى مرحلة السلام في هذا الشرق الأوسط، وأن هذه المرحلة ستمتدّ على مدى أربعين عامًا، أو عشرين على الأقل، لا أدري...

«لا أقول إنكم لن تواجهوا صعوبات، من نوع عمليات الانتقام مثلًا. هذا يمكن أن يحصل. ولكن المشكلات الكبيرة والخطيرة قد حُلتْ. عدوّنا قد تحطم. لنشكر الله على ما أنجزنا.

«خسرنا ٣٤٠ من أطيب رجالنا، ولا سيما من المغاوير. وكان شعار ضّباطنا وجنودنا: «إتبعوني!» بدلًا من: «إلى الأمام سْر». مئات منّا جُرحوا وأعيقوا. خسرنا كثيرًا بالنسبة إلى جيل واحد من أجيالنا. إنها حقيقة المأساة، وهي مفجعة! هذا قدر الناس حين يدعوهم الواجب. فهو يحتّم عليهم أن يعملوا مهما تكن النتائج، ومهما يشتدّ الألم.

«نحـن سـعداء بأنـك، أنـت، بشـير الجميّـل، قـد انتُخبـت ديمقراطيًـا رئيسًـا للجمهوريـة. وأسـتطيع القـول الآن إن لـك صديقًـا في القـدس، كـما إن لنـا صديقًـا في بـيروت. بلدانـا قديمـان جـدًا، ومتحـضّران. تحمّـلا أشـد الصعـاب ليدفعـا ثمـن الحريـة والاسـتقلال. وعهدنـا للتاريـخ أن نضمـن لـكل منهـما، لكـم ولنـا، السـلام والحريـة».

بشير: إنتُخبتُ من غير أن أكون مدينًا لأحد

هنـا توقـف بيغـين عـن الـكلام. وبـدا راضيًـا عـما قـال، مكتفيًـا بمـا قـدّم، فـرد عليـه بشير :

«سـاعدتمونا خطـوة خطـوة لنصـل إلى مـا وصلنـا إليـه. قلتـم لنـا إنكـم لـن تتخلّـوا عنـا، فوفيتـم بوعودكـم، ونلنـا منكـم الدعـم. ومـن حسـن حظنـا أننـا حظينـا بهـذا الدعـم وتلـك المسـاعدة بـلا قيـد أو شرط. والآن يـا حـضرة الرئيـس، أصبـح صديقـك رئيـس الجمهوريـة اللبنانيـة. وسنسـعى خطـوةً خطـوة لاقتـلاع ٥٠٠ ألـف إرهـابي مـن لبنـان. لـن يكـون بعـد اليـوم إرهـابي في لبنـان. وفي المرحلـة الثانيـة، سنُخرج السـوريين مـن بلدنـا. لا نريـد أن يخـرج السـوريون والإسرائيليـون في وقـت واحـد، فالسـوريون يغـادرون أولًا ثـم الإسرائيليـون. وفي المرحلتـين الثالثـة والرابعـة، سـنعمل عـلى إعـادة الاسـتقرار إلى لبنـان. وقـد تكـون هـذه المرحلـة هـي الأولى والأهـم اليـوم. لا ضرورة لعمليّـة تطبيـع بـين شـعبينا. فأنـا سـأعمل، بصفتـي رئيسًـا للدولـة، عـلى تحقيـق أحلامنـا، والقيـام بواجبنـا مـن خـلال عمليـة سياسـية تضمـن التحالـف بيننـا لخدمـة مصالـح شـعبينا.

«إنتُخبـت رئيسًـا مـن غـير أن أكـون مدينًـا لأحـد. وسأسـعى لأفي بالوعـود التـي قطعتهـا لشـعبي. خـسرت ابنتـي وخمسـة آلاف شـهيد، فضـلًا عـن مئـة ألـف قتيـل مـدني. علينـا اليـوم أن ننفّـذ مـا تعهدنـا بـه لإقـرار السـلام. سنسـعى معًـا إلى بلـوغ هـذا الهـدف. سـنفاوض، وسـنتغلّب عـلى مختلـف العراقيـل لنبلـغ النتائـج التي نرمـي إليهـا.

«ربحنـا الحـرب اليـوم بفضـل مسـاعدتكم ودعمكـم. وسـتكون ثمـرة هـذا الإنجـاز صالحـة لشـعبينا. كنـت أنـت سـيدًا عظيـمًا. وسـنتفاوض معـك لنحقّـق أحـلام بلدينـا. كنـا نصـلّي في كنائسـنا قبـل أن نعرفـك. والآن سـنتفاهم معـك عـلى تثبيـت السـلام.

أشكرك وأشكر شارون، وشامير، ورفول، والموساد. وأملي وطيد بأننا سنتفاوض، بعد تحرير كلّ لبنان، للوصول إلى تحالف عميق. أكرر أنك كنت دائمًا سيدًا كبيراً».

إكتفى بشير بهذا الردّ الوجيز، فرُفعت الكؤوس، وشُربت الأنخاب، ثم أعرب مناحيم بيغين عن رغبته في انتقال ممثلي الجانبَين، اللبناني والإسرائيلي، إلى إحدى الغرف، لعقد خلوة شبه سرية، فجاء منهم بيغين، وشارون، وشامير، والجنرال هوفي، وساغي، ومنا بشير، وجوزيف سعادة، وجورج فريحه.

الاجتماع المغلق: كلام كبير وتوتّر

كان بيغين أول المتكلمين في تلك الخلوة فقال: «أُصرُّ إصرارًا شديدًا على ضرورة عقد معاهدة سلام بيننا. وعلينا أن نبادر فورًا إلى تهيئة قاعدتها والجو الذي يلائمها. فشعبنا في إسرائيل بدأ يهزأ بنا. يسألنا: أين بشير؟ ما باله لم يقل حتى الآن ولو كلمة واحدة مهمة بيننا وبينه؟»

ووجه كلامه إلى بشير مستطردًا: «قلْ شيئًا من حين إلى آخر، أوعز إلى أصحابك بأن يقولوا شيئًا. السلام بيننا يجب أن يحلّ حلولًا طبيعية على مدى سنوات. وسيكون التعامل فيما بيننا خفيًّا. أنا تسلّمت الحكم فأعلنت عزمي على مساعدتكم. أنت أتيتَ إلى الرئاسة فما تفوهتَ بكلمة واحدة. ظهرت على شاشة التلفزيون وما قلتَ شيئًا حسنًا بشأن إسرائيل، لم تقل إنه لا يجوز أن تكون حرب بعد اليوم بين الإسرائيليين واللبنانيين».

هنا تدخّل بشير فقال إن الشعب اللبناني في المناطق الحرّة سيقوم بتظاهرة ضخمة ضد عرفات ومنظّمة التحرير ردًّا على الوداع الحار الذي قام به رئيس الوزراء وجنبلاط وغيرهم للفلسطينيين المبعدين عن أرض لبنان. وأكد أن شعارات ستُرفع وفيها تعبير عما بيننا وبين إسرائيل من أواصر الصداقة وروابط المودّة والتفاهم، وخاصة عن الشكر لما قدّمته من تضحيات لكسب الحرب ضد الفلسطينيين وبالنتيجة إخراجهم من لبنان».

أجـاب بيغـين: «هـذا لا يكفـي». ثـم اسـتطرد: «لا أظـن السـوريين قادريـن عـلى أن يقاتلوكـم بعـد اليـوم. نحـن في لبنـان للدفـاع عنكـم. سـنُخرج السـوريين. لقـد ولّى هـذا الكابـوس. لا يجـوز أن يبقـى مسـلّطًا عليكـم، لأنـه قـد يؤثّـر مسـتقبلًا في العلاقـات القائمـة بيننـا وبينكـم. كان الرئيـس شـمعون، فيـما مـضى، مناوئًـا عنيفًـا لإسرائيـل. والـضرورة تقـضي بـأن نبـدأ اليـوم مرحلـة صداقـة. وإذا تلكأتـم، ظنًّـا منكـم أن إعـلان هـذه الصداقـة يعرقـل مسـاعيكم في تهيئـة النفـوس وتذليـل بعـض العراقيـل، فسـيمرّ وقـت طويـل قبـل وصولنـا إلى تحسـين علاقاتنـا. قالـت دمشـق إن السـوريين سـيغادرون لبنـان. والـروس أنذرونـا مرّتـين، عـن طريـق سـفارة فنلنـدا، لنخـرج نحـن أيضًـا. مـا أجبتُهـم. كانـت برقيتهـم بـلا عنـوان وبـلا توقيـع».

أجـاب بشـير: «التصريحـات المعلنـة بالغة الخطـورة والخطـر. إنها تهـدّد مصير نصف مليـون مسـيحي يقيمـون تحـت سـيطرة السـوريين والفلسـطينيين. نحـن عـلى كامـل الاسـتعداد عندمـا يخـرج السـوريون وتنعـدم السـيطرة عـلى نصـف مليـون مسـيحي».

هنـا تكلّـم بيغـين وشـارون معًـا، ليقـولا إن السـوريين لا يسـتطيعون القيـام بـأي هجـوم، وإن الإسرائيليـين هـم أيضًـا في وضـع تذمّـر، «فالجنـود يسـألون كلّ يـوم: لمـاذا نحـن في لبنـان. ومـع ذلـك لم تُقَـلْ مـن جانبكـم كلمـة واحـدة، ولـو للاعـتراف بالجهـود الكبـيرة التـي بذلناهـا مـن أجلكـم. وأنت شـخصيًا، أثنيـت على مشـاة البحريـة الأميركيين والإيطاليـين والفرنسـيين، فلـمَ لم تقـل كلمـة واحـدة عنـا نحـن؟ إذا كان السـوريون سـيغادرون لبنـان تحـت الضغـط، فنحـن سـنغادره تلقائيًـا وبإرادتنـا. فأسـمِعْنا كلمـةَ شـكر واحـدة. مـا قـال أحـد منكـم إننـا أنقذناكـم. سـكوتكم هـذا سـيكون لـه تأثـيره البالـغ في علاقاتنـا المسـتقبلية».

هـذا مـا قالـه بيغـين وشـارون، تـارةً معًـا، وطـورًا بالتنـاوب. ثـم تكلّـم بيغـين وحـده مخاطبًـا بشـير: «مـا طلبـتُ إليـك شـيئًا قبـل انتخابـك. أمـا اليـوم فأنـت الرئيـسُ. قـال الرئيـس شـمعون إن لبنـان لـن يعقـد معاهـدة صلـح مـع إسرائيـل. أبـوك أيضًـا قـال إن لبنـان جـزء مـن العـالم العـربي. وهـو يعنـي أنـه لا يوافـق الآن عـلى عقـد معاهـدة سـلام معنـا. وإذا كنـت أنـت أيضًـا لا تريـد هـذه المعاهـدة، فقُـلْ كلمتـك بصراحـة، وسـنبقى ٣٠٠٠ سـنة أخـرى مـن دون سـلام. ألا تـرى أن عليـك أن تشـكر أولئـك الذيـن خلّصـوك مـن الفلسـطينيين؟»

أجاب بشير: «نعم أنا اليوم رئيس لبنان، كلّ لبنان بمسيحييه ومسلميه وأودّ أن أكسب ثقة المسلمين الذين يكوّنون نصف سكان لبنان وذلك بإقناعهم أنه من مصلحة لبنان أولًا أن نعقد مع الإسرائيليين معاهدة سلام، فلأجل ذلك أريد بعض الوقت».

وسأل شارون: «هل صحيح أن المسلمين يفرضون شروطًا للتعاون معك، ومنها الامتناع عن عقد معاهدة سلام معنا؟»

أجاب بشير على الفور، وبلا تردد: «نعم».

وسأله بيغين: «وهل ستذعن للابتزاز، وترضى بأن يحلّ محلّ صداقتنا؟»

ردّ بشير: «بلدنا كلّه سينهار إذا صرّحت اليوم برغبتي في عقد معاهدة سلام معكم قبل موافقة المسلمين».

قال بيغين: «لا أريد أن ينهار بلدك. وفّقك الله. ولنضع حدًّا لهذا الحوار».

وكان كلامه هذا يعني بوضوح أنه يريد أن تُطوى صفحة هذا الموضوع.

ولكن شارون أبى إلا أن يتابع الحديث، فقال: «وافقنا على أن لا نتدخّل عندكم قبل انتخاب رئيس الجمهورية. أما الآن فقد تمّ انتخابك. وإذا لم توقّع معاهدة سلام بيننا، ستكون وحدة لبنان على المحك. ولا تنسَ وجود سعد حدّاد مع قسم من لبنان بيده».

وكان شارون يشير بقوله هذا إلى نوع من عصيان سعد حدّاد، فأجابه بشير: أرى محادثاتنا هنا «حولاء» (crossed eyes). إن ما تريدونه هو مطلبي أيضًا. خلافنا إذًا لم يعد على عقد، بل على الأسلوب، وعلى طريقة التنفيذ، وعلى الوقت، ولكن أهدافنا واحدة. فلنؤلّف فريقًا يضّم شخصين منكم، وشخصين منا، ليخططوا معًا صيغة المعاهدة ويدرسوا طريقة إبرامها».

سأله بيغين: «لماذا لا تصرّح بأنه يجب عقد معاهدة سلام بين إسرائيل ولبنان، ثم تعلن أن على الحكومة اللبنانية أن تتخذ القرار النهائي في هذا الموضوع؟ أعطِ أنت رأيك الشخصي، ولك بعدئذٍ أن تقول إن لبنان بلد ديمقراطي، لا تُتخذ القرارات المهمّة فيه إلا عن طريق مجلس الوزراء ومجلس النواب. إنها لخيبة كبيرة لي أنا،

أن لا أسمعك تقول بضرورة عقد معاهدة بيننا. لقد عملنا كلّ ما يمكن أن تعمله دولة لأخرى. لماذا لا تقول إن السلام يجب أن يسود بيننا؟ لماذا تتهرّب من هذا الموضوع؟ أرسلتُ إليك برقيّة وأعلنتها لئلا أحرجك». فأجابه بشير:

– التوقيت بالغ الأهميّة. لماذا انتظرتم أنت ثمانية أعوام قبل أن تبادروا إلى تحرير لبنان؟ لأنكم حسبتم حساب التوقيت واحترمتموه.

– أتريد معاهدة سلام أم لا؟، أردف بيغين بشيء من الحدّة.

– نعم أريد. ولكن لا بد من مراعاة الشكليّات.

– دعني ألخّص ما يجب عمله:

١. تعلن أنت وجوب عقد معاهدة سلام بيننا.

٢. يبدأ الإعداد لتوقيع المعاهدة.

هاتان النقطتان موضوعتان أمامك.

– سندرس هاتين النقطتين و...

– (قاطعه بيغين) إني أعيّن شامير وشارون من قبلنا. عيّن أنت إثنين من قبلك.

– ليس هذا ما أقصد. أريد معاهدة سلام. ليكن موعدنا المقبل في ١٥ أيلول. وسنلتقي في بيروت. وسيقتصر جدول الأعمال على أمرين أثنين:

– متى يُعلن عن المعاهدة؟

– متى يتمّ إبرامها؟

واستطرد بشير: «ما أخفقنا مرةً في العمليّات التي كان علينا أن نقوم بها. أعني أننا نفّذنا كلّ ما كان مفروضًا علينا. فكانت ردّة الفعل سلبيّة في إسرائيل».

وتدخّل شارون مؤكّدًا: «أي نعم، نفّذ بشير كلّ ما كان مطلوب منه. وعلى سبيل المثال، أذكر أني سألت بشير عمّا سيفعل إذا نحن ذهبنا إلى بيروت الغربيّة، فأجاب بأنه سيذهب معنا. ولقد فعل كلّ ما طلبناه في سوق الغرب، وعاليه، وكلّية العلوم. شعرتُ شخصيًا أن علينا أن ندخل بيروت الغربيّة وحدنا. ولكن بشير نفّذ كل مطالبنا. بشير كان متجاوبًا لطلباتنا ومنفذًا لتعهداته».

فعلّق بيغين بارتياح: «يسّرني أن أسمع هذا».

أجابه بشير: «التقرير الذي تلقيتموه عن كلام الرئيس شمعون مغلوط».

أجاب بيغين: «أنا سمعت شمعون يتكلّم. كم كنتُ حزينًا لمّا سمعته، خصوصًا لأنه هو الذي استنجد بنا واسترحمنا لننقذ لبنان. وقد تعهّدتُ له بتوفير المساعدة اللازمة لكم. وأكرّر الآن أن تعهّدي هذا ما يزال قائمًا. قطعتُ هذا العهد مصممًا على مجابهة كلّ الأخطار، وأهمها نشوب حرب بيننا وبين سوريا. فكانت النتيجة تصريح شمعون! إنه تصريح فتّاك».

واستطرد بيغين: «لننتقل الآن إلى موضوع سعد حدّاد. قال لي فيليب حبيب إن على سعد حدّاد أن يتقاعد، فيحصل على عفو. إلاّ أننا لا نتخلّى عن أصدقائنا، لا نسمح بضياعهم وشرودهم في الظلام. لن يكون لسعد حدّاد تقاعد، ولا هو بحاجة إلى عفو. فما هو مجرم. إنه مواطن وفيّ ومخلص».

أجابه بشير: «أشاركك احترام سعد حدّاد. لقد عمل في الجنوب ما عملته أنا في جونيه. لقد حظي منا دائمًا بالتقدير والاحترام، وأكبرنا ما فعله في الجنوب. ولكن ثمة مذكرّة جلب وتوقيف قد صدرت بحقّه، وبحقّ أحمد الخطيب وغيره من الضباط الذين اعتُبروا منحرفين عن واجبهم العسكري. سأوصي بأن يمثل سعد حدّاد أمام المدعي العام العسكري ليجيب عن أسئلة معيّنة ثم يُطلق سراحه. ويبقى حرًّا لاتخاذ القرار الذي يراه ملائمًا له في ما يختصّ بالمستقبل. فإما أن يبقى في الجيش أو أن ينفصل عنه، وسنوافق على هذا القرار ونحرص على تنفيذه. لا بدّ له من المثول أمام المدّعي العام للإجابة عن أسئلة ستطرح عليه، ثم يرى ما يوافقه. ونحن عازمون على تأييده ومساعدته. ومثوله أمام المدّعي العام يجب أن يتمّ بالطرق القانونية. فالحكومة السابقة طالبت بهذا التدبير، وعلينا أن نتابع السياق التقليدي في تصرفاتنا على هذا الصعيد».

ردّ بيغين بنبرة لا تخلو من النزق: «حدّاد حارب من أجل لبنان. أيكون جديرًا بالترقية والتشجيع وترسلونه إلى المدّعي العام؟ لن أسمح بمثوله أمام القضاء. هذا عيب. ما هو خائن. إنه صديقي، ومواطن لبناني صالح. لقد عانى الكثير في وجه العدو، فلماذا نرسله إلى المدّعي العام؟ أنت بصفتك رئيس الجمهورية، عليك أن تصالحه وترقيه وتجعله عضوًا في الحكومة. فكّر أيضًا بقوّاته. يجب أن ينخرط مع

هـذه القـوّات في الجيـش اللبنـاني الجديـد. جـازف الرجـل بحياتـه دفاعًـا عـن وطنـه وشـعبه. أنـت مـا قابلتـه منـذ سـنوات. إنـه دافـع عـن جنـوب لبنـان بشـجاعة. أليـس مـن حقـه أن نعـترف لـه بهـذه المكرمـة؟ كان يؤيّـدك، وهـو شـديد الميـل إليـك لا إلى الآخريـن. لم نـترك أصحابنـا وحدهـم في الشـدائد، ولـن نتركهـم أبـدًا».

وقـال شـارون: «نحـن نعـرف الجيـش اللبنـاني معرفـةً تامـةً. كان حـدّاد ضابطًـا جيـدًا، بـل أفضـل مـن الضبـاط اللبنانيـين الآخريـن. بسـط سـيطرته عـلى بقعـة تضّـم مئـة ألـف أو مئـة وخمسـين ألـف نسـمة. غامـر بحياتـه وضحّـى بعـدد مـن جنـوده. وهـو الآن قائـد لـواء ممتـاز عديـده ٢٠٠٠ جنـدي».

وقـال بيغـين: «سـألتقي الرائـد حـدّاد قريبًـا. أرجـو منـك أن تأخـذ علـمًا بأننـا لـن نتخـلّى عـن أصدقائنـا في أيـام العسر. لـن يَمثُـل حـدّاد أمـام المدعـي العـام. لـن توجّـه إليـه اتهامـات. وكـن واثقًـا أننـا لـن ندعـك في الضيـق. قلـت إنـك سـتعيّنه ملحقًـا عسـكريًا بإحـدى السـفارات. وسـنفكّر في هـذا الأمـر. ولكننـي لا أعتـبر هـذه المعاملـة عادلـة بالنسـبة إلى أصدقائنـا. أعتقـد أنـه يفضّـل أن يعيـش في إسرائيـل إذا لاحقتَـه قضائيًـا. قـد يطلـب إلينـا اللجـوء السـياسي وسـألبّيه بـلا تـردّد. أقـترح أن تخصّصـوا موضـوع حـدّاد بمزيـد مـن الاهتـمام والجّـد، خصوصًـا في مـا يتعلـق بتعيينـه عضـوًا في اللجنـة الرباعيـة».

وقـال شـارون: «إذا تعـثرّت معاهـدة السـلام بيننـا، فسـيكون مصـير جنـوب لبنـان غـير مـا هـو الآن، وغـير مـا يخطـر في بالكـم. فالضغـط الأمـيركي لـن يزيحنـا عـن خطنـا ولـو خطـوة واحـدة. وليسـت معاهـدة السـلام مهمـة بالنسـبة إلينـا وحدنـا، بل بالنسـبة إليكـم أيضًـا. نحـن لسـنا بحاجـة إلى ٤٠ كيلومـترًا مـن الأرض. لـن نـصّر عـلى البقـاء فيهـا إذا اسـتقرّ السـلام بيننـا وبينكـم. ولا يسـتطيع الأميركيـون أن يضغطـوا علينـا. فـإذا شـعرنا بأنـه يجـب علينـا أن نعمـل شـيئًا سـنعمله. إني أخاطبـك بصفـة كـوني صديقًـا لـك. نحـن الآن في موقـف تحـوّل بالنظـر إلى العلاقـات القائمـة بيننـا. لـن نسـتعطي السـلام اسـتعطاءً. كنـا عـلى هـذه الأرض، ولا نـزال، منـذ ٣٧٠٠ سـنة. إننـا مسـتعدون لمسـاعدتكم إذا شـئتم. لـن يُخرجنـا أحـد مـن هـذه الأرض، ولـن نسـتعطي السـلام. إلا أننـا نعـاني ضغطًـا إسرائيليًـا داخليًـا. سـنقيم حولنـا حزامًـا عرضـه ٤٠ كيلومـترًا أو ٥٠. ولِـمَ نسـتعطي السـلام؟ لسـنا محتاجـين إليـه.

وبعد هذه النبذة الشارونية المبطنة بشيء من الخيبة، وقف بيغين مشيراً إلى انتهاء الجلسة، فوقف الجميع. وكانت الساعة قد بلغت الثالثة فجرًا منذ قليل.

العشاء البارد

خرج الجميع إلى الردهة الكبيرة حيث كان الباقون من أعضاء الوفدَين اللبناني والإسرائيلي ينتظرون العشاء.

كان التجهّم واضحًا على وجوه الخارجين من تلك الخلوة، فراح الموجودون في القاعة يحدّقون إلى وجوهنا، كأنهم يحاولون أن يقرأوا في ملامحها، في لمعات العيون، في أدقّ الحركات وأبسط الإشارات ما يدلّ على ما كان في ذلك اللقاء البالغ الأهمية، حتى ليمكن القول إنه كان مصيريًّا.

والحقّ يقال، إننا لم نكن مرتاحين، بل لم يكن بيننا مرتاح واحد. وما استطاعت المظاهر تمويه الحقيقة، وإيهام المراقبين بغير ما كان. فالإرادتان: اللبنانية والإسرائيلية تصادمتا، تباينتا على أمور أساسيّة، وشؤون جوهريّة. فبشير حرص على أن يكون اللبنانيون شعبًا واحدًا، متضامنًا، وبيغين أرادهم طوائف متناحرة، وأحزابًا متنابذة، وفئات مختلفة المفهومات والأهداف. فلا عجب إذا تقطبّت الجباه، واكفهرّت الوجوه، وأدرك الجميع أن نتيجة ذلك الاجتماع كانت إخفاقًا، وعلى الأقل لم تحظ المباحثات بقسط يسير من النجاح، خصوصًا في نظر الذين كانوا يعلّقون عليها آمالًا كبيرة.

وما اقتصرت الصدمة على النفوس، بل تجاوزتها إلى الأجساد، ففقدنا الشهية حتى عجزنا عن تناول الطعام المُعَدّ لنا، والمعروض على المائدة أمامنا. فارتشفنا جرعات معدودات من النبيذ، وحاولنا بجهد أن نمضغ لقمات صغيرات من المقبّلات العديدة.

مكثنا على هذه الحال حوالي ثلاثين دقيقة، ثم أشار بشير بالرحيل...

ودّع الرئيس المنتخب بيغين وداعًا باردًا، بل أكثر من بارد، ولم يكن وداعه شارون وشامير والباقين من الوفد الإسرائيلي أوفر حرارة. ثم اقترب ماندي مني

وهمس في أذني قبل أن نصعد إلى الباص قائلًا: «شارون يريدك أن تبذل قصارى الجهد لتهدئة الرئيس الجميّل، والتخفيف من غيظه بعد الحوار المفتقر إلى المودّة الذي جرى في الخلوة، فليكبت بشير غضبه ريثما يتمّ لقاء آخر في لبنان يعيد الأمور إلى نصابها وتأتي نتائجه على ما يرام». وعدته بأنني سأبذل جهدي.

ركبنا الباص وعدنا إلى القاعدة حيث كانت الطوافة تنتظرنا، فنقلتنا إلى لبنان يلفّنا الصمت التام، ولم ينبس أحد منا بكلمة واحدة. وكان النعاس قد ثقل على العيون والأدمغة، فاستراحت الأعصاب، وشملنا جوّ من اللامبالاة، أو على الأقل من الاستسلام لمشيئة القدر.

في تلك الطوافة، رأيت بشير يحدّق إلى الأفق الأسود من خلال النافذة، فبدا كأنه يخطّط لشيء ما في المستقبل، ليبتعد، ولو بالفكر والخيال، عن حاضر مقيت ومرفوض.

كانت الأفكار تتفاعل فيه، بل تتصارع. هذه تنبع من علاقات أقامها مع الإسرائيليين بصفته مقاتلًا يقاوم هجومًا شرسًا على لبنان ومقوّمات وجوده، وحريته وكرامته، وتلك تتسّرب من كونه رئيسًا لهذا الكيان، لهذه القيمة الحضارية التي اسمها: لبنان، وهي لا تحيا إلا باتحاد اللبنانيين جميعًا، وبتفاهمهم وتضامنهم في عيش مشترك وشعور وطني واحد.

وصلنا إلى شاطئ كسروان مع بوادر بزوغ الفجر. ولمّا نزلنا من الطوافة، دنا بشير مني وهمس في أذني قائلًا: «إحفظ تفاصيل الجلسة لك وحدك. إياك أن تطلع أحدًا على تفاصيلها. إذا تحدثتَ عنها فليكن حديثك تلميحًا. دعني أعرضها في الوقت المناسب، وبالطريقة التي أراها أوفر ملاءمة لمصلحة لبنان في الاجتماع الذي سنعقده بعد ساعات».

إنتقل كلّ منّا إلى بيته، واختلس من الصباح برهةً من نوم غير هادئ وغير مريح، وكلّنا استعداد لمواجهة يوم آخر من أيام «رئاسة بشير»، تلك الأيام الغنيّة بالمفاجآت، الحافلة بما لا يخطر في بال، ولا يساور أوسعنا خيالًا وأوفرنا استعدادًا لمواجهة المدهشات.

تقييم أولي لاجتماع نهاريا

عدنـا إلى اللقـاء في بيـت الرئيـس، في بكفيـا، بعـد انقضـاء ثمـاني سـاعات عـلى عودتنـا مـن «نهاريـا». وكنـا حـوالي عشريـن مـن رفقـاء بشـير المدنيـين والعسـكريين. وكانـت الجلسـة مخصّصـة لبحـث الزيـارة واسـتخلاص نتائجهـا.

دعـاني بشـير إلى الـكلام عـلى أن أوجـز مـا حصـل مشـدّدًا عـلى «الجـو العـام» الـذي جـرى فيـه الحـوار. فقلـتُ، بأقـلّ مـا يمكـن مـن الـكلام، إن اللقـاء لم يكـن كـما أردنـاه، ولا عـلى مسـتوى الآمـال التـي عقدناهـا عليـه، بـل كان عـلى جانـب مرمـوق مـن الجفـاف، فمنينـا فيـه بقسـط مـن التنغيـص والخيبـة لا يسـتهان بـه.

إكتفيـت بهـذا القـدر مـن التنويـه، تـاركًا لبشـير مجـال التوسّـع في الـشرح، وإعطـاء مـا يـراه مناسـبًا مـن المعلومـات، فـما أعطـى منهـا إلا القليـل. وشـدّد عـلى أن الجـوّ لم يكـن وديًّـا، وأن اللياقـة واللباقـة كانتـا مفقودتـين. فالإسرائيليـون أصرّوا عـلى أن يتجاهلوا وضعـه الجديـد، ومـا أرادوا أن يفهمـوا، ولـو برهـة واحـدة، أنـه أصبـح رئيـس الجمهورية اللبنانيـة، وأن صفتـه هـذه تفـرض بروتوكـولًا معينًـا وأصـولًا لا يجـوز الانحـراف عنهـا.

بعـد هـذه الملاحظـات الوجيـزة الـكلام، البعيـدة المـدى بالنسـبة إلى الاسـتياء المعتلج في نفـس بشـير، قـرّر أن تتألـف لجنـة مصّغـرة لمتابعـة البحث، وتقييـم النتائـج، وتخطيط المعالجـة في مختلـف الشـؤون المتعلّقـة بهـذا الموضـوع. ثـم حظّـر عـلى الجميـع أن يتابعـوا مـا كان لهـم مـن علاقـات مـع إسرائيـل، أو أن يقيمـوا علاقـات جديـدة.

وممّـا زاد الوضـع تأزمًـا، وجـاء «ضغطًـا عـلى إبّالـة»، كـما يقولـون، قيـام مكتـب رئاسـة الـوزارة في إسرائيـل، بتسريـب معلومـات عـن تلـك الزيـارة، كأنـه أراد عمـدًا إحـراج موقـف رئيسـنا المنتخـب الـذي اضطـر إلى تكذيـب تلـك المعلومـات عـن طريـق مكتـب الرئاسـة.

كانــت هــذه «اللعبــة» الإسرائيليــة بشــعة، وبعيــدة كل البعــد عــن اللياقــة، وحتـى عـن أبسـط قواعـد الديبلوماسـية التـي تبـدأ باحـترام نفسـها لتطالـب النـاس بـأن يحترموهـا، فتضاعـف غيـظ بشـير وازداد احتدامًـا، خصوصًـا لأنـه نـال وعـدًا مـن الإسرائيليـين الذيـن التقاهـم بـأن يبقـى هـذا اللقـاء سرًا مكتومًـا لا يتـسرّب منـه شيء. ولمـا تبـيّن أن هـذا الوعـد لم يكـن جديًّـا، كـرّر بشـير تشـديده عـلى منـع أي اتصـال بالإسرائيليـين إلا بمعرفتـه وبـإذن خـاص منـه.

مضى يومان ما توقّف الإسرائيليون خلالها عن بذل أقصى الجهود، وعلى أيدي أقرب الأصدقاء إليهم، لإجراء مقابلة جديدة مع الرئيس المنتخب، ولمتابعة البحث والعمل سعيًا إلى تأليف لجنة المتابعة الرباعية التي تم الاتفاق مبدئيًا على تأليفها، لوضع أسس العلاقات الجديدة بين الدولتين اللبنانية والإسرائيلية. ولكن بشير تشبّث بموقفه السلبي، وأبى أن يلتقي أحدًا من الإسرائيليين. ولا ريب في أن هذا الموقف الحازم أكسبه ارتياحًا نفسيًا عميق الغور، فنعم بالهدوء، وتقلّصت ثورة غضبه، وهدأ ما لمسناه فيه من الغليان والاحتدام، على أثر ما حصل في «نهاريا». وهذا ما أتاح لأصدقائه فرصة ذهبية للتفكير بإيجاد المخرج الأفضل، وبإعادة المياه إلى مجاريها.

ما عرفت بشير قبلًا كما عرفته في تلك الظروف الحرجة والبالغة الدقة. الكلمات القليلة التي قالها عبرت عن الجانب الجوهري والأساسي في تفكيره. المواقف الحازمة التي اتخذها دلّت على مراميه البعيدة. جرأته في المواجهة أثبتت أنه ينظر إلى المصير النهائي لا إلى المراحل العابرة. صلابته في الدفاع عن وجهة نظره أوضحت ما يريد وما يرفض. وخلاصة تفكيره ومراميه والغاية التي إليها يسعى هي: لبنان الحر السيد المستقلّ المنيع في نطاق كيلومتراته الـ ١٠ ٤٥٢.

في سبيل هذا الهدف ترخص الدماء والأرواح، وتسهل الصعاب، وتُعقد الاتفاقات مع الشرق والغرب، مع الشمال والجنوب، مع البشر أو القرود، مع الملائكة أو الشياطين.

لبنان هو الأوّل. هو الوحيد. هو الذروة والثروة. هو الحياة والعزّ. هو الألف والياء، البداية والنهاية، الكرامة والشرف، الأرض والسماء، الكلّ بالكلّ.

من لا ينظر إلى بشير من هذه الزاوية، ومنها وحدها، لا يمكن له أن يعرف بشير ولا أن يفهمه. ومن لا يعرفه ويفهمه لا يستطيع أن يحبه ويحترمه ويفديه إذا دعت الحاجة.

كثيرون عرفوه معرفة عفويّة لا تحتاج إلى تفكير وتحليل. كثيرون فهموه بالفطرة والسليقة من غير أن يدرسوا ويبحثوا ويتفهّموا، ولكن كثيرين أيضًا ما أرادوا أن يعرفوه ولا أن يفهموه. فمنهم من وقف حياله لا مباليًا، ومنهم من ناصبه

العداء. وها هنا الخطأ الكبير، الخطأ التاريخي الذي جعلنا، نحن اللبنانيين نتبعثر في الحيرة، نتفرّق في الارتباك، نتشرذم في الاضطراب.

ما كان العدد يومًا قوة قاهرة. ولا كانت القوة الماديّة العمياء قادرة وحدها على تقرير المصائر. إتحاد الشعوب على مطلب حق، الاتحاد المؤمن، المستعد للبذل يدًا واحدةً، وقلبًا واحدًا، وإرادةً تفل الفولاذ... هذا وحده «القيمة» القادرة على إثبات وجودها، على فرض احترامها، على وضع ما يعتبره السطحيّون معجزة.

بشير الجميّل كان يحتضن في نفسه هذه «القيمة». كانت حرارتها تجري مع دمه، تختلج في أعصابه، تنساب صريحة، بليغة، واضحة في تلافيف دماغه.

إضطر إلى الاتصال بالإسرائيليين، لأنه في المراحل العصيبة ما رأى غيرهم يمّد له يد المساعدة.

لا يستطيع أحد أن يزايد عليه في معرفة التاريخ، في رؤية «مصالح» الشرق والغرب، في الاطلاع على ألاعيب السياسة، وخبث وسطاء الشرّ، ورياء السياسيين، ولكنه رأى نفسه معزولًا، ورأى لبنان على كفّ عفريت، فما كان له مفرّ من اللجوء إلى العفاريت. فلبنان عنده قدس الأقداس.

لو رأى من «الأشقاء» و«الأصدقاء» والذين يسمّون نفوسهم «إخوانًا» في «القومية» و«حلفاء طبيعيين» و«شركاء في التاريخ» وخلّان في «وحدة المصير»... لو رأى من هؤلاء جميعًا، أو من بعضهم لفتة محبّة، أو بادرة تعاون، أو حتى نظرة تأييد أو رضى، لما ذهب إلى «نهاريا»، ولما التقى شارون وبيغين وشامير وغيرهم.

المسؤولون عن اتجاهه جنوبًا هم الذين أحرجوه فأرغموه.

التغنّي بالشعارات الجوفاء سهل.

الاتهام بالعمالة ميسور، خصوصًا للذين يسخّرون الضمير للعراضات الغوغائية، ويكمون فمّ الوجدان بالأكاذيب الوقحة.

ولكن الإذعان للشرّ الذي يحاول قتل وطن «معبود» اسمه لبنان ليس سهلًا على إنسان له قماشة بشير، وشجاعة بشير، وإقدام بشير على مصارعة القدر.

ذهب إلى إسرائيل عازمًا على أن يكون هناك مَن هو.

ما تخلّى عن ذرّة ممّا أراده للبنان. ولمّا قوبل بالتلاعب، ارتدّ مصممًا على الرفض، والمقاومة مهما يكلّفه الأمر.

وأوضحت الوقائع أن إسرائيل أدركت حقيقة الرئيس المنتخب، وأن زعماءها اقتنعوا بأن كتف بشير لا تؤكل بسهولة، ولا حتى بصعوبة. لذلك قرروا أن يعدّوا إلى العشرة قبل الإقدام على مباحثات جديدة، وقبل أن يعمدوا إلى ذلك الأسلوب الذي يمسّ الشعور، والذي تورط بيغين فيه متذرّعًا بما يعاني من ألم في رجله.

لم يكن بشير عميلًا يوم كان مقاتلًا صغيرًا مغمورًا، بل كان حليفًا أو شبه حليف، فهل يُعقل أن يصبح عميلًا وهو رئيس الجمهورية في بلد يستأثر بكل ما فيه الحب؟



دورة برمانا مع الرئيس بشير الجميل والسيدة فيفيان الجميل فريحة - ١٩٧٢.

مع رئيس اتّحاد التزلّج الدكتور إميل رياشي في افتتاح دورة التزلّج ١٩٨٧.

مع بشير وشارل مالك وفيصل إرسلان أثناء انتخاب بشير للرئاسة.

إفتتاح مركز التزلج في فاريا مع اتحاد التزلج و١١ OCP.

إفتتاح المسبح الشعبي في المعاملتين - ١٩٨٧.

مع قائد الجيش فكتور خوري في الفياضية في عيد الاستقلال - ١٩٨٢.

مؤتمر أديناور في بون - ألمانيا - ١٩٨٨.

توقيع كتاب فرع الجامعة الأميركية مع جورج سعادة - ١٩٩٤.

مؤتمر أديناور في بون. المحاضران جورج سكاف وجورج فريحة - ١٩٨٨.

مباراة ودية بين الجيش السوري وابناء نبتون - ١٩٩٤
ويبدو العميد زياد وحمصي وزيد خيامي.

دورة الأشرفية في ENB - ١٩٨٢.

إفتتاح قاعة بشير الجميل في ابناء نبتون ENB - ١٩٨٦.

مدرسة التايكواندو في نادي ابناء نبتون ENB - ٢٠٠١.

تكريم أقدم اللاعبين والإداريين في ENB أنطوان خضرا - ١٩٩٥.

زيارة الوزير حبيقة للـ ENB - ١٩٩٥.

نهائي دورة برمانا ١٩٧٣ بحضور الرئيس كامل الأسعد. بيار أشقر يظهر في الصورة.

مع أبو الرياضة ناصيف مجدلاني في الـ ENB.

الفصل الثالث عشر:

شارون يصلح العلاقة

بعـد اتصـالات عديـدة، ومحـاولات بذلهـا الأصدقـاء والمستشـارون مـن الجانبَـين، وكنـت أنـا شـخصيًا مـصرًّا عـلى انعقـاد هـذا الاجتـماع مـن أجـل لبنـان أولًا، مـن أجـل أحقيـة التاريـخ. تقـرّر عقـد لقـاء بـين بشـير وشـارون في بكفيـا، ليـل ١٢ أيلـول ١٩٨٢، عـلى أن يكونـا وحيديـن، لجـلاء الغوامـض، وفتـح صفحـة جديـدة، وصرف النظـر عـما مـضى.

وأراد بشـير أن أكـون وحـدي إلى جانبـه في ذلـك اللقـاء التاريخـي، الـذي أيضًـا بقيـت تفاصيـل مداولاتـه طـيّ الكتـمان نحـو خمسـة وثلاثـين عامًا.

وصلـت يومـذاك قبـل شـارون إلى بيـت الرئيـس، في السـاعة السادسـة مـن مسـاء الأحـد ١٢ أيلـول ١٩٨٢. وكان بشـير يشـاهد عـلى شاشـة التلفزيـون الحفلـة التـي حضرها في بطريركيـة الأرمـن في إنطليـاس. جلسـتُ إلى جانبـه حتـى انتهـت الحفلـة، ثـم طلـب إليّ أن أقبّلـه لأنـه «سـمع الكلمـة» وأعطـى أخـاه أمـين دورًا بـارزًا في الحكـم، بعـد جلسـة اسـتغرقت، بحسـب قولـه، ثـلاث سـاعات، اتفـق معـه خلالهـا أن يكـون مبعوثًـا رئاسـيًا إلى الـدول العربيـة ويتـولّى العلاقـة بـين بعبـدا ومجلـس النـواب.

وصـل شـارون في السـاعة الثامنـة والنصـف. فعانـق بشـير طويـلًا، ثـم انتقلنـا إلى غرفـة داخليّـة، في وسـطها طاولـة عليهـا أصنـاف عديـدة مـن الطعـام: شرائـح سـمك السـلمون المدخّـن، قريـدس، خـروف محـشي، كبـة مشـوية، كبـة بالصيّنيـة، أنـواع مـن اللحـوم، كنافـة، بقـلاوى، أقـراص حلـوى، كاتـو، فواكـه لبنانيـة، وضعتهـا السـيدة صولانج دفعـةً واحـدة، كيـلا تضطـر إلى الدخـول، في أثنـاء الاجتـماع، لتقديـم هـذا الصنـف أو ذاك.

والمعروف عن شارون أنه بَطِنٌ شديد النهم، حتى ليكاد لا يعرف الشبع.

صُـبّ النبيـذ في الكـؤوس، وباشرنـا تنـاول الطعـام عـلى مهـل، كأننـا نمزمـز عـلى ضفـة الـبردوني في جـوّ مـن الأنـس والصفـاء. وكان شـارون يحـبّ العـرق اللبنـاني، فـشرب

كؤوسًا أتت على أكثر من نصف القنينة، وكانت شهيته مفتوحة على الكبّة لأنه من دون مبالغة التهم نصف صينية الكبّة.

شاء الرجلان، الضيف والمضيف، أن يتحدّثا عن الطعام، أن يُبديا آراءهما في النكهة، والمذاق، ونوع الغذاء، وسهولة الهضم، إمعانًا منهما في رفع الكلفة، وتوثيق المودّة بينهما وتعزيز الأواصر التي نسمّيها «الخبز والملح» بين أصدقاء تعاهدوا على التعاون في السرّاء والضّراء، وهذا كلّه يرمز إلى التقارب والتآخي اللذين لا يقتصران على شخصين، بل يشملان شعبين.

هما كانا يأكلان. وأنا كنت أكتب.

إفتتح شارون الحديث السياسي سائلًا عن صحة الرئيس والرفقاء، ثم استطرد سائلًا: كيف تجري الأمور؟

بشير: إنها في تحسّن. والوضع هادئ.

شارون: شكرًا على هذه الدعوة. أنا عضو حديث العهد في الحكومة. ويؤسفني جدًا ذلك التوتّر الذي ساد الجو في لقاء نهاريا. جئت إليك من غير أن يعلم رجال الأمن إلى أين ذهبتُ ومتى أعود. أتيتُ لأرى عن كثب كيف حال الناس هنا، وكيف يعيشون.

بشير: إني لآسف جدًا لما حصل في اللقاء السابق. ولا ريب عندي أنك تدرك بأية حالٍ عدت إلى لبنان. ما توقّعتُ مطلقًا أن أصطدم بمثل ذلك الجوّ الجاف الذي واجهتموني به في أثناء تلك الزيارة... كلّ ما حدث في الجلسة التي عقدناها لم يكن منتظرًا. كان يقع بيننا، فيما مضى، سوء تفاهم، إلا إننا كنّا نجد له حلًا بسرعة وسهولة. لم نواجه قبلًا، في علاقاتنا الطويلة، وضعًا مؤسفًا كالوضع الذي واجهناه في نهاريا. في أيّام الضيق، كانت علاقتكم بنا تتسم بالطابع الإنساني الودود، وتتخذ شكلًا مختلفًا عن أشكال العمليات السياسية. وكانت اتفاقاتنا تدور عن كيفيّة إنجاز العمل، وتوفير الوسائل الكفيلة بإنجاحه، ولم يخطر في بالنا يومًا أن نضع شروطًا تُعرقِل ولا تُسَهّل... فاجأتموني بأمور لا شأن لها في وضعنا الحاضر، ولم يحن بعد وقت درسها واتخاذ القرارات اللازمة لها. أردتم أن تعلموا قبل الأوان كيف سيكون تعاملنا مع السوريين على أرضنا، كيف ستكون تفاصيل معاهدة السلام،

وحتى معاهدة الدفاع المشترك... فهل هذا ممكن في هذه المرحلة الحساسة من مسيرتنا؟ لمّا ذهبت إليكم واجهت وضعًا لم يخطر في بالي لحظة واحدة. أحسستُ أننا نتخاطب بلغتين مختلفتين، بل متناقضتين. إرتبكتُ وتضايقتُ إلى حدّ قصيّ، حتى أني لم أعد أدري عمّا نبحث، ولماذا نتحاور، وماذا نريد. وبعدئذٍ، لمّا رفضت أن أقابل أحدًا منكم، لم يكن رفضي مقتصرًا على التصلّب، بل كان نتيجة وقوعي في حيرة مزعجة، رحتُ فيها أسائل نفسي: هل يمكن أن يكون حديثنا المقبل بلغةٍ واحدة؟ هل من سبيل إلى التفاهم على مستوى يسود فيه الحق، وتصان الكرامة. أصارحك بأني خشيت أن نعود إلى ما كنّا عليه إذا نحن التقينا مرةً ثانية... وَجّه بيغين إليّ كلامه كأني فلسطيني أو سوري. ما لمستُ في كلماته ولو نبرة تُشعِرني بأني صديق. والآن، ما دمنا هنا، أرجو أن أحظى منك بتفسير لما حصل، وبالاعتبار الذي تقيّمون به ما أنجزنا على الصعيدين السياسي والعسكري. هل سنعطّل كلّ شيء، ونجّمد كلّ نشاط، لأن بيغين اجتمع بواينبرغر، وخرج من لقائه بحالٍ نفسيّة سيّئة؟ ماذا جرى؟ ما الذي أستطيع أن أفعله لك شخصيًا، أنت آرييل شارون، قبل أن نعطّل المسيرة كلّها؟ نحن صديقان. أهلًا بك. فلننسَ ما مضى.

شارون: أشكركَ على هذا الاستقبال الكريم. أريدك أن تعلم أني، بعد لقاء نهاريا، دخلتُ غرفتي حزينًا. أودّ أن أعتذر مخلصًا. لم يكن مكان اللقاء يليق باستقبال رئيس الجمهورية، إلا أنه كان قريبًا من نهاريا. ضاق بنا الوقت. لم يتيسّر لنا حتى الحصول على سيّارة لنقلّك مع رئيس حكومتنا مجتمعَين. جاء كلّ منكما وحده. فكان ما كان.

بشير: لم تكن هذه هي المشكلة!...

شارون: هناك أمور تقنيّة. سأدخل مباشرة في صميم الموضوع. سأتوغّل في الصلب. أعرني انتباهك. كان رئيس الحكومة، منذ أسبوع قبل اللقاء، متألمًا أشدّ الألم، لأنه لم يسمع منك كلمة شكر واحدة. أنا صديقك. والصداقة تحملني على مصارحتك بأمور أعتبر إطلاعك عليها مفيدًا، بل ضروريًا. كثيرون في إسرائيل لا يفهمون حقيقة الأوضاع في لبنان، كما أنّ بين اللبنانيين كثيرين لا يعرفون أوضاعنا الداخلية في إسرائيل. خضنا حربنا الأخيرة في ظروف غير مريحة واجهنا خلالها صعوبات لا يُستهان بها على الصعيد الداخلي. وجّه إلينا معارضو هذه الحرب

نقـدًا قاسـيًا. وهُزِمـتُ أنـا شـخصيًّا في مجلـس الـوزراء، ومـررت بأيـام صعبـة، وتلقّيـتُ أنواعًـا مـن الشـجب والتقريـع. وتعـرّض رئيـس الـوزراء لحملـة عنيفـة مـن المعارضـة الشـديدة والضغـط الهائـل. وفي ١١ حزيـران، لمّـا قابلتَـه أنـت، تدخّـل شـخصيًا، ووضـع ثقـل مسـؤوليته في الميـزان مـصرًّا عـلى أن تدخـل قواتنـا لبنـان، مـن غـير أن يبـالي بضجّـة الاسـتنكار العـارم التـي أحدثهـا هـذا القـرار في صفـوف الشـعب الإسرائيـلي. عقـدتُ ٥٤ اجتماعًـا معـك، ومـع جـوني عبـده، وفيليـب حبيـب، عـلى مـدى ثلاثـة أشـهر، ثـم جئنـا إليكـم. مُنينـا بخسـائر جسـيمة: ٣٤٠ قتيـلًا، ٢٢٠٠ جريـح إصابـات كثيريـن منهـم خطـيرة. وأنـا أدرك أكـثر مـن غـيري مـا تعنيـه هـذه الخسـارة، ومـا هـو تأثيرهـا في وضعنـا الداخـلي. كنـتُ معـك، ولكنـي كنـت أيضًـا مـع جنـودي. وكنـا ننتظـر جميعًـا أن يقـال كلام يـدلّ عـلى أن تضحياتنـا لم تذهـب سـدىً، بـل قُـدِّرت حـقّ قدرهـا. وكان هـذا الأمـر بالـغ الأهميّـة بالنسـبة إلينـا. ولا يصعـب عليـك أن تتصـوّر مـرارة أسـفنا لمّـا تبـيّن لنـا أننـا معتـبرون كإحـدى القـوى الموجـودة عـلى أرض لبنـان، والمطلـوب منهـا، أو المفـروض عليهـا هـو أن تنسـحب... لمّـا جئنـا لمسـاعدتكم مـا كنّـا مدفوعـين بحافـز إنسـاني فقـط، بـل لأنكـم دولـة صغـيرة مثلنـا، ولأن مصيركـم يشـبه مصيرنـا. فلـمّا هاجـم العـراق الأكـراد سـاعدناهم. أرسـلنا إليهـم أطبـاء ومعاونـين وجنـودًا. أمـضى رجالنـا هنـاك سـنوات يقاتلـون في الجبـال، ولم نكـن ننتظـر مكافـأة عـلى عملنـا هـذا. مددنـا يدنـا للأكـراد لأنهـم صمّمـوا عـلى نيـل حريتهـم، وأوشـكوا أن يصلـوا إلى هدفهـم لـولا كِسـنجر... أقـول لزمـلائي الـوزراء كلّـما التقيتهـم: إننـا مصمّمـون عـلى إزالـة منظّمـة التحريـر الفلسـطينية مـن الوجـود، وعـلى اقتلاعهـا مـن الأرض التـي تتحـرّك الآن عليهـا. ولمـا سـألتك أن تعطينـي خريطـة أسـتدلّ منهـا عـلى مواقـع بيـوت النـواب اللبنانيـين ضحكـتَ سـاخرًا. وكذلـك كان الأمـر بالنسـبة إليـك أنـت، فحـين حدّثـتُ الأميركيـين والإسرائيليـين عـن احتـمال مجيئـك رئيسًـا للجمهوريـة اسـتخفّوا بقـولي هازئـين. قلـتُ لهـم: سـجّلوا عـليّ أن مـا أقولـه الآن سـيكون... إنتظـروا هـذه المفاجـأة، فضحكـوا. ولـن أنـسى تلـك الأيـام مـن تمـوز وآب، حـين كنـت تأخـذني إلى المدينـة، فنتحـدّث عـن أعـمال نسـتطيع إنجازهـا معًـا. لم نكـن ننتظـر منـك الكثـير في الآونـة الأخـيرة. كلـمات حلـوة قليلـة عنّـا كانـت تكفينـا عـلى الرغـم مـن الجهـود الكبـيرة التـي بذلناهـا، ومـن التضحيـات الباهظـة التـي قدّمناهـا.

بشير: سيصدر هذا الأسبوع حديث أدليت به إلى جريدة «تايم مغازين» فيه ما تريد. وإذا كان هذا ما تطلبون، فستحصلون عليه. وما عليكم إلا أن تقولوا لنا ماذا تريدون، إذا كان لكم مطلب آخر.

شارون: بيغين يحبّك أكثر مما تظن. لا ننكر أنه أُهين إهانة مريرة. وتعرّض لضغط مرهق، فبلغ استياؤه أقصى حدوده. فبعد تضحياتنا كلّها، واليوم بالذات، أطلقت علينا صواريخ « سام - ٩». أؤكد لك أننا سنضرب المعتدين، سنضربهم بلا هوادة. إننا نرفض الاستنزاف رفضًا باتًا، ولكن تصريح الرئيس شمعون وصمّتك أنت أساءا إلينا، وخصوصًا إلى رئيس حكومتنا بيغين.

بشير: إذا كان هذا هو الطرح الوحيد فتصحيح ما تعتبرونه خطأ ممكن، بل ميسور.

شارون: سأطلعك على الأسباب التي فرضت التجهّم على لقائنا في نهاريا، ثم أحدّد باختصار ما نريده منكم. أنا واثق بأن علينا أن نتحاشى ذلك الجوّ. كان يجب أن تقال عبارة أو بضع كلمات عن تضحياتنا وجهودنا، أو عن العلاقات التي ستقام بيننا في المستقبل. هذا ما لم يحصل. إنه ماضٍ يجدر بنا أن نصرف عنه النظر الآن. لقد غادرتَ أنت نهاريا خائبًا غاضبًا. لم يرضك ما كان. أما أنا، فذهبت إلى منزلي منزعجًا. أمضيت ساعات من الأرق المرهق. هجرني النوم. يحسن بنا ألّا نتحدث عن هذا اليوم المشؤوم. أتذكّر جيدًا أنك سألتني، يوم كنّا في بيت مري: «ما الذي سنفعله، نحن اللبنانيين الأحرار، إذا نشبت الحرب؟» قلتَ هذا وحوّلتَ نظرك إلى بعبدا، ظنًّا منك أنها ستكون هي الهدف. ولكن قوّاتك، وعلى رأسها بوسي (مسعود الأشقر)، فوجئت بوصولي إلى كفرشيما في طليعة الجيش الإسرائيلي، وأنا في البزّة العسكرية، أعتمر الخوذة الفولاذيّة... لمّا وصلنا إلى بيروت قلتُ لك إننا غير مستعدّين للتوغّل في قلب المدينة. ضربناها بالمدفعية وسلاح الجوّ، ولكننا لم ندخل الشوارع. يسرّني أن يكون الأميركيون على استعداد لمساعدتك، لكّنهم لن يعطوك ما تريد من السلاح. قد تكون مساعدتهم اقتصادية إلى جانب كميّة ضئيلة من الأسلحة. دعني أختصر ما أريد قوله: في إسرائيل انزعاج وخيبة أمل. إني أنظر إلى رئيس الوزراء بيغين كأنه طالب جامعة هجرته صاحبته وذهبت إلى طالب آخر. لم يكن يتوقّع منك الكثير. كان مستعدًا للاكتفاء بكلمات طيّبة قليلة.

لو فعلتَ ذلك لتغيَّرت الصورة كلّيًا. ولم يكن بيغين وحده في هذا الوضع. شعرنا جميعًا بالصدّمة. هذا ما كان. ولا سبيل إلى تعديله. أما المشكلة الآن فهي أن هناك مجموعة مشكلات آنية نشأت بسرعة ولا بدّ من حلّها. لن نتخذ قرارًا بشأنها قبل بحثها، وقبل التنسيق معك بشأنها، أولًا في بيروت الغربية. لقد رحل عنها خمسة عشر ألفًا من الفلسطينيين والسوريين. ولكن فيها مكاتب ما تزال تعمل، منها، مثلًا، مكتب شفيق الحوت، فهو يتلقّى تعليمات من أحمد جبريل، وينقلها إلى جهات يهمها هذا الأمر، خصوصًا إلى أولئك الذين أبقاهم جبريل في بيروت وهناك أيضًا حوالي ألفين من جماعة جورج حبش.

بشير: معلوماتنا تقول ١٥٠٠.

شارون: ننوي أن نجعل بيروت مدينة مفتوحة وآمنة، لنتمكّن من القضاء على المشاغبين ومعكّري الأجواء. السيد درايبر أتى إلى إسرائيل منذ بضعة أيام، وسأل عمّا نعنيه «بالمدينة المفتوحة». أجبته: «نعني أني إذا دخلتها أستطيع النوم في فندق كومودور». متى سيتيسّر لي ذلك؟ ومتى أستطيع اعتبار بيروت مدينة آمنة؟ أودّ أن أعرف رأيك في هذا الأمر. ما هو تفكيرك في هذا الموضوع؟ أنا أريد أن أدخل المدينة، وأقتل الأعداء أو أحتجزهم. قل لي أنت ما رأيك في ذلك؟ كنتُ في بئر حسن، ثم ذهبتُ إلى السفارة الكويتية للقضاء على المشاغبين. من الضروري أن يؤذن لنا بدخول المدينة.

بشير: هذا غير ممكن الآن. ليس الأمن مستتبًّا.

شارون: لا أعني نفسي بما أقول، بل أعني جنودي. لماذا لم ندخل المدينة بعد؟ لأن فيها قوات متعددة الجنسيات والانتماءات. لو أننا دخلنا لبقيت هذه القوات حيث هي. وقد بذلنا جهدًا كبيرًا ليدخل الجيش اللبناني. فاليوم سيرحل الأميركيون. وبعد غدٍ يلحق بهم الإيطاليون والفرنسيون.

بشير: تستطيع دخول المدينة إذا وافقت الحكومة اللبنانية، وهذا غير ممكن اليوم.

شارون: لدينا أسئلة عديدة عن كيفيّة تنظيف بيروت الغربيّة.

بشـير: الجيـش اللبنـاني ينظفّهـا. إليـك بمثـلٍ مقنـع: لمّـا أراد الجيـش دخـول بعـض المناطـق، تصـدّى لـه أنصـار الثـورة، فاسـتطاع مواجهتهـم والتغلّـب عليهـم. إجتمعـت بفئـة مـن مغاوير جيشـنا، وأفهمتهـم أني لا أسـتطيع اليـوم أن أصـدر إليهـم أوامـر، ولكـن هـذه الأوامـر سـأصدرها بعـد ٢٣ يومًـا. فكانـت معنويّاتهـم عاليـة، وشـعروا بأننـا نفخنـا في صدورهـم روحًـا جديـدة، وجعلناهـم يؤمنـون بقضيـة، ويعاهـدون نفوسـهم عـلى بـذل الدمـاء والأرواح دفاعًـا عنهـا. وقـد بـدأت نتائـج استبسـالهم تظهـر بوضـوح لا مجـال فيـه للشـك. ففـي بـرج البراجنـة قـام الجيـش بأعـمال جديـرة بالإعجـاب. وهـو يتقـدّم إلى الداخـل. وسـنحكم الطـوق تدريجيًـا عـلى بـيروت لتصبـح كلّهـا في ظـل السـيطرة اللبنانيـة.

شـارون: هـل تريـد أن تتحـرّك قواتنـا بحرّيـة في بـيروت الغربيـة؟ أنـا شـخصيًا أفضّـل أن تبقـى قواتنـا في خـارج بـيروت. وسـنتصرّف تصرّفًـا شرّعيًـا مـع جماعتـك لقتـل الفلسـطينيين أو سـواهم. هـل تريدنـا أن نشـترك في هـذا العمـل؟ إذا قلـت: لا، فنحـن حريصـون عـلى أن لا نحـرج موقفـك. قـلْ لي بصراحـة، هـل تريـد أن تبقـى قواتّنـا حيـث هـي الآن؟

بشـير: لا تدخلـوا بـيروت الآن. قطعًـا لا يجـوز أن تدخلوهـا الآن. إبقـوا حيـث أنتـم. وجودكـم هـو بمثابـة قـوّة ضاغطـة تجعـل الجيـش اللبنـاني أوفـر قـدرة عـلى التحـرّك في مناطـق مختلفـة، فيطّهرهـا وينـشر فيهـا الهـدوء والآمـان.

شارون: وإذا ذهب جيشكم إلى صبرا وشاتيلا، فهل تريد أن تتحرّك قواتنا وراءه؟

بشير: أظن أن جيشنا قادرًا على العمل وحده.

شارون: أتريد أن يكون تحرّك قواتنا بطيئًا وهادئًا وراء جيشكم؟

بشير: غدًا أعطيك ردّي على هذا السؤال.

شارون: هل ستذهب قوّاتنا وراء جيشك إلى المدينة الرياضيّة وصبرا وشاتيلا؟

بشـير: نعـم. إذا شـئتَ التحـدّث عـن هـذه التحـرّكات فعليـك أن تقـول إن الجيـش اللبنـاني هـو الـذي دخـل هـذه الأماكـن، وإن القـوّات الإسرائيليـة مـا جـاءت إلا بعـده لتأخـذ علـمًا بـأن كلّ شيء جـرى عـلى مـا يـرام. في وسـعكم أن تأتـوا بعدنـا لـتروا أن

العمليّات تُنفَّذ على الوجه الملائم. لا يجوز أن يظن أحد أنكم تنسّقون مع الجيش اللبناني. نسّقوا ما شئتم مع «هورس» (فادي افرام)، وميشال عون، وأمير دروري. الجيش فوق الشبهات. وهكذا يجب أن يبقى. وليس من المستحسن أن ننتظر إلى غدٍ لنباشر العمل، فلنبدأ منذ الآن، ولتكن مسيرتنا خطوة خطوة. إننا نقوم بعملية «سلامي».

شارون: إذًا، فالوقت غير مناسب للقيام الآن بأعمال استعراضيّة في بيروت الغربيّة.

بشير: ليست هذه المنطقة آمنة. قد يتعرّض جنودكم للخطف والقتل.

شارون: لي سؤال عن المرفأ. كنا مسيطرين على قسمٍ منه. إذا كنتم لا تريدون ذلك، فإننا مستعدّون للانسحاب منه. سمعنا بأن جماعة من الإرهابيين تنوي مغادرة لبنان. وسنسحب قواتنا بعد رحيل هذه الجماعة إذا شئتم.

بشير: في وسعنا أن نستولي على المرفأ كلّه.

شارون: تريدون إذن أن نغادر المرفأ.

بشير: سنكون نحن هناك.

شارون: لنفترض أن الجيش اللبناني يتقدّم ونحن وراءه، فكيف سيكون الوضع في المستقبل؟ وما هي الحال التي سيكون جنودنا فيها متى أحكم الجيش اللبناني سيطرته التامة على الوضع؟

بشير: عندئذٍ تذهب أنت وعائلتك إلى فندق الكومودور، ونذهب نحن لنزورك هناك.

شارون: دعني أسأل عن جهاز استخباراتك. هل تستطيعون التحرّك بسرعة في بيروت الغربية؟

بشير: سيحصل تنسيق بين إيلي حبيقة وجوني عبده على أرفع مستوى. وهما ينسّقان مع جماعتك على مستوى رفيع أيضًا.

شـارون: الفلسـطينيون مـا يزالـون يبحثـون عـن مخابـئ ليسـتأنفوا أعمالهـم التخريبيـة. ومصلحتكـم تقـضي بـأن نتحـرّك وننسّـق. والأفضـل لنـا أن نبـاشر عمليّـة التطهـير في أسرع مـا يمكـن.

بشير: نحن مستعدّون. سنعمل ما يجب على يد إيلي حبيقة.

شارون: ما هي المدّة التي يستطيع الجيش أن يسيطر فيها على المنطقة كلّها؟

بشـير: لـن تنتهـي قبـل منتصـف تشريـن الأول. مـا يـزال جيشـنا محتاجًـا إلى تعزيـزه عديـدًا وعتـادًا ومعنويًـا. ولكـن السـعي مسـتمّر في هـذا الاتجـاه. وسننسّـق معكـم. وبقـدر مـا يكـون التنسـيق قائمًـا بـين فـادي ودروري، وبـين إيـلي ورجالـك، تـأتي النتائـج سريعـة ومثمـرة.

شـارون: إذا تلقّينـا معلومـات عـن تحـرّك أحـد مراكـز الفلسـطينيين، كمركـز شـفيق الحـوت، مثـلًا، أو غـيره، وتدخـل مغاويرنـا لقمعـه، فـما هـو الموقـف الـذي سـتتخذونه مـن هـذا الأمـر؟

بشير: إفعلوا ما تسمح به إمكاناتكم.

شارون: نفضّل التعاون معكم. متى سيرحل الفرنسيّون؟

بشـير: ربمـا الثلاثـاء. قالـوا إنهـم سـيبقون إذا طلبـت الحكومـة اللبنانيـة إليهـم البقـاء، لكنهـا لـن تطلـب.

شـارون: لمـّا وصلـت قواتنـا إلى بـئر حسـن، اتصـل واينبرغـر بواشـنطن التـي اتصلـت فـورًا بشـفيق الـوزان ليطالـب بإنسـحاب القـوات الإسرائيليـة. نحـن نفضّـل ألاّ ندخـل قبـل ٢٣ مـن هـذا الشـهر. وبعـد هـذا التاريـخ لـن تطلـب أنـت إلينـا أن نرحـل. سـنكون عندئـذٍ في موقـف حـرج. أني أعلّـل الأمـل بـأن يتمكّـن الجيـش اللبنـاني، في المسـتقبل، مـن الحلـول محلّنـا متـى غادرنـا لبنـان. وأعتقـد أنـك سـتجد عاصمتـك مدينـة موحـدة، فـلا يبقـى أي عائـق يحـول دون دخـول قواتنـا إلى هـذه المدينـة.

بشير: سيكون الوضع آمنًا في مختلف الأماكن كما هو الآن في هذا المكان.

شـارون: سـيأتي يـوم نصبـح فيـه محتاجـين إلى تغطيـة منـك. فنخـرج فـورًا حـين تطلـب إلينـا أن نخـرج. هـذا سـيكون بعـد تطهـير المدينـة.

بشير: أوافق على ما تقول.

شارون: لنتناقش في موضوع الأميركيين. هم يقولون لنا دائمًا إن الحكومة اللبنانية تريد هذا وتريد ذاك. وكنت أجيبهم بأن على الحكومة اللبنانية أن تقول لنا مباشرة ما تريد. لا نريد أن تكون مباحثاتنا معك عبر الأميركيين، فما رأيك في هذا الأمر؟

بشير: أنت تعلم كم عانينا من كون الأميركيين لا يفهموننا. أنتم بذلتم جهودًا كبيرة لتغيير هذا الواقع، ولجعل الأميركيين يفهموننا. فهم الآن يعتبروننا عنصرًا مهمًا في البلد. قلت لك: إذا نشب نزاع بينكم وبين الأميركيين، فلا يجوز أن تنعكس نتيجته علينا. يجب أن نبحث كيف ستكون العلاقات في المستقبل بين إسرائيل وأميركا. نحن عانينا الكثير لأنكم ما أدركتم حقيقة الأميركيين وما فهمتموهم. لقد بدأوا اليوم ينظرون إلينا نظرة ودية ويحملوننا على مسايرتهم. ومهما يكن الأمر، فهذا موضوع على جانب من الأهمية، يستحق أن نخصّص له جلسة ندرسه فيها درسًا عميقًا وشاملًا. ويجب أن نكون نحن الثلاثة في هذه الجلسة لتوضيح الأمور على اختلاف أنواعها ومستوياتها.

شارون: لا نريد أن تزداد علاقاتنا بالأميركيين سوءًا. فهي الآن غير حميمة. لمّا أنذرناهم بأننا سندمّر المفاعل النووي في العراق ما صدّقونا. ولمّا أخبرناهم أيضًا أننا سندخل لبنان ما صدّقوا. لسنا على استعداد لمفاوضتهم. علاقتنا الآن، هي مع الرئيس بشير الجميّل وحكومته. لن نتعامل معك الآن بطريقة تختلف عن طريقتنا السابقة، هذه الطريقة المستمرّة والباقية على حالها حتى هذه الساعة. طولبنا بِاسم شفيق الوزّان بالانسحاب من بيروت. أجبنا أن على الوزّان أن يخاطبنا مباشرة إذا أرادنا أن ننسحب. لا نريد أن تكون الولايات المتحدة الأميركية ساعي بريد بيننا.

بشير: أوافق على ما تقول. فحين تأتي إلى منزلي، أو أذهب إلى منزلك، لا نحتاج إلى وسيط بيننا. أما الاتفاق الاستراتيجي والسياسي فكيف نحقّقه ونعمل به؟ الحكومة التي سأؤلفها ستكون كما أريدها، وستوقّع ما أريد، وستكون متناسقة، ولن يكون فيها الوزّان، ولن يدخلها جنبلاط، أو قليلات، أو عرفات.

شارون: لنفترض أن الحكومة أرادت منا شيئًا أو عملًا معيّنا، فأنّي أفضّل أن أبحث هذا الأمر معك أنت، وبصورة مباشرة.

بشير: كنّا نعمل على هذه الطريقة منذ سنوات، فلماذا نغيّر اليوم نهجنا؟ إذا ألفّنا حكومة لبنانية قوية سيكون لفيليب حبيب موقف آخر. وسيكون الوضع مع الحكومة المقبلة غير ما هو الآن.

شارون: دعنا نعمل ضد السوريين. هل يزعجك هذا؟

بشير: كلا، سأكون مسرورًا، والجيش اللبناني سيساعد.

شارون: سنهاجم صنّين بسلاح الجوّ. وحين تتحرك قواتك يجب أن ننسّق معكم، وأن تكون عملياتنا مشتركة.

بشير: أنتم تعملون في الجوّ، ونحن على الأرض. ولكن لدّي نقطتان تستوجبان البحث:

أولًا: المطار، وهو يواجه ثلاث مشكلات:

الأولى: إن جماعتك تطالب بأن يعمل ضابط استخبارات من قبلكم إلى جانب جماعتنا. وفي هذا الصدد أودّ أن تعلم أن المجموعة التي ستتولى أمن المطار ستؤلّف من عناصر خاصة تابعة لزاهي بستاني وإيلي حبيقة. وهما جديران بالثقة، ويمكن الاعتماد عليهما.

شارون: نريد أن يكون في برج المراقبة شخص من رجالنا يتكلّم العبرية، ولا نريد أن نكون من ضمن استخباراتكم.

بشير: وما هي الغاية من وجود هذا المراقب؟

شارون: تحرّكنا الجوّي كثيف، وعمل رجالنا يرمي إلى تسهيل هذا التحرّك وضمان سلامة الطائرات. عندنا الطوافات والطائرات المستمرّة في تحليقها تقريبًا. لا ننوي الاستيلاء على إدارة المطار، إنما هناك موضوعان مهمّان:

أولًا: نريد أن تستطيع طائراتنا الهبوط في مطار بيروت ما دمنا موجودين في بيروت. لا نريد إدارة المطار، بل نرى وجود خبير من قبلنا أمرًا ضروريًا لضمان الأمن الجوّي، لا للتدخل في الاستخبارات.

بشير: موافق.

شارون: نريد شخصًا يستطيع التكلّم مع طيّارينا.

بشير: على مدارج المطار معدّات وآليات.

شارون: سنخرجها. ومتى وُجد رجل منّا مع جماعتكم سهّلت علينا الأعمال، ونُقلت المعدّات من المطار بلا مشكلات.

بشير: هل يمكن أن يكون هذا المطلب لبنانيًا لا إسرائيليًا؟

شارون: نعم. تفضّل وأطلب.

بشير: إعتبر طلبي موجهًا إليك، ولنرَ كيف ننجز رسميًا ما نريد إنجازه. ولنعد إلى حديثنا السابق. تحدثتُ عن النقطة الأولى وموضوعها المطار. بقيت النقطة الثانية، وهي تتعلّق بوجودكم الكثيف في الجنوب. واجهتْ جماعتنا صعوبات في هذه المنطقة خلال اليومين الماضيين. أُوقفت سيارات عليها صورتي، ومُزِّقت الصورة. كيف يمكن تفادي حوادث من هذا النوع؟

شارون: أودّ أن أبحث موضوع السلام. إنه بالغ الأهميّة بالنسبة إلينا. والسؤال الأول الذي يتبادر إلى ذهني في هذا الصدد هو: ما هي العقبات التي تعترض سبيلنا؟ ما الذي يحملك على الظن إن الوصول إلى عقد معاهدة صلح بين لبنان وإسرائيل غير ممكن؟ كيف ترى، أنتَ شخصيًّا، إمكان الدخول في مفاوضات في هذا الشأن؟

بشير: ما قلنا يومًا أن عقد معاهدة صلح بيننا غير ممكن. جلّ ما في الأمر أن هذه الأيام هي الوقت المناسب للمفاوضات الرامية إلى ما نريد. إنما لدينا مشكلات علينا أن نتخطّاها. الكسليكيون زاروكم وعادوا من عندكم بالانطباع نفسه الذي أعنيه. وما ينبغي لكم أن تأخذوه بعين الاعتبار هو:

أولًا: إن السوريين عندنا. وليس صحيحًا أنهم لن يهاجمونا. هناك نصف مليون مسيحي تحت سيطرتهم. إذا عقدت معكم معاهدة صلح قبل ٢٣ أيلول، والحال كما هي الآن، فإننا سنتعرّض لردّات فعل قاسية تنصبّ أهوالها على شعبنا في المناطق المُحتلّة.

ثانيًا: أنظر إلى حدودنا. بعد انسحابكم لن تكون هذه الحدود في مأمن. سيدخل السوريّون من نقاط عديدة. هناك ١٦٠ كيلومترًا من الحدود المفتوحة. لم تعمل الدولة اللبنانية شيئًا، منذ العام ١٩٤٣، لصيانة حدودها. لم يكن لنا حزام

حديـدي يحمــي هــذه الحــدود. ســينتقم الســوريّون في البقــاع، في زحلــة وغيرهــا إذا عقدنــا معاهــدة معكــم قبــل أن يغــادروا بلادنــا.

شارون: أتظنّ أنهم سينسحبون؟

بشـير: لا أظــنّ. قالــوا في مؤتمــر فــاس أنهــم سينســحبون بعــد انســحابكم. وهنــاك شــأن آخــر، أودّ منــك أن تعرفــه، ولتعرفــه مــن الــضروري أن تفهمنــي فهــمًا عميقًــا ومنطقيًــا ومنصفًــا. ومــن أجــل أن تفهمنــي أصارحــك بــأني لا أعلــن عزمــي عــلى البقــاء مــع العــالم العــربي طمعًــا بأمــوال العــرب ومــا إلى ذلــك، ولا تهمّنــي المصالــح العربيّــة في لبنــان. ولكنــي لا أســتطيع إلا أن أهتــمّ بأمــور جوهريّــة، حيويّــة، أبرزهــا أن ســتين في المئــة مــن دخــل اللبنانيــين، ومعظمهــم مــن المســيحيين البالــغ عددهــم ٣٠٠ ألــف في البلــدان العربيّــة، يأتينــا مــن هــذه البلــدان. لا مشــكلة، عــلى الصعيــد الســياسي، إذا نحــن قطعنــا العلاقــات القائمــة بيننــا وبــين العــرب، ولكــن المشــكلة البالغــة الخطــورة هــي داخليّــة، اقتصاديّــة، توقعنــا في عجــزٍ مــالي لا نســتطيع تفاديــه أو تحمّــل نتائجــه.

شــارون: كان للمصريــين مليونــا مواطــن في العــالم العــربي، ومــا حصــل لهــم شيء بعــد توقيــع معاهــدة كمــب ديفيــد.

بشــير: أولًا، ســاعد الأميركيــون مســاعدة مرموقــة في هــذا الشــأن، فهــل هــم مســتعدّون للمســاعدة نفســها بالنســبة إلينــا؟ ثانيًــا، لا تنــسَ أن المصريــين في العــالم العــربي هــم مســلمون وليســوا مســيحيين.

شارون: لنعد إلى بحث تخوّفك.

بشير: هذه ملاحظات أبديها.

شارون: بل هي مخاوف.

بشير: إي نعم.

شــارون: الســوريّون ســيطالبون دائمًــا بلبنــان. لــن يتراجعــوا. إنهــم يريــدون دائمًــا لبنــان. عليكــم أن تدافعــوا عــن حدودكــم. يجــب أن تتحمّلــوا أنتــم هــذه المســؤولية. حدودنــا تمتــدّ عــلى مئــات الكيلومــترات. ولدينــا وســائل الدفــاع عنهــا. ومــن الممكــن أن نبحــث هــذا الموضــوع معكــم. إذا تعرّضــت زحلــة لخطــر مــا، فنحــن مســتعدّون للتدخّــل. كنــا بعيديــن عنهــا ١٢٠ كيلومــترًا فتدخّلنــا. ولســنا بعيديــن عنهــا الآن أكــثر

من ١٥ كيلومترًا. لنّ تكون هناك مشكلة. أما الوضع الاقتصادي، ففي وسعنا أن نعالجه أيضًا. مليون وربع المليون من الناس يجتازون سنويًا الجسور بيننا وبين الأردن. محاصيلنا تُشحن اليوم إلى الكويت. هذا الموضوع بالغ الأهميّة بالنسبة إلينا أيضًا إنه حيوي، بل عصيب. لقد قامت بيننا أجمل العلاقات، وتوطّدت أحلى الصداقات، وتمّ أبهى التعاون، ولكن هذا كلّه حصل سرًا، من تحت الطاولة، على مدى سنوات. فلمّا أتيتُ إلى بيروت شعرتُ بالاطمئنان كأني في بيتي. نحن إنسانيون. كانت علاقاتنا طيبة بسبب وجودك أنت ووجودي. في أثناء الحرب، سقطت إثنتان من طوافاتنا من غير أن نتأثّر بشيء. يسعدني أنك سليم معافى. والله وحده يعلم ما الذي سيكون في المستقبل. وإذا أبرمتَ المعاهدة بيننا، فلن يتعرّض لبنان لأقل خطر، حتى بعد غيابي وغيابك، أو بعد تخلّينا عن مسؤوليات الحكم. فالمعاهدة تبقى بين دولتين ملتزمتين تحترم كلّ منهما واجبها بقدر ما تحرص على صيانة حقها. العلاقات بين الأمم لا ترتبط بالأشخاص.

بشير: ما هو مضمون المعاهدة؟

شارون: لنجلس ونباشر مباحثاتنا الرامية إلى السلام. لنعمل بهدوء، وليكن عملنا سريًّا.

بشير: أنتم لا تستطيعون الهدوء، ولا تجيدون التكتّم. (وكان هذا القول بمثابة غمز يشير إلى تسرّب معلومات عن الزيارة التي قام بها بشير إلى نهاريا).

شارون (وقد أحسّ بما في هذه الملاحظة من مرارة): إني آسف. ما تسرّبت الأخبار من مكتبي. اليوم، لا يعرف أحد بزيارتي هذه. فلنبقِها سريّة. ولنبحث البنود والمسائل المتعلّقة بمعاهدة السلام. وهذا ما سيتمّ متى أكملنا عملية التطبيع بين بلدَينا. أهمّ ما في الأمر يُلخّص بتعهدات غايتها الحؤول دون نشوب حرب أو استنزاف بين بلدَينا. في المستقبل، ستصبحون أقوياء عسكريًا وسنساعدكم على هذا الصعيد. وستكون التعهّدات متبادلة بيننا، على أن يُعلن بعضها، ويبقى البعض الآخر سريًا. وسيتمّ إعدادها على أيدي فريق منكم وآخر منا، فتوضع مسوّدة نشبعها درسًا وتمحيصًا.

بشير: بضائعكم تدخل بلدنا وتباع فيه أرخص ثمنًا من بضائعنا، إذ لا تُفرض عليها رسوم جمركية.

شارون: أُفرض عليها رسومًا. المعاهدة تعالج مختلف المواضيع، السياسية منها، والاقتصادية، والعسكرية وغيرها. وهناك مشكلات لا يجوز أن تنتظر إبرام المعاهدة. ويُستحسن أن نؤلّف الآن لجنة مشتركة تعالج الأمور المستعجلة. وليس من الضروري أن نلوم رئيس حكومتنا على ما بدر منه، لأنه حدّثك كما يحث الأب ابنه إذا تأثّر منه وأراد أن يحتجّ عليه.

بشير: وهل من ضرر لو أن المحادثات السابقة جرت على الطريقة التي نتّبعها الآن، وانتُهِجت فيها اللهجة المستحبّة التي نتحدث بها في هذا اللقاء؟

شارون: هذا الرجل (يعني بيغين) كان يُعاني ألمًا في رجله. وقد تألّم منك أيضًا. كان حلمه أن يراك رئيسًا. حتى أنا أكاد لا أصدق أنك وصلت. لمّا دخلنا القرى اللبنانية سمعنا سكانها يهتفون باسمك. إنهم يحبّونك ومعجبون بك. وهذا ما ساعدك مساعدة كبيرة. وقد تحّقق «الأمر» اليوم وكأنه حلم. الرجل (بيغين) كان ينتظر شيئًا منك. ولو كلمة واحدة. شنّت المعارضة علينا هجومًا شرسًا بمختلف الأساليب واللهجات. وحتى هذه اللحظة ما يزال المعارضون يطالبون بخروجنا من بيروت، وبانسحابنا إلى مسافة ٤٠ كيلومترًا عن الحدود، واستبدالنا بالقوات المتعدّدة الجنسيات، وعقد معاهدة صلح تجعل بلدَينا ينعمان بسلام حقيقي. الأمن هو مصلحة مشتركة فيما بيننا. والمعارضة تسألنا علنًا على رؤوس الأشهاد: ماذا حصل لبشير؟ ألا يقول عنا كلمة؟ كلمة واحدة؟ أنت تعلم أننا سنواجه انتخابات، وأن لهذا الأمر تأثيرًا كبيرًا علينا. يجب أن نُبقي حربنا محصورة في لبنان، وأن لا نذهب إلى سوريا. الناس في إسرائيل يسألون: ما هي النتيجة التي سننتهي إليها؟ نجيبهم: ستتألّف حكومة قوية في لبنان. وسيساعد الانسحاب السوري، ولو جزئيًا، على تأليف هذه الحكومة، وهي ستطلب انسحاب جميع القوات الغريبة من الأراضي اللبنانية. كان «الرجل» متأثّرًا إلى أقصى حد. وهو يشعر حتى الآن بأنه مغبون ومهضوم الحق. كان يطلب كلمة واحدة منك، كأنْ تقول، مثلًا، إنك تريد السلام، وترفض نشوب حرب بعد اليوم بين لبنان وإسرائيل. ومن طبعه أنه يقسو جدًا حين يستاء. أعتقد أنه من المناسب، بلّ من الواجب تأليف لجنة تبحث هذا الموضوع.

بشير: من تقترح؟

شارون: رئيس حكومتنا عيّنني مع إسحق شامير عن الجانب الإسرائيلي. سأكون أنا المحرّك الأول والموجّه في اللجنة الإسرائيلية. وكلّ شيء سيحصل من خلالي. وإني سأعيّن الجنرال شامير ليعمل مع جماعتك على إعداد ورقة العمل.

بشير: من جهتنا، أعيّن الدكتور جورج فريحه يعاونه جوزف أبو خليل وزاهي البستاني في وضع ورقة العمل.

شارون: أنت وشامير وأنا سنعمل على مستوى أرفع. وأضيف إلينا تامير ودايف.

بشير: هل يمكن إبقاء هذه اللجنة سرّية؟ أريد أن أؤلّف حكومة، وأن أبيع هذه اللجنة إلى الحكومة.

شارون: نعم يمكن. ولنعقد اجتماعًا، شامير وأنا وأنت وحدنا لترسيخ أوّل اجتماع سري بشأن هذا الموضوع. يمكن أن نعقده مساء الأربعاء المقبل في ١٥ أيلول.

بشير: موافق.

شارون: لا يجوز لنا أن نصعّب الأمور أو نعّقدها.

بشير: نلتقي إذن بعد الظهر.

شارون: ستكون جلستنا بمثابة افتتاح المحادثات، ومن شأنها أن تخفّف عنا الضغط الداخلي، وأن تخفّف من حدّة التأثر في أبناء شعبنا.

بشير: هل تريد أن نعالج الآن أيضًا موضوع سعد حدّاد، أم نتركه إلى لقاء آخر.

شارون: سنعالجه معًا معالجة خاصة، معالجة بين أصدقاء. الجنوب حيوي لأمننا إذا تعذّر علينا عقد معاهدة سلام. ولتبقى هذه الأمور سريّة، يجب أن تُبحث معك وحدك، أو مع أقرب المقربين إليك. أتريد أن نسمّيهم؟ قد يكون من الأفضل لنا تهيئة قمة مع رئيس حكومتنا. وإذا حدثت إشكالات بين فريقَي العمل على مواضيع أساسية تتدخل أنت شخصيًا، أو أتدخل أنا لحلّها. طلب الأميركيون إلينا أن نبيع الجيش اللبناني دبّابات. لم أخفِ عليك أبدًا أي سر. طلبوا أن نبيع ١٢ دبابة «باتون» إلى جيشكم. أجبناهم: «سنفعل إذا طلب الجيش اللبناني، هو نفسه، ذلك». لا نريد أن نبيع دبّاباتنا للأميركيين ليبيعوها بدورهم إلى الجيش اللبناني.

لدينـا ألـوف الأطنـان مـن الذخائـر اسـتولينا عليهـا في مسـتودعات الإرهابيـين. نعلـم أن معداتكـم روسـية. نـوّد أن تعطونـا بعضًـا منهـا، لـن تحتاجـوا إليهـا في المسـتقبل.

بشير: سأُعلِم فادي بكل ما يتعلّق بالمطار وبعملية صنّين.

شارون: نعم. سنضرب السوريين في هذين اليومين.

قبـل الانتهـاء، قـال بشـير أريـد أن أردّد أننـي كنـت مسـتاءً في نهاريـا. إننـا حاربنـا قسـرًا وكنـا عـلى وشـك الاضمحـلال، لكننـا صمدنـا وبفضلكـم انتصرنـا. ولـكي نقطـف ثمـرة الانتصـار، أريـد أن أطـرح عليكـم اتفاقًـا يكـون صالحًـا لكـم ولنـا بنـوع خـاص. واختـصر بشـير الاتفـاق الـذي يـراه مناسـبًا كـما يـلي:

١. إخراج ما تبقى من الجيش السوري بسرعة.
٢. المسـاعدة عـلى تأمـين حدودنـا بواسـطة جيـش قـوّي في عديـده وعتـاده لربمـا ١٠٠ ألـف جنـدي.
٣. إخراج آخر عسكري إسرائيلي مع الجيش السوري.
٤. محاكمة سعد حدّاد ثم الإعفاء عنه.
٥. إخلاء كافة المرافق الحيويّة في لبنان وخاصة المرفأ والمطار ومرافق الإعلام.
٦. إقامة معاهدة سِلم مع الحكومة اللبنانية بعد إقناع الطرف المُسلِم بها.

وانتهت الجلسة الساعة الثالثة من صباح ١٩٨٢/٩/١٣.

وقـف شـارون مودّعًـا، وتعانـق وبشـير طـوال ثـوانٍ معـدودة، كأن كابوسًـا قـد أزيـل عنهـما. وقـال لـه: «أنـا أوافـق عـلى شروطـك لمعاهـدة السـلام وأقـول إن غيمـة سـوداء قـد مـرّت في نهاريـا ويجـب أن ننسـاها، واطمـئن بيغـين سـيوافق أيضًـا.

كانت عيونهما تلمع سرورًا.

واسـتطرادًا أضـاف بشـير: «إني أصرّ عـلى أن يوافـق بيغـين عـلى شروطـي وأن يرسـل موافقتـه لي بـأسرع وقـت». وأبى إلا أن ينقـل شـارون بسـيارته مـن بكفيـا إلى مطـار الطوافـة في جونيـة.

جـرى بينهـما جـدل سريـع في هـذا الموضـوع، فـكان رأي بشـير هـو الأرجـح، فركبـا سـيارة واحـدة واكبتهـا سـيارتان تحمـلان المرافقـين. وغـادرا بكفيـا قبـل بـزوغ الفجـر، تحـت جنـح الظـلام.

لملمـتُ أوراقـي وتوجّهـتُ إلى نهـر الكلـب، وفي نفـسي نـوع مـن الارتيـاح. ولكـن سؤالًا ملحًـا كان يـتردّد في ذهنـي، ومـا يـزال: هـل عـادت المياه إلى مجاريهـا بـين لبنـان وإسرائيـل؟ وهـل تُعتـبر عودتهـا خـيرًا لنـا؟

في ضـوء هـذه المعطيـات نـدرك لمـاذا كان شـارون في حـواره مكثـارًا، ملحاحًـا، مـصرًّا، متهالـكًا. ولمـاذا كان بشـير مقـلًا، هادئًـا، طويـل الأنـاة، مديـد الصـبر، معتـدلًا في آرائـه، متمهّـلًا في الإعـراب عـن مطالبـه.

الذيــن طبّلــوا وزمّــروا ليوهمــوا البســطاء أن بشــير تعامــل مــع إسرائيــل ليكــون عميـلًا لهـا انحرفـوا عـن الحقيقـة، وشـطحوا شـطحًا بعيـدًا.

بشـير هـو الـذي «اسـتعمل إسرائيـل ليخـدم لبنـان»، ليجـد لـه مسـاعدة تنقـذه مـن الفنـاء حـين رأى مسـاعدات الجـيران والأهـل تنهمـر عـلى محـاولي تدمـيره وقتـل أبنائـه أو تشريدهـم في أنحـاء العـالم.

مـا أراد أن يتقـدّم الإسرائيليـون خطـوة واحـدة قـدّام الجيـش اللبنـاني مـا دام هـذا الجيـش قـادرًا عـلى أن يتقـدّم وحـده.

رفض عقد المعاهدة ما دام اللبنانيون كلّهم غير مجتمعين على عقدها.

تـدرّج في «عملـه العـام» تـدرّج الرجـل الواعـي، الحصيـف، الأصيـل، المؤمـن بلبنانـه، الحريـص عـلى قيمـة هـذا اللبنـان، وعـلى كرامتـه، وحريتـه، وسـيادته واسـتقلاله.

في فتوّتــه ومطلــع شــبابه، اســتعان بالشــياطين ليصــدّ هجــمات «العرفاتيــين» ومأجوريهـم وزبانئيتهـم. ولمـا أُلقيـت عـلى كتفيـه مسـؤولية الرئاسـة، مسـؤولية القيـادة الأولى، مسـؤولية تقريـر المصير، انقلـب رجـلًا كبيرًا على مستوى هـذه المسـؤولية الكبيرة.

الفصل الرابع عشر:

إجتماعات بشير في القصر الجمهوري

سارت التطورات متسارعة في الساعات الأخيرة من حياة الرئيس بشير الجميّل، فيما كلّ شيء كان يشير إلى أن الأمور تسير على النحو المخطّط له. فمن جهة طلب مني بشير، مساء ١٢ أيلول ١٩٨٢، عندما كنتُ في منزله في بكفيا، أن أوافيه صباح اليوم التالي في القصر الجمهوري لحضور اجتماعاته مع المدراء العامين العسكريين والمدنيين وتسجيل تفاصيل اللقاءات.

ومن جهة ثانية، وبعد لقاء بشير وشارون بساعات، باشرت إسرائيل بتنفيذ الاتفاق. فضرب الطيران الإسرائيلي الجيش السوري في لبنان بخمس عشرة غارة متواصلة، في المتن الأعلى والبقاع. وفي الغروب، اجتمع فادي افرام والجنرال دروري في مركز القيادة الإسرائيلية قرب مدرسة الجمهور ونسّقا معًا عمليّات ضرب الجيش السوري. كان الاتفاق العسكري يلحظ أن الجنرال ماير داغان سينزل في مدينة جبيل من جهة البحر ويصعد نحو اللقلوق ومنها ينزل نحو البقاع ليضرب ثلاثة أرباع مؤخرة الجيش السوري في حين أن قوات إسرائيلية أخرى تضرب مرتفعات صنّين وتتوجّه نحو مدينة زحلة عن طريق ضهور الشوير. واتفق القائدان الإسرائيلي واللبناني أن يجتمعا في اليوم التالي لينفذا العملية بتفاصيلها.

وفيما الغارات الحربية متواصلة، اجتمع بشير في اليومين الأخيرين من حياته في أحد قاعات القصر الجمهوري مع إثني عشر مسؤولًا من كبار المدراء في الدولة للاطّلاع منهم على سير أعمال الإدارات والدوائر. وفي ما يأتي أستعرض منها ما أراه ضروريا ومفيدًا.

مواعيد فخامة الرئيس المنتخب

يوم الإثنين في ١٣ /٩/ ١٩٨٢:

الساعة

١٠،٠٠ السيد كارلوس خوري، مدير عام رئاسة الجمهورية

١١،٠٠ الدكتور جورج صليبي، رئيس مجلس الخدمة المدنية

١٢،٠٠ السيد هشام الشعار، رئيس مجلس التفتيش المركزي

١٢،٣٠ السيد رضوان مولوي، مدير عام وزارة الإعلام

١٢،٠٠ سعادة سفير فرنسا يرافقه سكرتير الدولة من وزارة الدفاع

بعـــد الظهـر

١٥،٠٠ السفير كسروان لبكي، أمين عام وزارة الخارجية

١٦،٠٠ الدكتور عمر مسيكة، مدير عام مجلس الوزراء

كارلوس خوري، مدير عام رئاسة الجمهورية

سأل بشير كارلوس خوري:

- كيف هو الوضع في القصر الجمهوري؟ أطلعني عليه كاملًا.

أجاب المدير:

- طبيعة العمل في القصر الجمهوري شأن داخلي. المفروض أن يطّلع الرئيس على كل شيء. هناك أمور تنتهي بقرار منه، وأخرى لا تحتاج إلى قرار، منها، على سبيل المثال، مشروع مرسوم عادي يتعلّق بإعطاء رخصة لأجنبي تخوّله حق امتلاك

عقار، أو منح الهويّة اللبنانية، وما أشبه ذلك. ولكلّ مشروع قانون مصيران: فإما أن يوقعه رئيس الجمهورية فيصبح نافذًا، أو أن يرفض توقيعه فيُرد إلى الإدارة التي وضعته، ويبقى لها أن تصرف النظر عنه أو أن تحوّله إلى مجلس الوزراء. وفي هذا المجلس يوضع جدول أعمال بإشراف رئيسه. وثمّة قضايا تستوجب موافقة مجلس الوزراء. والقضايا المدرجة على جدول الأعمال مصنّفة بحسب ما لها من الأهميّة، ولها أرقام: ١،٢،٣... تدلّ على مستوى هذه الأهميّة. وقد جرت العادة على أن يُعرض الجدول بما فيه من مشكلات على رئيس الجمهورية، وله أن يوافق، أو أن يعترض، أو أن يؤجّل. والتقليد المألوف هو وضع الجدول في تصرّف الرئيس مدّة ثلاثة أيام قبل القرار النهائي، ليتسنّى له أن يدرس ما يحتاج إلى درس. ولدى الرئاسة جهاز يلخّص ملفّ الجدول، ويوضح ما يحتاج إلى توضيح فيه، ولا يبقى منه سوى القضايا الجديرة بأن تطرح على مجلس الوزراء. ولكلّ وزير أن يعرض مباشرة القضايا التي يعتبرها مستعجلة أو طارئة، فتمرّ أو لا تمرّ، بحسب ما يرتئيه الرئيس وحده، وهو المرجع الأخير.

أما العرائض التي يرفعها المواطنون إلى رئيس الجمهورية، كواحدة مثلًا تتعلّق بقضيّة مجّمدة منذ عشر سنوات، فالمعاملات المرعيّة الإجراء بشأنها هي أن يستدعي رئيس الجمهورية الوزير المختّص بالموضوع المطروح، أو المدير العام، ويستفهم منه عن أسباب التأخير أو التجميد.

كانت التصادمات عديدة في هذا الشأن مع الإدارات التي تؤخّر ما يقرّره مجلس الوزراء، مما حمل الرئيس فؤاد شهاب على عقد جلسات عمل كل يوم خميس، يدعو إليها الوزراء والمديرين المختصين، ويستفسر منهم عن أسباب التأخير، وعن سير الإدارات عامةً.

وتتلقى رئاسة الجمهورية أيضًا تقارير عن الشؤون الخارجيّة، وكذلك على تقارير الجيش والأمن العام. يطّلع الرئيس بهذه الطريقة على كلّ شيء، ويبقى على اتصال مباشر بوزير الخارجيّة.

على هذه الأمور يقتصر عمل رئاسة الجمهورية في الوقت الحاضر. وتضاف إليها مواعيد يحدّدها الرئيس لمقابلة مواطنين يلتمسون منه هذه المقابلة. وتتصدّر لائحة هذه اللقاءات المواعيد المحدّدة للسفراء، والوزراء، والنواب، والسياسيين.

ثـم يـأتي دور المواطنـين، عـلى أن يتـمّ اللقـاء مـرّة في الأسـبوع أو كلّ أسـبوعين أو مـرّة واحـدة في الشـهر.

ومشـكلتنا الكبـيرة والمرهفـة الحساسـية التـي نصطـدم بهـا حاليًّـا مصدرهـا رئاسـة الـوزارة. فهنـاك مسـائل في منتهـى البسـاطة تتضخّـم وتتّخـذ حجـم «قضيّـة». مثـلًا، إذا أعطيـت منحـة إلى مواطـن مسـيحي، فـإن تنفيذهـا يتعـثّر إن لم تُعـط منحـة مثلهـا إلى مواطـن مسـلم، بمـا يحتّـم عـلى رئاسـة الجمهوريـة تفـادي الاصطـدام برئاسـة الـوزارة حـول شـؤون مـن هـذا النـوع.

وتجـدر الإشـارة إلى أن فريـق العمـل الـذي تعتمـده رئاسـة الجمهوريـة يزيـد الحساسـيّة رهافـة عوضًـا عـن أن يخففّهـا. فبعـض الـوزراء كان يرفـض الاتصـال برئاسـة الجمهوريـة، ويمنـع موظفـي وزارتـه ومؤيديـه مـن القيـام بمثـل هـذا الاتصـال. أذكـر منهـم، عـلى سـبيل المثـال الوزيـر وليـد جنبـلاط. فاضطررنـا إلى أن نكتفـي بالدعـوة إلى اجتماعـات عمـل للاطـلاع عـلى مجـرى الأمـور مـن غـير أن يخطـر في بالنـا أن نصـدر أوامـر.

والحقيقـة أن العمـل الإداري طـوال السـنوات السـت الماضيـة كان معدومًـا. وهـذا واضـح في عـدد المراسـيم.

وعـلى جهـاز رئاسـة الجمهوريـة أن يقتـصر عملـه عـلى الـدرس، أو متابعـة الأحـداث، أو عـلى الإثنـين معًـا.

ومـا أراه شـخصيًا أن الدراسـات كثـيرة، وهـي تتطلّـب إحياء جهـاز متابعـة يكون فيه مكلّفـون القيـام بمهـمّات معيّنـة تتعلّـق بموضوعـات محـدّدة. لا بـدّ مـن متابعـة الأمـور في الـوزارات والمديريّـات العامـة والدوائـر المسـؤولة لإثبـات وجـود رئاسـة الجمهوريـة بـكلّ مـا فيهـا ولهـا مـن الصلاحيّـات ومـا يترتّـب عليهـا مـن المسـؤوليّات.

نحـن، عـلى قلّـة عددنـا، اعتمدنـا نوعًـا مـن العـرض نسـجّل فيـه المشـاريع الكبـيرة، ومـا تحتـاج إليـه مـن مهـل أمنيّـة لتنتقـل إلى حيّـز التنفيـذ. ولا ريـب في أنـه مـن الـضروري أن يكـون رئيـس الجمهوريـة متمتّعًـا بالقـدرة عـلى التنفيـذ. ومـن المؤسـف أن هـذه القـدرة كانـت تتدهـور مـن سيئ إلى أسـوأ، لارتهانهـا بالأوضـاع العامـة في البـلاد.

مـن واجـب القـاضي، مثـلًا، أن يطبّـق القانـون، لكـن هـل كانـت الأوضـاع تسـمح بذلـك؟

كنّـا، في بعـض الأحيـان، نحيـل كلّ مـا لدينـا مـن أمـور القضـاء إلى المجلـس العـدلي، فألقينـا عليـه عبئًـا مرهقًـا أقعـده وجعلـه عاجـزًا عـن العمـل.

إسـتمع الرئيـس بشـير إلى هـذا الـشرح الطويـل بانتبـاه وصـبر عجيبـين، ثـم سـأل المديـر:

- ما هو السبيل إلى تعزيز الرئاسة؟

يجـب أن ينصـبّ الجهـد عـلى الإدارة الداخليّـة في قـصر الرئاسـة لتكـون قويّـة، يقـوم فيهـا كلّ مسـؤول بمـا تفرضـه عليـه مسـؤوليته بـكل أمانـة وإخـلاص. فـإدارة القـصر هـي إدارة واحـدة. والرئيـس هـو رئيـس واحـد للبنـان واحـد. وهكـذا يجـب أن تكـون الإدارة، فـلا تنقسـم إدارتـين أو أكـثر.

الرئيس: ما العمل لنصل بها إلى هذا المستوى المنشود؟

المدير: إذا أحسنّا الاختيار، سهلت علينا المهمّة.

الرئيس: إختيارنا حسن وهو فاصل وجازم ونهائي.

المديـر: نبـدأ بمشروع لتنظيـم إطـار الرئاسـة. الإطـار الحـالي لا يفـي بالحاجـة. يجـب أن يضـاف إليـه موظّفـون ذوو كفـاءة، ولدينـا متعاقـدون قـادرون عـلى القيـام بهـذه المهمـة. ولكـن هنـاك سـؤال لا بـد مـن طرحـه: هـل سـتطلبون سـلطات اسـتثنائية؟

الرئيـس: هـذا مـا يريـده مسـاعدي. وأودّ، أنـا أيضًـا أن أطـرح سـؤالًا؟ كيـف يمكـن أن أحكـم مـن غـير أن أمـسّ صلاحيـات مجلـس النـواب. كيـف كانـت علاقـات القـصر بهـذا المجلـس؟ كيـف نجعـل القانـون يمـرّ بالمجلـس حتـى لـو تأخّـر أسـبوعًا؟ هـذا سـؤال أوجّهـه إليـك شـخصيًا.

المديـر: علاقـات القـصر بالمجلـس تختلـف باختـلاف الظـروف. النهـج الـذي يعتمـده المجلـس حتـى الآن هـو التشـبّث بـكل مـشروع يحـال إليـه. فالنـواب يحاولـون إدخـال تعديـلات توافـق مصالحهـم أو تخـدم بعـض كبـار مؤيديهـم. نحـن نبـذل كل مـا في

وسعنا ليمرّ المشروع بالمجلس ويبقى سليمًا ومنسجمًا مع المصلحة التي دعت إلى وضعه، ولكنه لا يخرج من بين أيدي النواب إلا مشوّهًا. فمشروع الإيجارات، مثلًا، أرسل إلى المجلس في العام ١٩٧٧، فبقي فيه حتى اليوم وجاء مشوّهًا يحمل غير ما أريد به أصلًا.

الرئيس: إذا حصل أمر كهذا، فأني سأعود إلى المجلس وأقول للنواب: كفى! عليكم أن تلزموا حدّكم!...

المدير: يجيز القانون لرئيس الجمهورية أن يحيل إلى المجلس مشروعًا مستعجلًا، ثم يصدره بمرسوم بعد مرور أربعين يومًا. هناك مشاريع تأخّرت سنة. ولكن المشروع المستعجل سلاح ذو حدّين. فمن الممكن أن يوطد العلاقات مع المجلس. ولكن إذا كثرت المشاريع فقد تُسبِّب معارضة... وقد تُتهم الرئاسة بالتسلّط. أظنّ أن السلطات الاستثنائية غير مستحبّة في المرحلة الأولى من الرئاسة الجديدة. فإذا استتبّ الأمن تمكّنت الوزارة من العمل بسهولة، وأصبحت الدولة قادرة على إصدار مراسيم استثنائية.

الرئيس: كيف كانت العلاقات مع الرئيس كامل الأسعد؟

المدير: كانت تارة ترتفع وطورًا تهبط، إنْ بالوسائل أو بسبب المزاج. فالأسعد مثلًا كان يدعو دائمًا إلى عقد قمّة، فيما الرئيس سركيس لا يرى فائدة من هذه القمّة، ويقول إن كلّ القمم التي عُقدت أسفرت عن نتائج مسيئة لمصلحة لبنان، لا تخدم إلا الفلسطينيين. لم يكن دعم السلطة اللبنانية إلاّ كلامًا في الهواء، فيما دعم المقاومة الفلسطينية استقوى بدفع الأموال وتوفير السلاح. وما سَلُم رئيس الجمهورية أحيانًا من الاتهام بالتواطؤ.

الرئيس: لتقوية الرئيس والقصر، ماذا يجب أن نفعل؟

المدير: تقوية القصر ممكنة بالمستشارين والخبراء. يمكن التعاقد مع اختصاصيين ذوي خبرة بالقانون أو... بحسب القانون.

الرئيس: لدينا مديرية عامة فيها خمسة مديرين عامين. لا بد من تعديل التسميات كلّها.

المديـر: يتـمّ تعديـل التسـميات بقـرار يصـدره المديـر العـام. والمستشـارون يمـلأون الفـراغ في المناصـب الخاليـة.

الرئيـس: لا أرى فائـدة مـن هـذا التدبـير، فالعمليّـات المتوازيـة لا تمـلأ الفراغـات الحاليـة.

المديـر: يمكـن تعيـين مديريـن مـن حملـة الشـهادات بحسـب الأصـول. والتعاقـد معهـم ميسـور.

الرئيس: وما هي علاقاتهم بالإدارات المختلفة؟

المدير: هي ما تريده فخامتك.

الرئيس: ما علاقة مدير العلاقات بالخارجية؟

المديـر: إنهـا بروتوكوليـة لا أكـثر. تدعـو مـن تشـاء دعـوة مبـاشرة. والمفـروض في السـفير أن يبلّـغ الخارجيـة بالدعـوة التـي تلقّاهـا منكـم.

الرئيـس: كيـف يُسـحب جـدول الأعـمال مـن رئاسـة الحكومـة؟ هـل هنـاك وسـائل خاصـة لسـحبه؟

المديـر: هـذا أمـر يخضـع للقانـون. فمجلـس الـوزراء هـو الـذي يضـع جـدول الأعـمال للرئيـس. ورئيـس الجمهوريـة هـو، في الوقـت نفسـه، رئيـس مجلـس الـوزراء. ولكـن اسـم رئيـس الحكومـة هـو: رئيـس مجلـس الـوزراء أيضًـا. المفـروض هـو أن يذهـب مـشروع القانـون، أو المرسـوم، مـن الوزيـر المختـص إلى رئيـس الجمهوريـة. أمـا اليـوم، وخلافًـا لأحـكام الدسـتور فـإن المرسـوم يمـرّ عـلى رئاسـة الـوزراء للتوقيـع مـما يؤخّـر العمـل لأن رئيـس الـوزراء يبقـي المراسـيم لديـه، يجّمدهـا عنـده.

الرئيس: هل لديك ما تريد التحدّث عنه؟

المديـر: كلّ شيء يفـترض فيـه أن يكـون متسـاويًا مـع الأوضـاع الحـاضرة. ومـا خـلا ذلـك تفاصيـل ثانويـة. يجـب اسـتعادة بعـض الصلاحيّـات مـن رئيـس الحكومـة تدريجيًّا. والأهـمّ حاليًـا هـو تنظيـم الإطـار. رئاسـة الجمهوريـة مـع خمسـة موظفـين أقـوى معنويًـا منهـا مـع ١١٦. لـدى رئاسـة الحكومـة أربعـة مديريـن عامـين هـم: اليـاس نمـار،

وشفيق منيمنة، ويوسف اسطفان، وعبد الرحمن الشيخة. عمر مسيكة هو أمين عام مجلس الوزراء، لا أمين عام رئيس مجلس الوزراء. إنه مدير مجلس رئيس مجلس الوزراء. وعلى صعيد التنفيذ يمكن أن يكون الجهاز على مستوى أدنى من مستويات المديرين العامين، أكانوا متعاقدين أو متطوّعين. فالمساعدات التي نحظى بها منهم لا تتجاوز حدود الكلام. ولدينا ثلاثة مديرين عامين برتبة مدير، وأكثر من عشرة مراقبين. وأكثر الموجودين اقترضناهم من هنا وهناك.

أما المرافقون فهم: ناصيف، الخطيب (مسافر بدورة) جوزف سلماني، والرائد قرقماز.

والحرس الجمهوري عدد رجاله ٣٠٠ أسماؤهم مسجّلة في لائحة موجودة لدينا.

الرئيس: القصر بحاجة إلى ضبط وتنظيم. فهو، على ما أرى، «فلتان»، يدخله من يشاء. كم سيارة في القصر؟

المدير: لنا الحق بثلاث، عندنا اثنتان فقط وهما مصفحتان، الثالثة من طراز «كاديلاك». واحدة من هذه السيارات للتشريفات، والثانية مرسيدس ٦٠٠ تعبانة. يجب تغيير سيارتين.

الرئيس: هل لدى الحرس الجمهوري معدّات كافية؟

المدير: الحرس الجمهوري مرتبط برئيس الجمهورية وحده، ولا شأن فيه لرئيس الحكومة، إنما له علاقة بقيادة الجيش. لا ميزة خاصة لحرس الجمهوري. فهو يأتي من الجيش ويرتدي لباس الحرس.

الرئيس: وكيف هي الحدائق؟

المدير: المسؤولة عنها هي باديا خوند. إنها مرتبطة معنا بالتعاقد وليست في الملاك. في الآونة الأخيرة «دَوْبلوا» عليها. هناك شخص من آل إدريس له خبرة أسند إليه هذا العمل. وهذا العمل لا يسير سيراً حسنًا. وهو ليس كما يجب أن يكون. أضف إلى ذلك أن مكتب الرئيس مخيف. قاعة تُعقد فيها جلسات مجلس الوزراء، وليس فيها ذرّة من الذوق.

الرئيس: هل نزعج الرئيس وحضرتك إذا أجرينا تعديلًا في القصر؟ يجب أن يُنسِّق موني عرب مع المدير لهذه العمليّة. أرجو تبليغ موني أني عازم على التغيير. وأرجو مساعدتي. أطلب إليك شخصيًّا أن تعلمني فورًا عن كلّ عمل تجد فيه شيئًا من «التخبيص». إن آمالًا كبيرة معقودة علينا، فلا يجوز لنا أن نخيّبها.

المدير: من عادة الرئيس أن يعتمد المسايرة واللياقة مع الأقارب والأصحاب. وهناك عادة يجب أن تكون واضحة لا يجوز أن يتكلّم أحد بِاسم الرئيس مع الوزراء والمديرين. واحد فقط يتكلّم باسم الرئيس في الشؤون الإدارية هو المدير.

مع الدكتور جورج صليبي رئيس مجلس الخدمة المدنية

وما كاد الرئيس بشير يستقبله حتى بادره قائلًا:

- بعد الاجتماع بكارلوس خوري أتى دور الدكتور جورج صليبي، نريد منك شرح الأوضاع عندك: وضع الخدمة، وضع الإدارات.

أجاب الصليبي:

- الخدمة المدنيّة هي هيئة رقابة على مختلف الأمور الإدارية. نراقبها لنتأكد من أن أعمالها لا تخالف القوانين المرعيّة، ومنها إدارة الموظفين، إدارة الإعداد للدخول إلى الفئة الثالثة. والهيئة مجتمعةً تبتّ هذه الأمور.

لدينا فكرة عن الإدارة العامة من حيث هي كلّ. تعمّ الإدارات فوضى عارمة. وقد عمدت في تقاريري السنوية إلى شرح هذه الأوضاع شرحًا واضحًا وصريحًا. فالموظف فقد الشعور بالرسالة المنوطة بوظيفته العامة. أعني بهذه الرسالة: خدمة المواطن. أصبح الموظف يسعى إلى الكسب بطرق غير شرعية. أنا شخصيًا اضطلعت بوظائف عديدة، كنتُ في التربية، وانتقلت منها إلى الأحوال الشخصيّة وغيرها. وها أنا الآن في الخدمة المدنيّة.

لدينا في هذه الإدارة مشكلات أساسيّة متعلّقة بالإدارة نفسها، ومشكلات أخرى نستطيع معالجتها. فالمشكلة الأساسيّة هي مشكلة الرواتب. سمعنا خطاباتك كلّها، وشكرناك على ما جاء فيها من لفتة كريمة إلى هذا الأمر الحيوي بالنسبة إلينا.

الرئيس: هل في وسعك أن تطبّق ما جاء في خطابي، إذا تعهّدتُ لك بحمايتك حتى من الوساطات التي تأتيك من أبي وأمي؟

الصليبي: إني على أتمّ الاستعداد للعمل. وقد سبق لي أن فعلتُ ما أعد به الآن.

مشكلة الرواتب هي مشكلة أساسية في الإدارة. كان راتب رئيس الدائرة ٥٠٥ ليرات. راتبي أنا يجب أن يرتفع. يجتاز رئيس الدائرة امتحانًا قاسيًا فينافسه فيه عدد كبير من الطامحين إلى التقدّم، وراتبه اليوم ١٥٠٠ ليرة، وهذا لا يكفي.

الرئيس: أنا معك بلا تحفّظ.

الصليبي: مشكلتنا الثانية هي تدخّل السياسيين في الإدارة.

الرئيس: أنا مستعدّ لأحميك.

الصليبي: كنت أقاوم، أرفض ما أعتبره غير محق أو غير جائز. ولكن سلطات رفيعة كانت تتدخّل، فأضطر إلى مسايرتها. مثلًا، مشكلة الإطفائية.

الرئيس: أنا سأحترم نتائج تطبيق القانون. لي مطلبان: أولًا ضبط الإدارة، ثانيًا لا نريد إدارة عثمانية لئلا تفسد نفسيّة المواطن.

الصليبي: من الضروري أن يعاد النظر في تنظيم الدولة. كلّ شيء يتطلّب قانونًا. وهذه رتابة مرهقة يجب أن تدرس في ضوء الواقع العملي، ولا يجوز تدخّل السياسة في الشؤون الإدارية.

الرئيس: هذا ما سنحقّقه.

الصليبي: المشكلة الثالثة هي مشكلة الأُجَرَاء. لدينا حوالي ٢٥ ألف أجير. كلّما أتى وزير جديد عين أجراء جددًا. أصبحوا عالة على الإدارة. في إدارات الدولة ١٤ ألف موظّف وعدد الأجراء أكثر من ضعفَي هذا العدد. ولا بد من الإشارة إلى أن هؤلاء المداومين غير فاعلين. لا أغالي إذا قلت إن في إدارتنا عجائب وغرائب.

الرئيس: هل يمكن ضبطها؟

الصليبي: أي نعم يمكن. ولكن بتوجيهات منك أنت. لأن السياسيين وراء هؤلاء الأجراء. إذا صرفناهم أحدثوا لنا أزمة. نحن اليوم بحاجة إلى ٥ آلاف موظّف فقط. ولكننا نجري امتحانًا ونوظّف على أثره ٢٥ ألفًا، ثم نقطع التعيين، إلا بحسب الأصول المتبعة. ونعمل لهم ملاك تصفية. وإذا عدنا إلى صرفهم ترتّب علينا دفع التعويضات، فللمصروف تعويض من ضمن الضمان.

لدينا الرقابة التسلسلية والرقابة العامة، ومع ذلك فالرقابة، بجملتها، مفقودة. ومفقودة أيضًا هي الرقابة العامة التي يُفترض أن يقوم بها التفتيش المركزي. لا بد من إحياء هذا التركيب الهرمي في الرقابة، ويجب تعزيز أجهزة الرقابة وحمايتها من كلّ ضغط خارجي. إنها مرتبطة برئاسة الوزارة، ونحن مثلها.

الرئيس: أني أتبّنى رأيك، خصوصًا في ما يتعلق بتنسيق الرواتب وضبط الإدارة. وسنحصل حتمًا على نتائج إيجابية ومرضية في هذين المجالَين. إني مستعد أن أحذف مشروعًا من مشاريعي لأتمكّن من توفير الرواتب اللائقة ومن رفع مستوى الإنتاج كمًّا ونوعًا. المطلوب الآن هو أن تقدّم تقريرًا تعرض فيه هذا الموضوع كاملًا، وتذكر تطلعاتك وتشرح وجهة نظرك في الأساليب الواجب اتّباعها لمعالجة هذه المشكلة وما إليها من نتائج سلبية وذيول سيئة.

الصليبي: لي سؤال أعتبره بالغ الأهمية. عندنا مشكلة التوظيف المرتبطة ارتباطًا وطيدًا بالمادة ٦ و٦ مكرّر. وهذا تسييس طائفي للتوظيف. هل نتخلّى عنه أم نسير على دربه؟ أليس من المناسب أن يعاد النظر في نظام الموظفين لتعديل أساليب وضع الموظف في خارج الملاك، مثلًا، أو لإحالته إلى الاستيداع وما أشبه ذلك؟ هذه التدابير البسيطة لا يجوز القيام بها إلا بموجب مراسيم. وقد يصدر المرسوم المطلوب، ونوافق نحن عليه، ولكن صاحب الشأن ينتظر أحيانًا سنة قبل أن تحلّ عليه نعمة التعيين. من الضروري تبسيط هذه الأعمال، ومتى وافقت الإدارة المختصة على أمرٍ ما، ووافق مجلس الخدمة، يجب تنفيذ ما يُطلب تنفيذه. ولأعطي فخامتك فكرة عن التعقيدات التي نعانيها في هذا الصدد. أروي لك حادثة جديرة بأن تُعرف، خلاصتها أن حاجبًا كان ملحقًا بمكتبي، فتبيَّن لي أنه يتعاطى السمسرة على حساب الوظيفة، ولكني ما استطعت أن أنقله إلى مركز آخر، لأن نقله لا يجوز إلا بإصدار مرسوم، وهذا ما عجزت عن الحصول عليه.

مبـدأ الثـواب والعقـاب يمكـن أن يُحسِّـن أوضاعنـا إذا أجدنـا تطبيقـه. ولكـن هنـاك «مسـتزلمين» لا يحفلـون بـشيء مـن هـذا النـوع، ومنهـم مـن يتـمّ ترفيعـه مـن دون اسـتحقاق.

الرئيس: هل السفراء تابعون لإدارتكم؟

الصليبي: نعم.

الرئيـس: يجـب أن يتـمّ التطهـير وأن يعـمّ الإدارات كلّهـا، ولكـن مـن غـير أن يُظلـم أحـد.

الصليبـي: لم نحـظَ بالغطـاء السـياسي الـذي نحتـاج إليـه لنقـوم بأعـمال التطهـير. محمـد الطرابلـسي (الربّـاع) أصبـح ضابطًـا في المجلـس، وهـو إطفـائي. مجلـس الـوزراء سـهّل تعيينـه خلافًـا للنظـام. لدينـا ثـلاث فئـات: ١- الاوادم، ٢- الذيـن يمكـن ضبطهـم، ٣- الذيـن يجـب طردهـم.

الرئيـس: قـدّم لي مذكّـرة بهـذه الأمـور، واذكـرّ فيهـا بنـوع خـاص مسـألة رفـع الرواتـب. وجِّـه عنايتـك إلى الأوضـاع المعيشـية، ومـن ثـم إعمـد إلى ضبـط الموظفـين. كـم تكلّـف الخزينـة هـذه الأعـمال؟ قـدّم لي مذكـرة بهـذا الموضـوع أيضًـا.

الصليبـي: إذا ضُبطـت ضريبـة الدخـل والجـمارك وغيرهـا من المـوارد، توافـر للخزينة مـا يضمـن زيـادة الرواتـب. وسـأرفع لفخامتـك دراسـة واضحـة في هـذا الصـدد، وسـآتي فيهـا عـلى ذكـر الرواتـب والمشـاريع التنظيميـة.

الرئيس: هل السلك الخارجي تابع لإدارتكم؟

الصليبـي: نعـم، ولكـن مـن حيـث التعيـين لا المراقبـة. لـوزارة الخارجيـة مراقبتهـا الخاصـة. مراقبتنـا تقتـصر عـلى المعامـلات الإداريـة. وقـد حدثـت مشـكلة بينـي وبـين كامـل الأسـعد بهـذا الشـأن، إذ تلقينـا مشروعًـا مشـفوعًا بالتأكيـد والإصرار.

الرئيس: إلغوه.

الصليبـي: كلّ موضـوع يتطلّـب ورقـة عمـل تختـص بـه وحـده. بعـد أسـبوعين سـأقدّم هـذا المـشروع، ثـم أتصـل بالدكتـور فريحـه لدراسـته.

مع هشام الشعار، رئيس التفتيش المركزي

ما كاد الرئيس بشير الجميّل يلتقي السيد هشام الشعار حتى بادره سائلًا:

- هل سمعت خطابي؟

الشعار: سمعتُه وسُررتُ به جدًّا. الخدمة وتوفير العيش هما الأساسان اللذان شدّدتَ عليهما. وإنهما من اختصاص رئيس الجمهورية. وقد أصبحت الرئاسة فاعلة لمّا تمّ التطهير. إلا أنها أخفقت لمّا ساد الفساد. هيئة التفتيش في إسرائيل تشرف على كلّ شيء، حتى على الوزارة.

الرئيس: يجب أن نطبق هذه القاعدة عندنا أيضًا حتى على الرئيس.

الشعار: رئيس الخدمة والتفتيش يشرف على الجميع ما عدا الوزارة. أنا، بصفتي رئيس يترتب عليّ أن أعمل بلا مراجعات. إذا دعم الرئيس التفتيش والخدمة أعطاهما قوة لا يقاومها أحد. لا تحدث خلافات إلا بيننا وبين الوزراء. وإذا كُنت غير صالح للقيام بعملي فأقلني.

الرئيس: بالنسبة إلى موضوع الوزراء سأبذل جهدي لأعطيك لائحة بأسمائهم. ويبقى عليك أن تبدي رأيك في كلّ واحدٍ منهم. وسأدعوك إلى الجلسة الأولى التي سأعقدها معهم وأدعمك بحضورهم وعلى مسمعهم.

الشعار: دُعيت إلى القيام بتفتيش الجيش، ولكن العرقلة حالت دون تنفيذ هذه المهمّة، فتوقّفتُ، وطلب إليّ الرئيس سركيس أن أصرف النظر عن هذا الأمر. على الحزبيين أن «يقطشوا قرّيعة» أي أن يلينوا ويمتنعوا عن عرقلة الأعمال النظامية، يجب أن يكون الولاء للإدارة أولًا وأخرًا.

الرئيس: جوزيف الهاشم، وعصام عرب، وعاصم قانصوه، وكمال شاتيلا، حزبيون وموظفون.

الشعار: بعض المديرين العامين يشتغل في خارج البلد، وهذا غير جائز. موضوع ناظم القادري والملايين الثلاثة من الليرات يجب أن يعالج فورًا. ومع تقديرنا لميشال المرّ لا نستطيع إلا القول إنه عيّن موظفين يحملون شهادات مزوّرة. لا بدّ من الاهتمام بإضراب الموظفين، فالشيوعي كان يلتقي الكتائبي لمتابعة الإضراب.

الرئيس: يجب تحسين أوضاع الرواتب.

الشعار: وزارة الصحة وكر. أهم وزارة يجب ضبطها هي هذه الوزارة بالذات. والمتعاملون مع وزارة الإعلام موظفون في الاقتصاد مع بقائهم في وزارة الإعلام. وفي هذه الوزارة ما هبّ ودبّ. وليس من موظف هنا وهناك يقوم بالواجب المفروض عليه. وثمّة جمعيات لا سلطة لنا عليها. تأخذ أموالًا من الدولة. منها، مثلًا، مجلس السياحة، بنت بهيج تقي الدين، وغيرها...

ألبير منصور موظف، يتقاضى راتبًا من الضمان الاجتماعي. هيئة التفتيش فقدت ٥٠ في المئة من هيبتها. تعاونية الموظفين كلّها سرقة بسرقة.

الرئيس: أعطني مذكرة واضحة وصريحة عن هذه الأمور كلّها.

الشعار: البلديات سرقة. حذفوا التفتيش المختص بها، ولكن فرض المراقبة عليها ضروري. نهاد نوفل ونجيب أبو حيدر هما رئيسا بلديتين حذفا التفتيش في إدارتيهما. كانت لهما مصلحة في هذا الحذف. قانون ضريبة الدخل فضيحة. هاتوا لنا القانون الفرنسي وطبّقوه. الأطباء، ولا سيما الجراحون لا يدفعون للخزينة قرشًا واحدًا من مكاسبهم. هذا كلّه يوجب سنّ قوانين عادلة وصارمة في الوقت نفسه. أستطيع القيام بعملي كاملًا حين تكون للدولة سلطة وهيّبة. قوانين المالية كلّها بحاجة ماسة إلى تغيير. وأفضل طريقة في هذا المجال تطبيق القانون الفرنسي أو الإنكليزي.

مع رضوان مولوي، مدير عام وزارة الإعلام

الرئيس: أحب أن أعرف حقيقة الوضع في هذه الوزارة. وما هي الإصلاحات التي تنتظرونها مني، وما إلى ذلك من مطالب وشؤون.

المولوي: سأنظر إلى هذا الموضوع من زاويتين. أولًا: الإدارة عدم. كلّ ما فيها يتأثّر بالسياسة ويخضع لمشيئة السياسيين. الملاك، أعني ملاك وزارة الإعلام يكاد يكون شاغرًا كلّيًا. بُذلت محاولات لملئه جزئيًا. إخترعنا مبدأ التعامل، ولكن تطبيقه جاء سيئًا إلى حدٍّ رهيب لأسباب سياسية أيضًا. لدينا خمس مصالح في مديريّة الإعلام. أنا خرّيج لندن. إستدعاني الرئيس شهاب إلى الخدمة فلبَّيت. جاء الرئيس فرنجية،

فتعذّر عليّ الاستمرار في العمل. حلّ رامز خازن محلي من دون كفاءة. ذهبتُ إلى الجامعة وأصبحتُ أستاذًا فيها. وأنا الآن في الملاك الخاص بالدولة، أي إني في خارج القطاع الإداري. والتقاعد الخاص يسمح للموظّف بأن يقوم بعمل آخر بناءً على موافقة الوزير. واليوم، في الظرف الحالي، لنا تطلعّات أخرى. مدير الإذاعة هو الوحيد اليوم في الملاك الإداري. وليس بيننا من شغل منصبًا بالنظر إلى كفاءته، لا أستثني أحدًا، لا مدير الإذاعة، ولا مدير الوكالة الوطنية للأنباء. ليس في الدولة شيء اسمه Job description ، أي توصيف للأعمال المفروضة على الموظفين المسؤولين عنها. ولمّا وُزّعت المناصب في عهد الرئيس فرنجية، ارتفع عدد المتعاملين ارتفاعًا مدهشًا ومزعجًا معًا لأسباب سياسية. وهل في وسعنا أن ندير شؤون الوزارة إدارة حسنة بأشخاص يفتقرون إلى الحد الأدنى من الكفاءة أو من الخبرة؟

ملاكنا يعاني نقصًا فادحًا. الوكالة تكلّفنا ٣٠٠ ألف ليرة شهريًا لدفع رواتب المتعاملين فقط. الروتين الإداري يقضي على كلّ مبادرة مفيدة أو بنّاءة. الإذاعة بحاجة إلى دعم مادي. الوكالة الوطنية فارغة. تكاد تكون اسمًا لغير مُسمّى.

أريد جهازًا بشريًا له من الإمكانات ما يحتاج إليه العمل.

مع كسروان لبكي، أمين عام وزارة الخارجية

بدأ لبكي حديثه كأنه أنهى عملًا أُجبر على القيام به إجبارًا، فقال مخاطبًا الرئيس:

- أضع الخارجيّة بين يديك بمن فيها من موظفين وأوضاع. يجب أن تبقى هذه الوزارة عندك. أما الأعمال الجارية فسنبحثها معك. أنا مستقيل حكمًا لأني من خارج الملاك.

الرئيس: ماذا تريد أن تعمل؟

لبكي: ما تطلبه فخامتك.

الرئيس: متى أتيت إلى السلك؟

لبـكي: منـذ العـام ١٩٦٦ ومـا أزال خـارج الملاك. كلّ رئيـس كان يجـدّد لي. لدينـا مشـكلة مسـتعجلة: سـفرك إلى الأمـم المتحـدة ضروري. أنـا رأيـي أن تذهـب. التوقيـت مهـم. غسـان توينـي ينصـح بـأن تكـون هنـاك في ٤ تشريـن الأول. هـل تسـتطيع التفـرّغ للقيـام بهـذا العمـل في هـذا الوقـت؟ غسـان يقـول إن جلسـة كبـيرة ومهمّـة سـتعقد هنـاك.

الرئيس: سأنظر في هذا الأمر إذا أنهيت وضع الحكومة.

لبـكي: إذا ذهبـت لتلقـي خطابًـا، فـلا مجـال لوزيـر الخارجيـة أن يتكلّـم. وإذا لم يكـن لدينـا وزيـر فسـأتولّى أنـا رئاسـة الوفـد بانتظـار التغيـير. أتريـدني أن أفعـل؟

الرئيـس: نعـم. إذا جـدّدتُ لـك فسـيكون التجديـد إلى أول تمـوز (سـنّ التقاعـد). أطلـب إليـك أن تتولـّى رئاسـة الوفـد، عـلى أن يذهـب وزيـر الخارجيّـة معـي.

لبـكي: لم نجـنِ أي فائـدة مـن الحـوار الأوروبي حتـى الآن. الأوروبيـون يحكـون عـن الاقتصـاد، والعـرب يحكـون عـن فلسـطين. خطـاب لبنـان سـيُلقى في الوقـت الـذي تحـدّده إذا شـئتَ أن تحـضرَ شـخصيًا. إذا اتّسـع مجلـس النـواب، سـنعقد فيـه جلسـة القسـم وندعـو رؤسـاء البعثـات الدبلوماسـية، وعددهـم ٦٥. وإذا ضـاق بهـم، فلتعقـد الجلسـة هنـا في القـصر. نسـتطيع القيـام بالعملَـين معًـا. سـيكون لبـاس الحاضريـن أبيـض، وربطـات العنـق رماديّـة. أمـا «الفـراك» (Redingote)فسـيكون مـن امتيـازات العـرب. إذا كان البروتوكـول مسـلمًا، تـولاه عبّـاس حميّـه. وإذا كان مسـيحيًا تـولاه غـازي شـدياق.

الرئيـس: سـفير واحـد يكفـي. أنـا أفضّـل عبّـاس حميّـه، فهـو أوسـع خـبرة في مثـل هـذه الأمـور.

لبـكي: خليـل مـكاوي يحـب أن يحلّ محـل عبـد الرحمـن الصلـح، أو يـأتي شـيعي عوضًـا عنـه. وعلينـا أن ننتبـه انتباهًـا كليًّـا إلى مديـر الشـؤون السياسـية في الـوزارة. درجتـه ثالثـة إنهـا بعـد الوزيـر والأمـين العـام. هـل يمكـن إحـلال شـيعي في محلـه؟

الرئيـس: مـا رأيكـم بجعـل وزارتكـم وزارتـين: واحـدة للخارجيـة وأخـرى للمغتربـين؟ مـا هـي فكرتـك عـن عـدد المغتربـين المسـلمين والمسـيحيين.

لبـكي: أكثريـة الذيـن مـا يزالـون عـلى اتصـال بلبنـان مسـلمون: سـنيون وشـيعيون. المسـيحيون اندمجـوا ببلـدان الاغـتراب، وهـذا أمـر مؤسـف.

الرئيـس: أنـا، بشـير الجميّـل، أعتـبر إقدامـي عـلى المجازفـة حتميًّـا لا مفـرّ منـه. فالاغـتراب يجـب أن يتخـذ الطابـع المسـيحي. وسـأبذل قصارى الجهـد لأعيـد المسـيحيين إلى لبنـان، ولـديّ، لبلـوغ هـذا الهـدف، طريقتـان:

الأولى: إسـتدعاء سـفيرَي أسـوج ونـروج، وإفهامهـما أنهـما لا يسـتطيعان الاتصـال الـودّي إلا بالمسـؤولين اللبنانيـين، وأنهـما إذا ذهبـا إلى شـفيق الحـوت فسـيطردان مـن البلـد.

والثانيـة: إعـلان مـا قالـه السـيد بونـش المسـؤول في الصليـب الأحمـر الـدولي مـن أن جـورج حبـش طلـب إليـه أن يرسـل حرامـات وأدويـة إلى مخيـمّ عـين الحلـوة. فأجابـه بأنـه ليـس معيّنًـا مـن قبـل الفلسـطينيين. فالشـعبة الثانيـة اللبنانيـة، أو وزارة الخارجيـة اللبنانيـة هـما المصـدران اللـذان يجـب الاتصـال بهـما لا الفلسـطينيون. وهكـذا أضحـت العمليّـة أن كلّ المنظّـمات الدوليـة بخدمـة المنظـمات الفلسـطينية.

Je ne veux pas d'aide مـن الصليـب الأحمـر للفلسـطينيين وغيرهـم مـن الغربـاء. هنـا يجـب أن أتفـق معـك لنتخلّـص مـن هـذه الأمـور. لا نريـد طردهـم بـل أن نقـول لهـم: «هـا هنـا حدّكـم فتوقّفـوا عنـده».

زارني شـفيق بـدر، وقـدّم لي ملفـات عديـدة عـن مواضيـع في خـارج لبنـان، واعتبارنـا نحـن اللبنانيـين مـن العـالم الثالـث، فقلـت لـه أنـا OTAN (منظمـة حلـف شـمال الأطلنـسي)، أنـا أوروبـا، أنـا CEE (الوحـدة الاقتصاديـة الأوروبيـة)، أنـا حضـارة، وليـس لي شـأن أو علاقـة مـع العـالم الثالـث. أرجـو أن تثبـت أننـا لا ننتمـي إلى هـذا العـالم الثالـث لا مـن قريـب ولا مـن بعيـد. أُخـرج معـي مـن هـذا العـالم المتخلّـف ولحقّنـي إلى العـالم الأوروبي، ولنرتبـط بالعـالم الحـرّ والأمـيركي. أمـا قـرأتَ تصريـح واينبرغـر وبحثـه في إدخـال لبنـان إلى الحلـف الإسـتراتيجي؟ قلـتُ: إني متضامـن معـك خـذوا شـواطئنا، خـذوا صنـين قواعـد لكـم. شـدّني إلى أمـيركا. أنـا معهـا، علاقتـي هـي بهـا وبأوروبـا.

لبـكي: حـين يـأتي وزيـر سـأتعامل معـه عـلى هـذا الأسـاس بعـد عـودتي مـن الولايـات المتحـدة الأميركيـة فورًا.

الرئيـس: هـذا المـشروع ليـس مـشروع سـاعة. إنـه مـشروع ولايتـي كلّهـا. وزيـر الخارجيّـة والدفـاع سـيكونان ظـلّي. ومتـى جـاء الوزيـر الجديـد، سـتكون طريقتـه في العمـل، هكـذا عملنـا نحـن، مـع المديـر، مـع فريـق عملنـا أكان في مصلحـة الكهربـاء أو في أي مـكان آخـر.

لبكي: هل تريد أن تكون لك علاقة مباشرة بالإدارات؟

الرئيـس: نعـم. لا تتعجّـب إذا رأيتنـي غـدًا آتيًـا إليـك، إلى الـوزارة. أحـبّ أن أطـرح نفـسي بـين شـدقَي الذئـب، كـما يقـول الفرنسـيون.

لبكي: أنا تعوّدت على أن يكون اتصالي بالرئيس في منتهى السهولة.

الرئيـس: لِمَ لا؟ أنـت الأول بـين المديريـن. إذا كانـت لديـك سـفارة في أيـة منطقـة مـن العـالم، وجاءهـا مسـيحيون لبنانيـون تعمّـدوا عنـد الأبـاتي نعـمان، فسـجّلهم فـورًا. لدينـا مديريتـان للأحـوال الشـخصية مختصّتـان بنـا. ليـس لي محاسـيب ولا أقـارب. إني لا أغطّـي أحـدًا. لا أحمـي أحـدًا.

لبـكي: سـأدفعهم إلى الاسـتقالة. ولـن أعـيّن أحـدًا غيرهـم. وبصفتـي الأمـين العـام لـوزارة الخارجيّـة أضـع نفـسي في تصرّفـك، وإني مسـتعد للقيـام بـكلّ عمـل تريـده منـي. سـأرفع إليـك دراسـة عـن المؤسسـات العالميـة كلّهـا التـي نحـن مرتبطـون بهـا. ولا بـد مـن الانتبـاه إلى أن مديـر الشـؤون السياسـية في وزارة الخارجيـة، يُستحسـن أن يكـون شـيعيًا إذا أمكـن.

مع الدكتور عمر مسيكة، مدير عام مجلس الوزراء

بدأ الدكتور مسيكة حديثه بكلمات تهنئة:

- أكرّر تهنئتي، يا صاحب الفخامة.

الرئيس: أرجو أن تشرح لي الوضع الذي تتحمّل مسؤوليته، والاتصالات التي أجريت مع الأستاذ كارلوس خوري، والدكتور جورج صليبي، والأستاذ هشام الشعار. أذهلني ما سمعتُه عن اختلال الأوضاع الإدارية، وأود أن أعرف كلّ شيء، فمسؤوليتي هي أن أجعل الدولة تقف على رجليها.

مسيكة: أنا مسؤول في هذه الإدارة منذ أن كنتُ في الرابعة والعشرين من العمر، أي منذ أكثر من عشرين عامًا. ودراستي الجامعية هي التخصّص في العلوم الإدارية. وقد ركّزت جهدي على موضوع التنظيم الإداري في هذه الدولة. وأعددت مذكرة في هذا الشأن هي المرجع الأفضل لمعرفة رأيي على حقيقته.

ثم شرح الدكتور مسيكة عرضه بالتفاصيل فكان ممتازًا جدًا.

الرئيس: أهنّئك على هذا العرض. وأرجو أن تعطينا الوقت اللازم لدرس مذكّرتك، ثم نجلس معًا ونتفق على التدابير الواجب اتخاذها لتنفيذ مقترحاتك بندًا بندًا. وأودّ أن تضع لي مذكرة أخرى صغيرة عن الإدارة في لبنان عامةً.

مواعيـــد فخامة الرئيس المنتخب

يوم الثلاثاء في ١٤ / ٩ / ١٩٨٢

الساعة

٩،٠٠ اللواء الركن أحمد الحاج، المدير العام لقوى الأمن الداخلي

١٠،٠٠ العمـاد فكتور خوري، قائـد الجيـــش

١١،٠٠ العميد يوسف وهبه، المفتش العام لوزارة الدفاع

١١،٣٠ العميد زين مكـي، مدير عام الإدارة في الجيش

١٢،٠٠ العميد نبيل قريطم، الأمين العام للمجلس الأعلى للدفاع

١٢،٣٠ الأمير فاروق أبي اللمع، المدير العام للأمن العام

مع اللواء الركن أحمد الحاج، قائد قوى الأمن الداخلي

بدأ اللواء الركن حديثه بسؤال:

- بمن نتّصل دائمًا؟

الرئيس: بفادي افرام، أو أنطوان بريدي، أو أسعد سعيد.

اللواء: ناجي هادي سيكون من قبلنا.

الرئيـس: هـذا اجتـماع مـن ضمـن سلسـلة اجتماعـات للاطلاع عـلى أوضـاع الإدارات. أودّ أن تطلعـوني عـلى مـا لديكـم مـن مشـكلات، ومـا تريـدون منّـي، ليفهـم الجميـع أن الفلتـان قـد انتهـى، وأن الدولـة سـتعود دولـة. أعطنـي لمحـة عـن أوضـاع قـوى الأمـن.

اللواء: رد بالفرنسية قائلًا:

Je vous présente monsieur le président la place et l'organisation de ces forces, quelles sont les composantes de l'institution, de l'effectif, son entrainement et le spécial inclus, l'infrastructure. Ensuite, je terminerai par le moral.

وهـو يعنـي: أسـتعرض أمامـك موقـع قـوى الأمـن وتنظيمهـا، ومـا هـي مقومتهـا الأساسـية، وعديدهـا، وتدريبهـا وجـذور تكوينهـا. سـأبدأ بالمعلومـات وبهـا أفتتـح حديثـي.

ثـم اسـتطرد: في الأمـن الداخـلي تكـون الأعـمال كـما يكـون الـرأس. العديـد مـن رجـال هـذا السـلك هـو مـن أبنـاء الشـعب اللبنـاني. إذا أحسـنّا انتقـاء الضبـاط مـن حيـث النـوع والقيمـة والكفـاءة، فإننـا نصـل إلى الوضـع الممتـاز الـذي نريـده. أنـا أعتمـد عـلى المباريـات لأختـار الأفضـل، ولا أتأثّـر بالوسـاطات. الناجـح يمـرّ، الراسـب يذهـب في سـبيله. أخاطبـك بكونـك رجـل معرفـة وخـبرة، لا يفوتـك أن آخـر إنسـان في لبنـان يسـتطيع الوصـول إلى الوزيـر وحتـى إلى رئيـس الجمهوريّـة. إذًا فليـس لدينـا ضبّـاط ولا عسـكر. إني أراعـي النظـام الطائفـي، ولكننـي أختـار مـن كلّ طائفـة أفضـل مـن فيهـا، آخـذ الأولـين في الامتحانـات. عنـدي ضبـاط لا يسـتحقون أن يكونـون حاجبًـا أو بوابًـا. لـو كانـت لدينـا لجنـة تختـار أصحـاب الكفـاءة أولًا، ثـم يـأتي دور التدريـب. لمـاذا أفتقـر إلى عنـاصر يمكـن الإتـكال عليهـم والثقـة بهـم؟ لأن قـوى الأمـن الداخـلي كلّهـا تتألّـف مـن ٧ آلاف رجـل فقـط.

وتحـدّث عـن تنظيـم قـوى الأمـن الداخـلي في وضعهـا الحـاضر، فقـال: لدينـا أربـع وحـدات كبـيرة هـي: الـدرك، الشرطـة القضائيـة، شرطـة بلديـة بـيروت، ومعهـد قـوى الأمـن الداخـلي. ولـكلّ واحـدة منهـا سرايـا عديـدة وفصائـل.

الرئيـس: يجـب أن تكـون لدينـا قـوّة تابعـة لفـوج السـير لا يقـلّ عددهـا عـن ٣٠٠ عنـصر تقريبًـا. ومـن الـضروري أن تكـون هـذه القـوة متحركـة، نسـتعملها أينـما أردنـا وبالسرعـة القصـوى.

اللـواء: قيـادة الشرطـة القضائيـة هـي الأهـم إذا اسـتحدثت مفـرزة اقتفـاء الأثـر مسـتعينة بالـكلاب البوليسـية. هـذا الأمـر بالـغ الأهميـة، مـن الـضروري أن نعتمـده.

عندنـا ثلاثـة ضبـاط مـن الجيـش. و»هيـدا حـق ومـش حـق». يجـب أن تكـون لقـوى الأمـن الداخـلي شـخصية تفـرض احترامهـا. كيـف؟ بقيامهـا بالواجـب عـلى الوجـه الأكمـل.

لمـاذا لا يتـمّ التدريـب عندنـا عـلى مـا يـرام؟ لأن الذيـن يتدرّبـون قليلـو العـدد. فإخواننـا المسـيحيون لا ينخرطـون في سـلكنا. أنـا شـخصيًا لا أؤمـن بـأن الشـخصيّة الطائفيـة تمنـح صاحبهـا وطنيـة تمتـاز عـلى سـواها أو تنحـطّ عنهـا قـدرًا. لمـاذا لا يـأتي المسـيحيّون إلينـا؟ مـا هـي أسـباب ابتعادهـم عنـا؟ الرواتـب أصبحـت الآن مرتفعـة. كانـت الميليشـيات تسـتهويهم أكـثر لأن فيهـا مغريـات، Motifs.

الحـدّ الأقـصى مـن الذيـن اسـتطعت حملهـم عـلى أن يتطوعـوا هـو ٢٠٠٠ عنـصر. صرفـت منهـم ٣٤٣ لأسـباب تأديبيـة، أمّـا عـدد الضبـاط المتطوعـين فهـو ١٢٠. البيـان العـددي هـو ٩٠٠٠ أو أكـثر، عنـدي ٧٠٠٠، يبقـى عـليّ أن أسـعى ليتطّـوع أكـثر مـن ٢٠٠٠ عنـصر، كنـت أشـجّع المسـيحيين لتأمـين تـوازن العـدد، لذلـك كنـت أضطـر إلى قبـول أشـخاص لا يتمتعـون بالكفـاءة المطلوبـة.

أخـذتُ تقنيـين مـن الصنائـع، فـكان العـدد نصفًـا بنصـف. وكان يأتينـي ١٠٠٠ عنـصر ناجـح، فآخـذ منهـم ١٥٠. وإني أعلّـل الأمـل أن يأتينـي مسـيحيون. وإذا أحجمـوا اضطررنـا إلى اعتـماد قانـون خدمـة العلـم.

الاختصـاص، أعنـي بـه Le personnel qualifié أي أصحـاب الكفـاءة منهـم، عامـل الإشـارة، مثـلًا، المسـؤول عـن اللاسـلكي. وهـذا يتطلّـب اختصاصًـا ومهندسـين وأطبـاء، فقلّـة يجيـدون التعاطـي بالإشـارة وغيرهـا... عنـدي أطبـاء متفرّغـون، وضبّاط معاشـاتهم بمعـدل ٤٥٠٠ ل.ل. أخذنـا مـن مختلـف الفـروع الفنيـة وأرسـلتُ أشـخاصًا للتخصـص في المختـبر الجنـائي في الخـارج. وعنـدي خـبراء في المتفجـرات في الأردن، وأشـخاص يتعلّمـون موسـيقى في الأردن أيضًـا.

عندي ٣ Debouchés، أي منافذ للاختصاص:

الـ FBI (Federal Bureau of Investigations) أي: المكتـب الفـدرالي للاسـتقصاء في أمـيركا.

بالنسبة إلى فرنسا ٩٠ بالمائة من ضباطنا يعرفون اللغة الفرنسية.

بلجيكا، مدارسها أفضل من مدارس فرنسا.

إنكلترا تصلح فيها تنشئة الضباط الصغار.

لن أخرّج دركيًا قبل أن ينهي La formation، الإعداد الخاص به.

أولًا: يجب أن يكون رجال قوى الأمن مؤهّلين وأصحاب كفاءة.

ثانيًا: يجب أن تكون للمرء قضيّة. يجب خلق شخصيّة له. لا يجوز وضع ٢ من الجيش للنظر في شؤون الترقية. الترقية لا تكون إلا من ضمن الأمن الداخلي.

ثالثًا: لماذا على الجيش أن يشتري لنا السلاح؟ عندنا ضباط فاعلون يمكنهم شراء هذا السلاح، لن يؤخذوا بالرشوة.

الرئيس: ألا يمكن أن يرتشي ضباط الجيش أيضًا؟

اللواء: القائد يجب أن يكون نزيهًا، وأن يحيط نفسه بأركان شرفاء. أولى فضائل القائد هي أن يكون المثل الصالح، بل المثال الأعلى. قضيّة الثواب والعقاب يجب أن تكون سارية المفعول. وضعت ٨ ضباط في السجن لأنهم هربوا من القتال في الحرب.

علينا أن نولي الانضباط اهتمامًا خاصًا. وعلى الضابط أن يعطي المثل:

La discipline intellectuelle et plus encore la discipline physique أي الانضباط الفكري إضافة إلى الانضباط الجسدي، وبذلك يكون قد قام بواجبه على الوجه الأكمل.

لا بد من روح الإنصاف واحترام النفس L'esprit d'équite. فالضابط الذي يغطس في عمليّة غير نظيفة يعطي مثلًا سيئًا. أعطي مثلًا على ذلك: حديقة السّيار ومصرع ضابط و٣ جرحى. ثم عليه أن يكون motivé, qualifié أي مؤهّلًا ومحفّزًا إلى جانب سلاح معقول يضاهي سلاح المجرمين.

الرئيس: أتعني الميليشيات؟

اللواء: إذا كانت الميليشيات موازية، فيجب أن تكون بالنهاية. وذلك لمصلحة البلد. عندما تصل قوى الأمن الداخلي إلى حدّ ما، يجب عندئذٍ أن يتدخّل الجيش. من واجب كلّ فرد أن يقف عند حدّه، لأن الجيش عنده دائمًا روح التسلّط.

الرئيس: أنا أظنّ أن قوى الأمن الداخلي أعطت نتائج أفضل من التي أعطاها الجيش.

اللواء: قلتُ لعناصري أعطيتمونا في الماضي، وكذلك اليوم، رصيدًا من الوقائع والأحداث، وكلّها تدلّ على بطولة قوى الأمن. الأمن مع الجيش يجب أن يساندنا من ناحية الاستقصاء.

ولنأخذ القضاء مثلًا: إذا ألقيتُ القبض على متّهم، وجاء غيري فأطلق سراحه، فأين يكون الحكم؟ للقضاء شأن مهمّ من ناحية الأمن Procédure Judiciaire ولا بد من تشديد العقوبات.

إدارات الدولة: إذا وُجدت مخالفة بناء، وأبى رئيس البلدية أن يتخذ بها قرارًا بالتنفيذ، فلا يسعني أن أفعل شيئًا.

الموازنة: أنا أقترح شراء ٣٠ مصفّحة من الأميركيين. يجب أن تكون قوى الطوارئ كلّها مؤهّلة. قدّرت المبلغ اللازم بثلاثين مليون ليرة، طلبوا إليّ أن أصرف النظر عن هذه المسألة. لماذا؟ أنا بحاجة إلى مركز Electrique كهربائي لأطّلع على موجوداتي وذخائري. لماذا؟ أرجو من فخامتك بأن تتخذ موقفًا سياسيًا في هذه الصدد.

الرئيس: سأطلب أن تزيدها.

اللواء: لي اقتراحات:

- إعادة النظر في قانون الاكتفاء الذاتي. فهو بحاجة إلى موازنة. معهدنا في عرمون هو أحدث معهد في المنطقة يوازي أيّة مدرسة في أوروبا. كذلك مبنى قيادة الأمن الداخلي. وجدت قصرًا قرب بعبدا لإقامة بناء لا تقلّ تكاليفه عن ٥٠ مليون ليرة. وافق الرئيس سركيس على هذا المشروع، ولكن الوزّان عرج وصرف عنه النظر.

- عندنا مجمّعات كبيرة في الجميزة، والبسطة وعكار والبقاع وأماكن أخرى. منها ما تمّ تنفيذه ومنها ما لم يُنَفَّذ بعد. يجب أن يكون التنفيذ بموجب طلب من سامي الخطيب. طلبنا منه أشياء فأعطانا بعضًا منها. نريد دواليب، أشخاصًا، سلاحًا، جهاز لاسلكي، وهكذا يمشي الحال. ويلزمنا سلاح من أجل القيادة. العمداء كلّهم يجب أن يطيروا من قوى الأمن الداخلي، ما عدا جوزيف مجاعص. الباقون لا يستطيعون أن يعطوا شيئًا. أقترح إصدار قانون لترحيلهم.

- لا بدّ من إنشاء لجنة كفاءة، وهي غير المجلس التأديبي للنظر في شؤون عناصر قوى الأمن الداخلي.

الرئيس: عندنا نفس جديد. نحن نقوم بواجبنا. ولا يهمّك. أنا أغطّي هذه المسائل. وليكن شبّانك صامدين. وسنرى تدريجيًا ما هي الخطوات التي يجب أن نأخذها.

اللواء: هل تريد مرافقًا مع فخامتك؟

الرئيس: لا «تعتل» همّي.

مع العماد فكتور خوري، قائد الجيش

إفتتح العماد الحديث سائلًا:

- أودّ أن أعلم ماذا يهمك من المواضيع.

الرئيس: تكلّم عمّا تريد. كلّ منّا يعرف الآخر.

العماد: أنا، بصفتي قائد جيش أتمنّى ألاّ أكون في قفص الاتهام.

الرئيس: بالعكس.

العماد: هناك أمور مهمّة فيها أسرار يجب ألا يطّلع عليها سوى قائد الجيش والرئيس. ثم أشار إلى وجودي فطمأنه الرئيس قائلًا: الدكتور فريحه هو أنا فلا تخشَ شيئًا.

العماد: أبدأ بالأسس التي يقوم الجيش عليها حاليًّا. فيما مضى كان يخشى خطر الحدود الإسرائيليّة من غير أن يتغاضى عن الشؤون الداخليّة. رأينا آنذاك أننا بحاجة إلى ٤٥ ألف جندي على أن تتألف منهم ألوية ٦ أو ٧، لا فرق، وإلى قوة جويّة لا تقلّ عن ثلاثة أسراب تقوم بمهمّات مختلفة غير ما تقوم به قوى الاعتراض، ثم إلى طوافات مهمتها المساندة الأرضيّة، تقوم بعمليات اعتراض interception في بعض الحالات الاستثنائية، وإلى ثلاث خافرات بحرية طول الواحدة يراوح بين ٤٠ مترًا و٤٢ على تكون مسلّحة تسليحًا كافيًا معززًا بالصواريخ، وإلى ثلاث خافرات طول الواحدة ٢٠ مترًا، فضلًا عن بعض السفن الصغيرة.

هذا هو حجم القوى. القوى كانت محدودة لأننا تجاهلنا آنذاك الحدود السورية. وكان اهتمامنا مقتصرًا على الحدود الإسرائيلية فقط.

كيف نظمنا القيادة؟

جعلناها شُعَبًا، أعني إذا أردنا القيام بعملية، تقوم بها الشعبة الخاصة لها، ثم القائد.

هذا حلّ أسرع من الأوّل. وعلى أساس هذا التنظيم وضعنا الخطّة الزمنيّة. (وكانت هذه الخطّة مكتوبة فسلّمها العماد إلى الرئيس في غلاف يحمل عبارة «سري جدًا جدًا»).

الرئيس: كنّ واثقًا إن هذه لن تخرج من عندي.

العماد: لمّا حاولنا بناء هيكل الجيش، بذلنا جهدنا لنحصل من الأميركيين على قرض أولًا. جاء الأميركيون وظلّوا عندنا أسابيع، ثم أعطونا هذه الدراسة (سلّم العماد كتابًا يحتوي هذه الدراسة) وخلاصتها توصية باتّباع نظام الخطة التي تبعناها مع النتيجة التي أدّت إليها.

بالنسبة إلى العديد سلّمت الرئيس ورقة سجّلت فيها كلّ ما يتعلّق به.

في الجيوش الأميركية ضابط لكلّ ٨ جنود، أي أن ٢٠ ألف عسكري يحتاجون إلى ٢٠٠٠ ضابط. الموجود الآن هو ١٥٢٥، وعندنا في الحربية ٢٤٠ ضابطًا فقط. والعديد ٢٠,٠٧٢ جنديًا. نعاني نقصًا في الضباط الصغار، ولدينا فيض من الكبار. التركة التي ورثتُها سيئة. في كلّ دورة يعطي الجنود الشيعيّون أفضل النتائج. لكن السياسة السائدة آنذاك كانت تأخذ عددًا أكبر من السنيين.

وشفع العماد كلامه هذا ببيان مكتوب في هذا الصدد.

الرئيس: نجد من الضباط ٢ على ١. لكن الخطر يكمن في العريف والرقيب... بدأوا يصنفون نفوسهم على أساس المناطق.

العماد: بالنظر إلى أصحاب الرتب في المستقبل Les futures grades أصبح المسلمون أوفر عددًا. لما تسلّمت القيادة كان عددهم حوالي ١٧,٠٠٠. أصبحوا اليوم ٢٤,٠٠٠، فسرّحت قسمًا كبيرًا منهم، حوالي ٤٠٠٠.

على ٢٠ ألف جندي، عندي ٦ كتبة أو ٧ في المكاتب. ومع الكتبة والمكاتب من دون أية زيادة، يمكن أن يرتفع عددنا إلى ٤٠,٠٠٠ جندي.

الشرطة العسكرية ٢٠١، منهم ٥١ في المطار. لا مشاكل في التطويع لزيادة العديد. المسيحيّون لا يأتون. ضاعفنا عدد الشيعيين. حتى أن السنييّن والدروز لامونا على زيادة عدد الشيعيّين.

الرئيس: كيف كان الشيعيون في القتال؟ هل كانوا لبنانيين؟

العـماد: نعَـم! أبـدوا مـن الرجولـة مـا يسـترعي الانتبـاه. بواسـل، شرط أن يكـون عـلى رأسـهم ضابـط. الدفـع والإقـدام يجـب أن يأتيـا مـن فـوق. في الجيـش الأمـيركي، لـكلّ عـشرة جنـود ضابـط. إذًا، فـلا بـدّ مـن معالجـة مشـكلة التطويـع. ويمكـن أن نجـد الحـل في قانـون خدمـة العلـم. لـدي نسـخة مـع القوانـين والدراسـة (وسـلّم الرئيـس نسـخة عـن هـذه الدراسـة) ثـم اسـتطرد قائـلًا: إذا كبسـت عـلى الـزّر لتمـشي خدمـة العلـم، سـننتظر ٤ أشـهر عـلى الأقـلّ لنسـتقبل أوّل شـخص يلبّـي نـداء الواجـب. ومـن الطبيعـي أن لا تغنـي خدمـة العلـم عـن الجيـش المحـترف. مواليـد كلّ سـنة لا يقلّـون عـن ٣٠,٠٠٠. يدخلـون الخدمـة إذا طّبقنـا خدمـة العلـم. ومـن الممكـن أن ينخـرط مسـيحيّون في الجيـش.

الرئيـس: هـل مـن الممكـن أن يكـون عنـدي في ٢٤ أيلـول ١٥٠٠ عنـصر للتدخّـل السريـع مـع أسـلحتهم وضبّاطهـم متأهبـين لـكلّ مهمّـة يريدهـا رئيـس الجمهوريـة؟ أفي وسـعك أن تؤّلـف لي هـذه النـواة؟ لـن تكـون في تـصرّف الرئيـس، بـل في إمـرة شـخص عنـدك أسـتطيع أن آمـره شـخصيًّا. أريـد قـوة أتـكلّ عليهـا مـن دون جـدل، عـلى أتـمّ التأهّـب ٢٤ ساعة في اليـوم. أعربـت عـن هـذه الرغبـة لقـوى الأمـن. طلبـتُ ٣٠٠ عنـصر مـن فـوج السـيّار. إذا حدثـت مشـكلة مـع سـعد حـدّاد مثـلًا، فيمكـن أن أرسـلهم إلى حيـث أريـد. إذا ضربـت إسرائيـل السـوري والفلسـطيني في الجـرد، أريـد الجيـش أن يتحـرّك فيـما بعـد لفتـح الطـرق.

العـماد: المخابـرات هـي في تـصرّف الرئيـس. الاسـتطلاع العسـكري بقسـم العمليّـات هـو مفصـول. يسـتقي معلوماتـه مـن النـاس عـلى الأرض، ومـن المخابـرات. فيـما يتعلّـق بالعمليّـات عندنـا. (قـال هـذا وسـلّم الرئيـس نموذجًـا عنهـا Specimens) واسـتطرد: سـلّمت الرئيـس وثيقـة بهـذا الشـأن.

الرئيس: هل لك اتصال بمختلف عناصرك أينما كانوا؟

العـماد: كلّا. لكنّـي أسـتطيع القيـام بأعـمال بهلوانيّـة، أي أن أتصـل بالمـلالات. إلّا أنّنـا بدأنـا نتسـلّم أجهـزة كافيـة.

الرئيس: هل لديك جهاز اتصال كافٍ Télécommunications.

العماد: كلا.

الرئيس: أريد تجهيز غرفة عمليّات في القصر مع مختلف المواصلات.

العماد: أخّرونا ٤٨ شهرًا في هذا المضمار.

الرئيس: لأنهم كانوا يستخفّون بنا.

العماد: (بسط خريطة بيروت مشفوعة بنصّ عن العمليّات وشرحها مشيرًا إلى مواقعها على الخريطة).

الرئيس: إقتربوا من المخيّمات، وعلى المدينة وثابروا على عملكم هذا Persévérez le plus possible. يجب أن نقوم بأعمال التنظيف اليوم ما دام البعبع خلفنا.

العماد: أريد ١٠٠٠ عسكري لأدخل بيروت.

الرئيس: أدخلوا خلسة. إعتمدوا المفاجأة، على طريقة الجيش الإسرائيلي. المطار سيستسلم قريبًا. يجب أن يتمّ التطهير بلا مسايرة أو هوادة.

العماد: التعليم عندي يقوم هذا العام (١٩٨٢) على دورة تأسيسيّة ١٥٥.

الرئيس: قانون الدفاع هو أول Réforme سأقوم به في عهدي.

العماد: نسينا ٣٨٥ كيلومترًا يمكن تقصيرها إلى ٢٥٠ كيلومترًا مع سوريا، يجب أن ننتبه لها. ليس هذا الجيش كلّ ما أريد. كانت صعوباتي كثيرة. وعلى الرغم من هذه الصعوبات جنّدنا ٥٠٠٠ في بيروت، و٤٠٠٠ في جبل لبنان. الشمال والبقاع والجنوب ما تزال على حالها. مع سعد حدّاد ٤٥٠ جنديًا. من الممكن أن يكونوا مقصّرين في أعمالهم. لا يجوز أن يكون الجيش مستقطبًا Polarisé على هذا الشكل. لا يجوز أن نكتفي بالتمويه والوشوشة. علينا أن نحارب سوريا علنًا، شقيقتنا سوريا!

مع العميد يوسف وهبه، مفتش وزارة الدفاع العام

إفتتح الرئيس الحوار قائلًا:

- عجيب أمر الجيش، يصعب عليّ فهمه. أضطرُ إلى الاجتماع بأربعة أشخاص لأعرف نوع التنسيق القائم فيه.

العميد: أنا ملحق بالوزير. تقتصر مهمّتي على موضوعين: التثّبت من تطبيق القوانين والأنظمة والتعليمات. أفتّش التعليم. أفتّش الأسلحة. أفتّش الإدارة. أفتّش الصحّة، فإذا بمهّمتي مزدوجة تجمع بين الطبيب والضابط. أحيل كلّ ما لدي إلى الوزير. أضع تقاريري دائمًا في أربع نسخ. والأعمال التي قمتُ بها ثلاثة أنواع:

- برنامج تفتيش سنوي مبرمج وموقّع من وزير الدفاع.
- تفتيش تلقائي على ذوقي. وهنا اصطدم بعقبات.
- تفتيش يأمر به الوزير وبحسب الظروف.

إذا اكتشف المفتش أمرًا يسيئ إلى المصلحة العامة، قلب تفتيشه تحقيقًا. والتحقيقات كنت أرفعها إلى الوزير. وعلى سبيل إعطاء مثل عن مصير التحقيقات، أذكر أن ٦٣ منها تجمّدت ولم يتمّ تنفيذها بعد.

الرئيس: فهمت من التفتيش المركزي أنه مُنع من القيام بأي تفتيش.

العميد: هذا معقول. فأنا المسؤول عن التفتيش.

الرئيس: هل كُلّفت أن تحقّق عمّن «دقّ بالجيش»، أي عن الذين حاولوا النيل من هيبته أو الحؤول دون القيام بواجبه الوطني؟

العميد: لم يكلّفني الوزير.

الرئيس: دورك هو تفتيش. وعملاني، ولا علاقة له بالأوضاع السياسية والنفسانية في الجيش.

العميد: صعدتُ إلى كتيبة المدفعيّة، فرأيتُ فيها خللًا مخيفًا ونقصًا غير جائز إنْ في العناصر أو في المدافع والآليات. وإذا قيل ما هي فعاليّة ذلك؟ فأجيبُ

بـأن هـذا ليـس مـن اختصـاصي. فهـو منـوط بقائـد الجيـش الـذي يقـول إن هـذا مـن اختصاصـه وتقديـره إلى آخـر مـا هنالـك.

الرئيـس: هـل يمكـن أن تعطينـي فكـرة عـن وضـع الجيـش، ومعنويّاتـه وتجهيزاتـه وغيرهـا مـن الأمـور؟

العميـد: العسـكري مثـل الكيـس. إذا امتـلأ وقـف عـلى رجليـه. اليـوم، العسـكري في بـيروت ليـس ممتـازًا. إلا أنـه أفضـل ثـلاث مـرّات مـما كان عليـه قبـلًا، لأنـه أُعطـيَ معنويـات. ولكـن هـذه المعنويـات وحدهـا لا تكفـي، فـإلى جانبهـا يجـب أن يـأكل. العسـكري عندنـا أولًا «ختيـار»، يعـاني همومًـا عائليّـة. لا تُعـرض عليـه مهـمّات واضحـة. ولا هـو واثـق مـن تطبيـق مبـدأ الثـواب والعقـاب. أنـا شـخصيًا أصـدرتُ حكمـي عـلى الجيـش بالإعـدام منـذ سـنتين. أمـا اليـوم فقـد تحسّـن، إذا عولـج بتجديـد التربيـة والتثقيـف Rééducation، والتدريـب، وتحسـين الوضـع المـادي فمـن الممكـن أن يُعطـي شـيئًا. لمـاذا ابـن عـكار نمـر في القـوات اللبنانيـة وغـير صالـح في الجيـش؟ المنـاخ هـو سـبب هـذا التبايـن. ولكـن الأمـل ليـس مقطوعًـا.

الرئيـس: لا تخافـوا القيـام بـأي عمـل غايتـه ضبـط الأمـور. أنـا أحميكـم. لا أريـد تمييـزًا، ووسـاطات، وصفقـات. الجيـش جيـش.

العميد: العقبات التي يجب أن تزول أمامي تُلخص بما يلي:

- سلطة الوصاية، أي دعم الوزير.
- أساليب المماطلة في التنفيذ والتحقيق.
- المناخ السائد وما فيه من القلق وقلّة الثقة بالنفس.
- خضوع المفتّش لضغوط سياسيّة وعسكرّية.
- إستقلالية التفتيش ماديًا ومعنويًا.
- سياسة ثواب وعقاب.
- تشكيلات عامة تضع العنصر الممتاز بالملاك الممتاز.

الرئيس: قانون الدّفاع كلّه قابل لإعادة النظر فيه.

مع العميد زين مكّي، مدير عام الإدارة في الجيّش

إستقبله الرئيس قائلًا:

- أحببتُ أن ألتقيك اليوم لأنتقل غدًا إلى القضاء. أطلعني في نصف ساعة على ما لديك من صعوبات واقتراحات. أنا لستُ هنا لأنتقم من أحد، أو أوظّف الضيعة، أو أعمل قبضاي. علينا أن ننقذ البلد. مسؤوليتكم ضروريّة لهذا الإنقاذ. لأفهم حقيقة الجيش، اضطررت إلى الاجتماع بأربعة أشخاص لأنهم أركان مؤسسة واحدة. وللجيش دور رئيس. إذا كان منضبطًا، انضبط معه الوضع كلّه. أما إذا تشتّت فالبلد يتشتّت معه. إعتمدوا خبرتي ومعلوماتي وأنا معكم.

العميد: يمكن أن يكون حسن الحظ هو الذي يجمعنا بك نحن الأربعة من الناحية المعنويّة. أمّا من الناحية العمليّة فيمكن أن نقول إننا ملزمون بقانون الدفاع. أنا مدير عام في الإدارة. ولكنني في الوقت نفسه، ضابط في الجيش. أشعر بأن حلمي الأكبر أو حلم أي ضابط آخر هو أن أحيا لحظةً أرى فيها جيشي خفّاق العلم. يحزّ في نفسي أن أطوي جيلًا بعد جيل من غير أن أكون واثقًا بنفسي. الحياة العسكرية عنفوان. ومن دون العنفوان هي لا شيء.

الإدارة في الجيش متسكّعة. فيما مضى كان قائد الجيش يتولّى شؤون الإدارة. وكانت له صلاحيات الوزير. لم يكن للوزير شأن في الجيش في الزمن الماضي. القانون الحالي أعطى الوزير صلاحياته الحالية. ولتسهيل الإدارة، فوّض وزير الدفاع قائد الجيش تفويضًا رسميًا، فإذا بفصل الإدارة عن الجيش ركيزة قانونية في قانون الدفاع.

مهماتي هي:

- توفير حاجات الجيش.
- ضمان الخدمات.
- تحديد الموازنة ومراقبتها.

ولما صدّرت مراسيم التطبيق لقانون الدفاع، بدأت عمليّات التجاذب فأوجدت الازدواجية. عندنا مديرية عتاد في الجيش. وعندي مصلحة عتاد. عندنا مديرية

قوّامة (ملابس وما إليها) وعندي مصلحة قوّامة... أضف إلى ذلك: مديريّة هندسة، مديريّة صحة، وعندي ما هو مثلها أو مشابه لها. بدلًا من تحديد العمل الإداري، أوجدوا أجهزة متنوعة واقتسموا هذا العمل، مما أوجد فيه تشعّبات وازدواجيات. أذكر على سبيل المثال أنه كان عندنا تجهيز قوامه الأرقام، لتنظيم أعمالنا(.Ref Document) والتجهيز الحالي يجعلنا ننفق عليه ثلث الموازنة للأسباب التالية:

- الوضع الأمني في البلد وقد يكون هو الذي جمّد الإدارة.
- قانون الدفاع، وإنشاء مجلس عسكري، وإعطاء صلاحيات لمراقبة النفقات.

هذا المجلس هو سوق عكاظ، ومجلس مليّ، ومجلس طوائف. كان كلّ شيء ما عدا ما أراده منه المشترع.

الرئيس: من المحتمل أن يكون المشترع أراده لتجميد مؤسستين.

العميد: سُنّ القانون من غير أن يتعمّق الجيش في درسه. فالمجلس العسكري حجر عثرة في الإدارة. ستة ضباط يفلشون الملف ويضيّعون وقتهم وقد شرّعت الأبواب.

الرئيس: ما هو عديد الجيش.

العميد: ٢٣ ألفًا.

الرئيس: قائد الجيش قال ٢٠ ألفًا.

العميد: القائد أدرى.

الرئيس: كم هو العدد الذي نستطيع إدخاله إلى الجيش.

العميد: إذا كانت الأجهزة فوق ٧٠ بالماية أصبح الجيش (Operational) أي قادرًا على العمل. ولكننا نفتقر إلى العتاد اللازم. الحرب الأهلية قسّمت العتاد لمّا أردنا جمعه. بعثرت عمليتنا. ثم إننا محتاجون إلى كلّ شيء. ليس في الجيش توازٍ عددي. تجهيزاته الإدارية ليست متوافرة، خصوصًا بالنسبة إلى هذه أجهزة الاتصالات التي نزلنا بها إلى بيروت. إنتعش الجيش. فُكّ لجامه. إلتزمنا بالشرعية على مدى سنوات. أما اليوم، فصرنا نتنفّس.

الرئيس: هذه البداية.

العميد: إن شاء الله. مذكرة توقيف الترك، وحثّ قوى الأمن للقبض عليه رفعا المعنويات. فخامتك قائد عسكري سابق. أقرب الناس إلى هذا العهد نحن العسكر. ومن حسن حظّ لبنان أنه ديمقراطي النظام.

أما اقتراحاتي فإني اختصرها بما يلي:

- لبناء الإدارة يجب حصرها في جهاز واحد منعًا للازدواجية.

- قانون المحاسبة العموميّة يجب تعديل مادة واحدة فيه تقضي بدفع ٣٠٠ ألف ليرة وهذا المبلغ لا يكفي.

- المجلس العسكري: كَفّ يده عن الإدارة، فهي ليست في نطاق عمله.

- ليس لدينا مخازن في الجيش.

- مخزون حجم معروف يتطلّب ثقة من فخامتك.

- القروض الأميركية صعبة علينا قليلًا ١٥ بالمائة فائدة... هذا كثير يجب أن تتحوّل هبات.

الرئيس: ستتحوّل.

العميد: أعلّل الأمل بأن إدخال التنظيمات الأساسيّة سيكون من أهمّ الأعمال. هي في نظري إعادة تنظيم أوضاع الجيش. وحتى يتمّ ذلك، أرجو ضبط الوضع بين يديكم. وبعد التسلّم سنعقد جلسات عمل مع كل المعنيين بهذه الأمور. «إكمشوا» الوضع. ضعوا حدًّا للاهتراء.

مع العميد نبيل قريطم، الأمين العام للمجلس الأعلى للدفاع

بدأ العميد حديثه بالتهنئة: نهنئكم ونتمنى لكم التوفيق.

الرئيس: قضينا نصف ساعة لنتكلّم عن أوضاع المؤسسة وعن الصعوبات التي تعرقل مسيرتها الطبيعية. ليس الجيش سليمًا اليوم، ولا القضاء. مساعدة المؤسستين واجبة. أنا هنا لأحكم بإنصاف لا لأعمل بوحي سياسة الضيعة ولا لأنتقم. يجب أن يكون ولاؤنا للبلد، للدولة، للجيش.

العميد: نحن في تصرّفكم. وضعت لكم النصوص القانونية عن وضع الأمانة العامة العسكرية (Ref. Document). وهذه الأمانة العامة تراعي المادة ٧ من قانون الدفاع. المادة العاشرة تحدّد المهمات في القانون.

الرئيس: أفهم أوضاع مؤسسة الجيش اضطررت إلى الاجتماع بأربعة ضباط. أريد أن أرى كيف يكون تعديل القوانين والصلاحيات ليصبح الجيش وحدة متماسكة لا يعتريها شيء من الشرذمة.

العميد: قانون الدفاع الحالي يختلف عن السابق. فالقانون الجديد متعلّق في أكثريته باستعمال الجيش وإدارته (L'emploi de l'armée et sa gestion). وجرى اقتباسه عن القانون الفرنسي من دون أن يؤخذ الوضع اللبناني بعين الاعتبار. فإذا بنا نعمد إلى التسوية والتعديل كلّما دعت التجربة إلى ذلك وكلّما تبيّنت لنا الأخطاء.

الرئيس: ألم تشتركوا جميعًا في وضع القانون؟

العميد: مجلس النواب والحكومة اشتركا في وضعه. فيه نواقص عديدة وأخطاء لا بد من تصحيحها.

الرئيس: أطلب إليك وضع دراسة عن النواقص والأخطاء.

العميد: سأعطيك ما تريد. وأرى أن الممارسة هي الأصل. إنها أهمّ من القانون. تُلغى النواقص بالممارسة الجيّدة حتى يتمّ التعديل. أُطلب فخامتك إلى الجميع أن يسردوا لك هذا الأمر، ومن ثم ضَعْ النصوص لتصحيح الأخطاء والنواقص.

الرئيس: هل عندي غرفة عسكرية في القصر؟

العميـد: موضـوع هـذه الغرفـة مبهـم في القانـون الجديـد، ولكنهـا موجـودة بموجب تنظيـم القصر.

الرئيس: هل لديك ملاحظات؟

العميد: أظنّ أن تكليف الجيش النزول إلى بيروت هو عمل عظيم.

الرئيس: آمل أن يستمرّ التعاون بيننا.

العميد: أنا في تصرّفكم.

مع الأمير فاروق أبي اللمع، المدير العام للأمن العام

بدأ الأمير حديثه بعرض وضع الأمن العام الذي كان متردّيًا قبل أن يتسلّمه، فقال إنه فوجئ بوجود ٤٠٠ ألف هويّة مزوّرة على يد حزب الأحرار، فأصيب بصدمة مذهلة. وأضاف أن الأمن العام تعرّض لمصاعب عديدة أيضًا في العام ١٩٧٨. وقال: ضاعفت عدد أفراد الجهاز العامل في المصلحة، ويجب أن يعامل الرعايا العرب في لبنان كما يعامل اللبنانيون في البلدان العربية. وقد نفذت هذه العملية، فأحدثت ضجة كبيرة، لكّنها شقّت طريقها إلى التنفيذ. وفي ما يختصّ بالأجانب أتمّنى أن يكون في الأمن العام ١٠ آلاف رجل لضبط المرافئ والمداخل. لم تكن لديّ الإمكانات اللازمة لضبطها. لا يمكن ضبط الأجنبي ما لم نضمن ضبط الحدود. والمسألة لا تخلو من الغشّ والرشوة، المفروض أن تمرّ ثلاثة أيام قبل أن نسلّم جواز السفر. وللرشوة دورها في تمديد هذه الأيام الثلاثة. إننا بحاجة إلى معالجة اجتماعية منها: رفع الرواتب، وتكثيف التفتيش، وما إلى ذلك من أمور ثانوية. في أيام فرنجية اتهم سركيس بالعمالة. فرنجيّة تدخّل بشؤوننا، وتلاه في التدخّل رفعت الأسد. وخلاصة القول إن المدير العام ليس في وضع يُحسد عليه.

في ما يختص بالتقارير السريّة، يجب إيجاد نظام (Système) لوضع تقارير تحمينا. ولسنا بحاجة إلى أكثر من تقرير واحد يصل إلى رئيس الجمهورية.

النفقات السرية ٢٩٢ ألف ليرة شهريًا. ثلثاها يذهبان تلقائيًا على يد رئيس الجمهورية، والباقي يُدفع للصحف والمجلات، وللمخبرين. ثلاثة أرباع نفقات الأمن العام تذهب هدرًا. يجب استصدار أمر من وزارة الإعلام لوقف القبض من الأمن العام، لتكن النفقات الصحافية على وزارة الإعلام. ليدفع جوني عبده، وليدفع أيضًا رضوان مولوي.

وإذا أمكن، طلبت إنشاء سجون وتعيين مدير عام لهذه السجون. لم يبق في الأمن العام اليوم أقل مجال للتمييز بين مسلم ومسيحي.

الرئيس: بالنسبة إلى الترقيات، أتلقّى من الوزّان مطالب عديدة.

الأمير: أجّلتها إلى يوم الجمعة. أنا في تصرّفك. أنا عسكري ماروني. عشت في الأحداث وعرفتها عن كثب.

الرئيس: كنا في السفينة نفسها معًا. سأساعدك حتمًا.

الأمير: أنا وفيّ. أكرّر أني في تصرّفك. دعاني فرنجية إلى زيارته. أطلب توجيهًا منك في هذا الشأن.

الرئيس: سأعلمك بما يجب.

حرصت على تدوين كل ما قيل في هذه اللقاءات التي اعتبرتها في حينه التمهيد الأول والأساسي للعهد الجديد. فمن جهة، اكتشفنا أن واقع الإدارة اللبنانية العامة مهترئ ويعاني من صعوبات بنيوية شديدة التعقيد والصعوبة. ولكن من جهة ثانية، لاحظتُ، إلى جانب تدوين الحوادث أن الرئيس الشاب فرض على محاوريه مقدارًا كبيرًا من هيبته وتأثيره. وقد شعرت بأنهم كانوا مقتنعين بقدرته على إجراء الإصلاح المطلوب لإنقاذ الدولة اللبنانية من عجزها الذي أوقعتها فيه سنوات عجاف وظروف محلية وإقليمية ودولية جعلت لبنان فريسة على مفترقات المصالح.

في الساعة الواحدة بعد الظهر من يوم الثلاثاء الواقع فيه ١٤ أيلول ١٩٨٢، إثر انتهاء آخر موعد رسمي للرئيس المنتخب مع المدير العام للأمن العام، دعاني إلى مرافقته إلى دير الصليب لتناول الغداء عند شقيقته الراهبة أرزة. فاعتذرت لارتباطي بموعد مع المصرفي عدنان القصار في المجلس الحربي لاستلام الشيك من البنك الدولي والمخصص للدولة اللبنانية برئاسة الرئيس الجديد. فقال لي: إذن نلتقي في الساعة الرابعة في بيت الكتائب في الأشرفية». وكان من المقرر أن يزور بيت المنطقة في زيارة وداعية، كتحية منه للتضحيات الثمينة التي قدّمها هذا القسم في مسيرته نحو الرئاسة. واتفقنا على أن نلتقي هناك.

في الساعة الثالثة والنصف، اتصل وقال لي: «لا تأتِ إلى الأشرفية، بل إذهب إلى الهوليداي بيتش، فروبرت باريت، سفير الولايات المتحدة الأميركية بالوكالة ذاهب إليك ليسلّمك «شوية ملبّس». ففهمت للتو بأنه يقصد البرقية المنتظرة من إسرائيل، ومن بيغين نفسه، التي تعلن فيها التزامها الرسمي بالاتفاق الذي عقده بشير مع شارون ليل الأحد - الإثنين.

وصل باريت في الرابعة إلا خمس دقائق، فانتحيت به في إحدى الغرف حيث أملى عليّ نص البرقية، باعتبار أنه ملزم بتقديم النص الأصلي إلى الرئيس المنتخب، على حد قوله. وفيها موافقة رئيس وزراء دولة إسرائيل مناحيم بيغين على الاتفاق. وفي ما يأتي نص البرقية مترجم:

فخامة الرئيس بشير الجميّل،

لقد سررتُ لاجتماعكم مع آرييل شارون في ١٢ ايلول ١٩٨٢ في منزلكم في بكفيا حيث اتفقتم على العلاقات المهمة بين لبنان وإسرائيل. إني أهنئكم على هذا الاتفاق مع موافقتي التامة على كافة بنود الاتفاقية.

حفظكم الله

مناحيم بيغين

وفيما كنت أتحدّث مع باريت حول مفاعيل هذا الاتفاق، فجأة سمعت جلبة في خارج الغرفة، فأسرعت إلى فتح الباب وسمعتُ صراخ زوجتي فيفيان وهي تقول: «جورج لقد أذاعوا أن انفجارًا وقع في الأشرفية». فأخبرتُ السفير وركضنا إلى الغرفة المجاورة حيث يوجد جهاز تلفزيون، فرأينا مذيع الأخبار عرفات حجازي يُدلي بالآتي: «الحمد لله، لقد سلم الرئيس بشير الجميّل وسلم لبنان».

عدتُ مع السفير لنتابع الاجتماع، وإذ بزوجتي تصرخ من جديد: «جورج لقد أذاعوا بأنهم انتشلوا جثة جان ناضر من تحت الأنقاض». حينئذ ساورتني شكوك سود لأن من عادة جان الجلوس بالقرب من بشير. فقررتُ إذّاك أن أتوجه إلى الأشرفية. فتركنا السفير وأنا الهوليداي بيتش مسرعين إلى موقع الانفجار. عند وصولي، التقيت أمام بيت الكتائب بديب أنستاز، قائد الشرطة الكتائبية، وغابي توتونجي شقيق صولانج زوجة بشير، وطمأناني أنهما رأيا بشير محمولًا إلى سيارة إسعاف وهو مغطى بالتراب والغبار.

هالني منظر الدمار والضوضاء والصراخ والجنون، فأسرعت راجعًا إلى الهوليداي بيتش حيث كانت تنتظرني على أحرّ من الجمر زوجتي فيفيان. وصعدنا بسرعة إلى بكفيا لملاقاة عمتها جنفياف والدة بشير، واصطدمنا هناك بسؤالها: «أين بشير؟ لم يتّصل بي حتى الآن». والمعروف أن بشير كان يتصل بوالدته عند حدوث أي أمر يشغل البال. وكان حاضرًا في بكفيا كلّ من شارل مالك والأباتي بولس نعمان والشيخ بيار الجميّل. بعد قليل، كلّمتني هاتفيًا صولانج سائلة: «هل رأيت بشير؟» أجبتها بالنفي، فقالت: «إني خائفة جدًا يا جورج وافني إلى المجلس الحربي». فتوجهنا جميعًا إلى هناك حيث كان الوجوم سيد الموقف. وإذا بالدكتور بول الجميل يدخل متجهّمًا ومكفهّر الوجه، لا يستطيع الكلام، وعرفنا منه بصعوبة أنه عاد من مستشفى أوتيل ديو حيث رأى جثة بشير وعرفها من الخاتم في إصبعه ولون قميصه. فما كان من شارل مالك إلا أن ركع وقبّل يد بيار الجميل وهو يبكي بكاءً مرًّا.

\إغتيل بشير في عرينه، بين رجاله ومحبّيه ومؤيّديه، مع نفر من الذين حلموا معه ببناء لبنان هانئ، مزدهر، سعيد يتوارثه الأبناء والأحفاد من بعدنا.

لولا زيارة باريت لكنت معه!

وإني، إذ أسجل هذه الذكريات، أسائل نفسي:

- أي المصيرين هو الأفضل؟ الرحيل معه، أم البقاء بعده؟

\بشير الجميّل أحب الأشرفية. فيها عمل باذلًا أقصى الجهود. بين أهلها لمع، بل تألّق. منها انطلق. ثم... أبى إلا أن يموت فيها.

ما اكتفى بأن يحبها حتى الاستشهاد. بل جعل من حبه رمزًا لا يزول، وعبرة لا تفنى، وأمثولة لا يقوى عليها النسيان.

محاولات اغتيال بشير

تعرّض بشير لمحاولات اغتيال عديدة، أولها عندما استُشهدت طفلته مايا، في ٢٣ شباط ١٩٨٠.

ثم أتت تحذيرات عديدة من الرئيس الياس سركيس حسب معلومات المكتب الثاني في الجيش.

تحذيرات آرييل شارون من الموساد في اجتماعات عديدة أهمها في بكفيا في ١٢ أيلول ١٩٨٢.

تحذيرات إيلي حبيقة وسفير الولايات المتحدة من حضور مؤتمر فاس لرؤساء وملوك العرب الذي كان مقررًا يوم الخميس في ٢ ايلول ١٩٨٢، وحسب المعلومات أن القذّافي كان سيفجّر طائرته على حدود ليبيا.

حبيب الشرتوني منفذ عملية اغتيال بشير بمخطط من سوريا. وهنا تجدر الإشارة إلى أن جان ناضر تدخّل بقوة مع بشير لمنع إعدام الشرتوني بسبب علاقة ناضر مع شقيقته. فتراجع بشير عن قراره، وخاصة بعد إصرار جان على إعطاء الشرتوني فرصة ليقاتل مع قوات الكتائب في منطقة البرجاوي، مدّعيًا أنه سيقتل أثناء المعاركة. لكن الشرتوني «استبسل» في القتال. مما جعل بشير يسامحه ويسمح له أن يقطن مع شقيقته في الشقة فوق طابق بيت الكتائب في الأشرفية. وهناك خطط الشرتوني مع مهندسين يابانيين كشفوا على سلامة البناء وأعمدته وأساساته، مما سهّل له معرفة مقدار العبوة الناسفة الكافية لهدم المقر برمته بعملية التفجير. عرف إيلي حبيقة بتورّط الشرتوني بالعملية عندما فضحته شقيقته التي عادت مولولة فورًا بعد التفجير بعدما أبعدها شقيقها عن بيت الكتائب أثناء الانفجار.

الفصل الخامس عشر:

أمين بعد بشير

بعـد استشـهاد بشـير، قـررت التوقّـف عـن أي عمـل سـياسي. ففقـدان بشـير بعـد الشـيخ موريـس طبعًـا عنـدي خيبـة أمـل مـن إمكانيـة تحقيـق خـلاص لبنـان. فلـو انتخـب الشـيخ موريـس رئيسًـا للجمهوريـة ولـو عـاش بشـير فـترة لـكان حصـل خـلاص لبنـان مـن الحـروب التـي كادت تطيـح بـه. فموريـس الجميّـل كاد أن يُصبـح رئيسًـا بدعـم مـن الرئيسـين فـؤاد شـهاب وشـارل حلـو، فلـو أن الكتائـب آزرتـه آنـذاك لـكان اسـتحصل عـلى العـدد الـكافي للرئاسـة، ولكنهـا فضّلـت سـليمان فرنجيـة عليـه.

ولو أن بشير عاش فترة لكان مشروعه المستقبلي خلاص للبنان.

بعـد استشـهاده، قـرر شـقيقه أمـين خـوض معركـة رئاسـة الجمهوريـة وكان الرئيـس شـمعون في الوقـت نفسـه قـد أعلـن ترشّـحه للرئاسـة.

إسـتدعاني الشـيخ بيـار الجميّـل وطلـب إليّ ان أبقـى بقـرب أمـين كـما كنـت مـع بشـير. إعتـذرت وقلـت لـه إني سـأعود إلى جامعتـي بعـد غيـاب طويـل، فهنـاك موئـلي الطبيعـي. هنّـأني وطلـب لي بالتوفيـق. زارني بعـد يومـين أمـين وطلـب إليّ أن أبقـى معـه فهـو عـلى وشـك الوصـول إلى رئاسـة الجمهوريـة. إعتـذرت منـه، مجـدِّدًا إصراري عـلى العـودة إلى الحيـاة الأكاديميـة. أصرّ ورفضـت ذلـك. في اليـوم نفسـه، زارتنـي صولانـج بشـير الجميّـل وأصرّت عـلى أن أرافـق أمـين لتحقيـق مشـاريع كان سـيقوم بهـا بشـير لـو بقـي رئيسًـا. أصرّت والدمعـة في عينيهـا. فقبلـت في ١٦ أيلـول ١٩٨٢.

مـرّ إلى منـزلي الشـيخ أمـين لأرافقـه إلى بيـت المسـتقبل لحضـور اجتـماع مهـم مـع الإسرائيلـين. وعندمـا وصلنـا إلى المـكان، فوجئـت بوجـود كافـة أركان إسرائيـل تقريبًـا مـا عـدا بيغـين. إذ كان بـين الحضـور: شـامير، شـارون، دايـف، هـوفي نامـير، بيـتر، مانـدي، سـاغي وسـتوربرت.

مـن بعـد مـا عـزّوه بأخيـه سـأله شـارون: هـل اطّلعـت عـلى الاتفاقيـة التـي حصلت بينـي وبـين بشـير ووافـق عليهـا بيغـين. أجابـه أمـين: نعـم لقـد أطلعنـي عليهـا الدكتـور

فريحه بخذافيرها ووافقت على مضمونها كاملة. ثم استطرد شارون ذاكرًا بعض بنود الاتفاقية من عدد أفراد الجيش، إلى المطار، إلى الحدود إلخ.. وكان الشيخ أمين يوافق على جميع البنود. وعندما انتهى شارون من طرح استيضاحاته، أمسك بأمين بكلتا يديه ورفعه قائلًا بالإنكليزية: «مات الملك، عاش الملك»، (the king is dead long live the king) وصفق الجميع. فبادره أمين بأن الرئيس شمعون هو مرشح آخر لرئاسة الجمهورية، فأجابه شارون: «سينسحب الليلة».

وقال له شامير: «يجب أن تُعيّن شخصًا من قبلك ونحن سنعيِّن شخصًا من قبلنا لمتابعة تنفيذ الاتفاقية (Follow Up). فأجابه الشيخ أمين: «جورج فريحه من قبلي»، فردّ شامير: «ديفيد كمحي من قبلنا».

فتحت الشمبانيا تعبيرًا عن الاتفاق الذي تمّ التوصّل إليه.

إنتخب الشيخ أمين رئيسًا للجمهورية في ٢١ ايلول ١٩٨٢ بشكل إجماعي (٧٧ صوتًا).

رافقت الرئيس إلى قصر بعبدا. وبعد ستة أيام، اتصل بي ديفيد كمحي طالبًا اجتماعًا لنحضّر تنفيذ الاتفاقية وفق الوعود المقطوعة. إستأذنت منه لأسأل الشيخ أمين عن موعد اجتماعنا المرتقب مع الإسرائيليين، فدُهشت لجوابه بأنه يجب ألا نجتمع معهم الآن طالبًا التمهل. إعتذرت من كمحي واعدًا بأن أؤمّن موعدًا آخر لربما في اليوم التالي. فقد كنت أجتمع بالشيخ أمين يوميًا صباحًا، واعتبرت أنه سيكون بإمكاني التفاهم معه متى جلسنا.

وفي اليوم التالي، سألته إذا كان بإمكاني أن أحدّد موعدًا لكمحي. أجابني بالنفي قائلًا: «بلا إسرائيل هلّق». إمتعضتُ وحاولتُ أن أقنعه عبر تذكيره بالوعد الذي قطعه لهم، فلم يقبل. وفي اليوم الثالث، فاتحته بالموضوع فكان جوابه قاطعًا وصاخبًا إذ قال لي: «ما راح خليك تجتمع معهم. يحلّو عنا».

تكرّرت مواقف الرئيس أمين الجميّل حيالي، فلم يُراعِ أو يأخذ أو يتبنّى أي استشارة أقدّمها له. مما جعل وجودي معه غير مجدٍ أو مفيد. فقدّمت استقالتي له بعد مئة وستة أيام من وجودي كمستشار أول من القصر. وهذه هي رسالة استقالتي:

أخي أمين،

أرى نفسي منساقاً إلى الكتابة عوضًا عن الكلام الشفهي معك لأنني عالم بأنك تقدّر الكلمة وتحترمها لا بل تقدّسها وترجع إليها كالإنجيل، خاصة إذا كانت وجدانية صادقة ومن القلب إلى القلب.

ككلّ إنسان، إن لي حدسًا يخونني أحيانًا وينبئني بعض الأحيان. أول حدس صدق معي بشأنك هو تنبّئي لك برئاسة الجمهورية عندما كنا صاعدين منذ إثنتي عشرة سنة أنت وأنا في عين سعادة أثناء الحملة الانتخابية لخلافة الشيخ موريس وذلك بسيارتك السوداء العتيقة (*Valiant*) على ما أذكر. وآخر حدس حصل معي عندما عارضتُ جهارًا أمام بشير والمجموعة ترشيحه للرئاسة ليبقى حيًّا ورمزًا للمقاومة اللبنانية، مما حدا بي إلى مقاطعته لمدة أسبوعين من أجل الضغط عليه. ويشهد على إصراري وعنادي ضد ترشيح بشير سليم الجاهل وأنطوان نجم.

أخي أمين،

كان عزائي كبيراً بعد وفاة بشير عندما أصرّيت على أن أكون بقربك في الرئاسة. فنذرتُ نفسي لأن أساعدك بإخلاص وصدق. بدا الحلم جميلًا وكبيراً لأنني سأتابع المشوار معك في خدمة القضية. وبدأت علاقتك معي أجمل وأكبر. لكن، ولمدة ثلاثة أشهر أشعر يومًا بعد يوم بأنني أبعد عنك أكثر وأكثر ويخبو حلمي الجميل. صدّقني أنني ما تألمتُ نفسيًا في حياتي كما تألمت في الأشهر الثلاثة هذه، وكان تألمي ينعكس على زوجتي وعائلتي. وصدّقني أنني ما تعوّدت في حياتي أن أعيش في دوّامة الهبوط لمدّة ثلاثة أشهر تبدأ من القمة وتنزل تدريجيًا إلى حدود التأثّر المعنوي والنفسي كما حصل في القصر. بدأت معك أول يوم وبإشارة طيبة منك كمساعدك الأيمن ورئيس مستشاريك (*Chief of Staff*)، وأصبحتُ اليوم حامل الاسم فقط، إذا بقي ذلك مسموحًا لا حول ولا قوة على شيء. وكمساعدك الأيمن ومستشارك الأول كنت أستأهل حضورًا معك أكثر من مئة وأربعين دقيقة في خلال ثلاثة أشهر.

أخي أمين،

بدأت معك بحدس تحقّق وبحلم جميل دغدغ مشاعري وقلبي. دعني أتركك كي أحافظ على ما تبقى لي من الحلم. إنك عاطفي وإنساني ولذلك تفهمني جيدًا.

سمحت لنفسي أن أكتب إليك باقتضاب إيمانًا مني أنك تقدّر الكلمة وتحترمها وترجع إليها. آسف أنني لم أتفاعل معك كفاية لأعطيك آرائي ونصائحي بأمور عديدة كانت لربما تعطي نتائج أفضل: عن تأليف الحكومة، العلاقة مع إسرائيل، حرب الجبل، مؤسسة بشير الجميّل، القوات اللبنانية، تعيينات الحزب، الإعلام، الإصلاح الإداري وغيرها. لم تراع أو تأخذ أو تتبنىّ أية استشارة قدّمتها لك مما جعل وجودي معك غير مجدٍ أو مفيد.

وقبل أن أودعّك مستقيلًا سأسمح لنفسي أن أبدي نصيحة واحدة فقط وذلك بما لديّ بعد من الثواني الباقية من صفة «المستشار»: كن حكيمًا وليس متفرّدًا في الرأي والتنفيذ لأن بين يديك دولة. ما حكم حاكم في الدنيا إلا واستعان بمقرّبين له أعانوه بالمشورة والتنفيذ.

آمل أن تسمح لك الفرصة في أن تجرّبني وتتعاون معي على غير الشكل الذي حصل في القصر لأني على يقين أن بمقدوري واستطاعتي أن أعطي أكثر مما أعطيت وأساعد أكثر مما ساعدت وأدير رهطًا أو مجموعة أو مؤسسة أحسن مما أدرت. إن ماضيّ يشهد على ذلك.

إني أصلّي لك لتبقى معافًا وحيًّا من أجل أطفالنا وأجل لبنان.

واسلم للمخلص

جورج فريحه

١٩٨٢/١٢/١٧

مـرّت الأيـام مـن دون اتّصـال مـع اسرائيـل، وذات يـومٍ فوجئـتُ بقـرع ديفيـد كمحـي يرافقـه إسحق ليـور، قائـد القـوات الإسرائيليـة في لبنـان بـاب منـزلي في السـاعة الحاديـة عـشرة مساءً. دُهشـتُ لزيارتـه وسـألته كيـف عـرف مـكان منـزلي، ضحـك وقال نعـرف منازلكـم كلّهـا. طـال الاجتـماع ثـلاث سـاعات بحضـور زوجتـي فيفيـان وأنهـى كلامـه بالجملـة التاليـة:

«نحـن نعـرف أن الرئيـس أمـين الجميّـل قـد نكـس بوعـده. قـلْ لـه مـا يـلي: نتوسـل إليـه بـألا يخـلّ بوعـده. فهـو بذلـك يضرّنـا، لكنـه سيقضي عـلى الشـعب اللبنـاني وخاصة عـلى المسـيحيين». قـال جملتـه بالإنكليزيـة ثـم كرّرهـا بالفرنسـية. وبصفتـه الأمـين العـام لـوزارة الخارجيـة الإسرائيليـة والمستشـار الشـخصي لرئيـس الـوزراء الإسرائيـلي مناحيـم بيغـين، أنبأنـا أن كلامـه هـو تهديـد رسـمي مـن دولـة إسرائيـل.

غادرنـا الإثنـان قرابـة السـاعة الثانيـة صباحًـا. إتصلـت بالدكتـور إيـلي كرامـي الـذي يلاصـق منزلـه في الأشرفيـة منـزلي وأصرّيـت عليـه بـأن يوافينـي فـورًا. أتـاني مذهـولًا فصارحتـه بالتهديـد الإسرائيـلي، وطلبـت إليـه أن ينقلـه إلى الرئيـس أمـين الجميّـل. رفـض ذلـك في البدايـة، لكنـه وافـق بعـد إصراري.

في اليـوم التـالي، وبعـد اجتماعـه بالرئيـس أمـين ونقلـه التهديـد الإسرائيـلي إليـه، زارني وقـال: «كان ردّة فعـل الرئيـس أمـين سـيّئة وضـد إسرائيـل».

بعـد ذلـك، يشـهد التاريـخ مـا فعلتـه إسرائيـل في حـرب الجبـل والتهجـيرات المتواصلـة لسـكان الجبـل والمـآسي المتعـدّدة التـي ضربـت مسـيحيي لبنـان.

بعـد أن تراجـع الرئيـس أمـين الجميّـل عـن اتفاقـه مـع إسرائيـل قبـل توليـه رئاسـة الجمهوريـة، وبـإصرار مـن الولايـات المتحـدة، تعـدّدت الاجتماعـات مـع منـدوب إسرائيـل ديفيـد كمحـي ومنـدوب لبنـان أنطـوان فتـال بحضـور منـدوب الولايـات المتحـدة موريـس درابـير، ونتـج عـن ذلـك الاتفـاق الشـهير الـذي سـمي «اتفـاق ١٧ أيـار» الـذي وقّعـه المندوبـون الثلاثـة: درايـبر وكمحـي وفتـال. هـذا الاتفـاق الـذي حظـي بموافقـة الحكومـة بالإجـماع ومعظـم أعضـاء مجلـس النـواب، لم يبرمـه الرئيـس أمـين الجميّـل وألغتـه الحكومـة اللبنانيـة في ٥ آذار سـنة ١٩٨٤، بعـد أن كان مـا كان.

الخاتمة:

ماذا كان يريد بشير

كنا نسهر الليالي حتى ساعات الصباح الأولى نتعاون مع بشير لتحضير خطاب أو ندوة أو مؤتمر. صحيح أنه تألّق على المنابر بعفويته وشخصيته الساحرة الكاريزماتية، لكنه كان يخصّص الوقت لتعميق المفاهيم والمصطلحات التي استخدمها ويبلورها. فكان يتكلّم أو يكتب، كنا سليم الجاهل وأنطوان نجم وأنا وأحيانًا شارل مالك نصحّح ونزيد ونحذف ونستخلص كلمات أصبح يردّدها في خطبه المرتجلة والمكتوبة. فصارت شهادات واستحداثات طبعت مرحلة الثمانينات لا بل تاريخ لبنان المعاصر، ومن بينها:

- لن نكون تينة يابسة تمرّ عليها الفصول دون أن تحرّك فيها الحياة والحركة والثمرة.

- إذا صعب قول الحقيقة فقولوها، لأن التغاضي عنها أصعب بكثير من قولها.

- لا أوافق على كلمة تقولها، لكني استشهد حتى الموت لأفسح لك المجال للتعبير عنها.

- حفظ اللبنانيون تعاليم المسيح، فهم مولعون بالسلام وتوّاقون إليه.

- لا تُقاس المحبة بأيّ معيار فدرهم منها يوازي قناطير من البغضاء.

- التاريخ يُكتب بأجمل ما سجّله المؤرخون وأيضًا بدم شهداء الأمة.

- لا قيمة لأرض شاسعة لا تضم إنسانًا خلاّقًا في حياته.

- إن مرارة الحياة تقف على عتبة الموت.

- لا قيمة لأية قضية وطنية إذا لم تؤمّن للشعوب أمنها وحريتها.

- الصيغة الصالحة لأية دولة تريد البقاء هي التي تضم حضارات لا يخشى فيها أحد على مصيره أو حقوقه.

- الحرية شعلة لا تُطفأ تنير المحبة والكرامة وتستجلب شهداء يدافعون عنها.

- لا يوجد أمن حقيقي في وطن إذا لم يكن أبناؤه أحرارًا.

- للبنان رأسمال وحيد هو حضارتنا لمدى الأجيال.

- لعن المسيح التينة الجوفاء فلن يكون في لبنان تينة بلا ثمرة.

- للشهادة قداسة فكلّ مخلص يقف خاشعًا على قبر شهيد.

- الإدارة إذا لم تتطور بطهر وإخلاص ستبقى راسبة في أعمالها.

- عطاء المحبة له معيار لا يُقاس إلا بالقناطير.

- هدفنا التغيير للوصول إلى الجمهورية الثانية.

- إن الجديد في لبنان لا يكون أرضًا جديدة بقدر ما هو إنسان جديد.

- نحن لا نريد وطنًا قوميًا مسيحيًا، بل وطنًا لجميع اللبنانيين.

- جوهر القضية اللبنانية بكل بساطة، هو أن تتأمّن لكلّ مضطهد في الشرق أرض يتمتّع عليها بأمنه وحريته.

- نريد صيغة تأخذ في عين الاعتبار وجود جميع الطوائف والحضارات اللبنانية بحيث لا يخشى أحد على مصير مهدّد أو حقوق.

- إن الحكم يستمدّ قوته من الديمقراطية.

- الحرية هي الشعلة المقدّسة التي نستمدّ منها المحبة والعزة والكرامة. وسنظلّ أبدًا نستميت في الدفاع عنها والإخلاص لها.

- الأمن الحقيقي هو الأمن الحرّ.

- إن لبنان الذي نؤمن به، هو وطن حريات للجميع.

- أنا آتٍ لمهمّة محددة هي ١٠٤٥٢ كلم مربع.

- لسنا غرباء عن العالم العربي ونريد أن نعيش فيه بسلام.

- يجب أن يصبح عندنا مئة وخمسون ألف جندي مجهّزين بكلّ المعدّات المطلوبة.

- لم تعد الإدارة قادرة على تحمّل كلّ التبعات والرواسب، لذا يجب أن تتطوّر وتتطهّر.

- رأسمالنا الوحيد هو حضارتنا وثقافتنا وتربيتنا.

- من أعطاكم درهم محبة أعطوه منها قناطير.

- نريد أن نحافظ على الأمانة حتى آخر واحد منا.

- إن التاريخ لا يُكتب إلا بدم الشهداء.

- أتيت لأطلب منكم أن تقولوا الحقيقة مهما كانت صعبة.

- لا نودّ أن نركع.

- إننا شعب مولع بالسلام توّاق إليه.

- إن البلاد تحتاج رئيسًا قويًا ونرفض رئيسًا ضعيفًا.

- الحكم القوي هو القوي بقراراته وبقدرته على تنفيذها.

- نحن مستعدون للحوار ليس مع الملائكة فقط بل مع الشياطين لمصلحة لبنان.

- لا يستأهل أن يكون رئيسًا من لا يقف خاشعًا على قبر شهيد.

وكلمته الأخيرة كرئيس:

- إن نجحت في تحقيق الدولة القويّة بحكم قوي على كامل الأرض اللبنانية أكون قد نجحت. وإلا فأنا رئيس جمهورية شرعي على ما يبقى من لبنان.

لم يكـن لـدى بشـير مشروعًـا سياسـيًا أو إيديولوجيـا محـددة، سـعى إلى تحقيقهـا، بقـدر مـا كان مناضلًا في سـبيل قيـم ومبـادئ عـبّرت عنهـا هـذه المصطلحـات والمفاهيـم التـي بلورهـا، وفي مقدّمهـا الحريـة، الثابتـة في جميـع أهدافـه واسـتراتيجياته ومشـاريعه. وبعـد علاقـاتي المبـاشرة معـه التـي امتـدت اثنتـي عـشرة سـنة متواصلـة، اسـتخلصت أن ثمـة أمريـن مهمّـين بنظـره كانـا يدغدغـان مبتغـاه لـو عـاش باعتبارهـما المدخـل لتحقيـق السـلام والاسـتقرار في لبنـان ولتحصـين الحريـة فيـه، وهـما:

أولًا: إعـادة الاعتبـار لرئاسـة الجمهوريـة المفكّكـة الأوصـال، بسـبب عـدم تطبيـق صلاحيـات الرئيـس كـما وردت في الدسـتور، وممارسـة الحكـم برأسـين. لذلـك قـرّر تكليـف إمـا عثـمان الدنـا أو سـليمان العـلي لرئاسـة الحكومـة بعـد أن اطـمأن إلى أنهـما لـن يحرجانـه في الحكـم كرؤسـاء حكومـة، خصوصًـا لأن تطلعاتهـما كانـت بالغالـب لبنانيـة وتضـع مصلحـة لبنـان بالدرجـة الأولى.

ثانيًـا: التصـدّي للانخفـاض الديموغـرافي المتواصـل في أعـداد المسـيحيين مـن نحـو ٨٠٪ في عهـد المتصرفيـة، إلى أكـثر بقليـل مـن النصـف، بعـد إعـلان دولـة لبنـان الكبـير سـنة ١٩٢٠، وإصرار البطريـرك اليـاس الحويـك آنـذاك عـلى ضـمّ الأقضيـة الأربعـة ذات الأغلبيـة المسـلمة، وإلى مـا قـد يقـلّ عـن النصـف في عهـد بشـير.

وللتصدّي لهذا الهبوط الديموغرافي المسيحي كان بشير سيتبنى:

١. مـشروع جـورج الصليبـي، رئيـس مجلـس الخدمـة المدنيـة، ومفـاده الإيعـاز إلى كافـة قناصـل لبنـان في المـدن الكـبرى في الأميركيتَـين وأوروبـا ليرسـلوا إلى لبنـان لوائـح بأسـماء المقيمـين هنـاك مـن أجـل إعـادة الجنسـية اللبنانيـة إليهـم.

٢. إعتـماد الإدارات اللامركزيـة بجميـع وجوههـا مـن فيدرالية وكونفدرالية ومشـتقاتها، كـما وردت في دراسـات لجنـة البحـوث في الكسـليك وأخصائيـين كأنطـوان نجـم وجـان شرف وغيرهـما.

٣. التواصـل مـع بعـض مسـيحيي الـشرق الأوسـط، وبخاصـة الذيـن هاجـروا منهـم إلى أوروبـا والأميركيتـين، بعـد تلقيـه منهـم رسـائل التهنئـة متمنّـين لـه التوفيـق والنجـاح والتـي تعـدّى عددهـا المئـات، وقـد أُرسـلت مـن الجامعـات والمؤسسـات. كـما أُرسـلت أيقونـات وصلبـان مـن كافـة أنحـاء العالـم، وخاصـة مـن أقبـاط

مصر وأشوريّي العراق ومسيحيي سوريا والأردن الذين صرّحوا بأن لبنان هو وطنهم الثاني.

وفي هذا الإطار، فيما يأتي رسالة أنشرها كنموذج يستدعي الانتباه، وهي من الكونت بيار دو لاموت الماركي دي سينون، نيس فرنسا، هذه ترجمتها:

حضرة الرئيس،

إسمحوا لي أن أتقدم بالفرح والأمل الكبير والتهاني لانتخابكم. عاش لبنان ليبقى حيًا وحرًا ومؤمنًا.

حضرة الرئيس، إني أعرض عليكم أن أستضيف على ممتلكاتي الفلسطينيين المتواجدين في لبنان، وخاصة في بيروت، والبالغ عددهم ٣٠٠,٠٠٠ نسمة. فممتلكاتي هذه موجودة في الاندر واللوار على بعد ستين كيلومتر جنوبي غربي مدينة تور. كما إني أقدّم أيضًا لهذا الغرض ممتلكاتي في غرب مدينة مونتريال في كندا. إن عملية نقلهم وإقامتهم ومساعدتهم ستكون على عاتق المنظّمة العالمية والدول العربية. وإذا أُبعدوا عن لبنان سوف لن يشكّلوا بعد ذاك خطرًا عليه.

كذلك يمكنني استضافة عائلات شيعية ودرزية إذا أردتم ذلك. باستطاعة فرنسا القيام بهذا العمل لمصلحتهم.

وتفضّلوا فخامة الرئيس بقبول أصدق تمنياتي من أجل القضية التي تقومون بها للبنان وبركة يسوع المسيح .

المخلص لكم وللعائلة

بيار دو لاموت

نيس ١٩٨٢/٨/٢٤

وفي الختـام، وبعـد اثنتَـي عـشرة سـنة متواصلة مع بشـير حتـى رحيله، سـبقتها اثنتان وعـشرون سـنة مـن حياتـه الصاخبـة، كيـف أصفـه؟ تتسـارع الصفـات وهـي متضاربـة تجسّـد شـابًا مـرّ كالـبرق في ظـلام لبنـان، فأضـاء شـعلة برّاقـة مـا لبثـت أن انطفـأت بسرعـة. فرحـي وحـزني أني رافقـت هـذه الشـعلة وهـي تعيـش في حنايـاي حتـى اليـوم.

تكتـب عنـه، فتكتـب عـن مجـد لبنـان. فالحـرب في لبنـان منـذ تاريـخ ١٣ نيسـان ١٩٧٥ المتشـابكة، المتصاعـدة، المتفاقمـة، لياليهـا الطويلـة هـي لياليـه، وأنوارهـا الحائـرة بـين التألّـق والانطفـاء، بـين الظهـور والاختفـاء، هـي مـا كنـت أراه في عينيـه، في نظراتـه المتوثّبـة إلى فـوق، في تطلعاتـه إلى الغـد المرتجـى، إلى المسـتقبل المنشـود.

مـن عقـده الثالـث إلى عقـده الرابـع، مـشى كأنـه يسـابق الأيـام، يتحـدّى القضـاء، يصـارع القـدر، يختـزل الزمـان، يخلـط الفتـوّة بالشـباب، والشـباب بالرجولـة، ويجعـل العمـر سلسـلة بطـولات تتمـرّد عـلى الألم، تسـتحلي المـرارة، تجـاه الصعـاب، تتخطّـى الكـوارث والنكبـات لتنفيـذ الرجـاء. ليبقـى الأمـل حيًـا وليبقـى لبنـان.

راقبتُـه طويـلًا في جـدِّه ودعابتـه، في فرحـه وحزنـه، في أخـذه وعطائـه. وامتـلأت بـه روحًـا وفكـرًا، وجدانًـا وضمـيرًا، فرحـت أقـول في نفـسي: إذا قـدّر لهـذا الإنسـان أن يعيـش طويـلًا، فسـيكتب التاريـخ عنـه صفحـات فيهـا بيـاض. وإن لم يعمِّـر، فحسـبه اعـتراف الذيـن تأثّـروا بـه، وتعاونـوا معـه - وأنـا أحدهـم - بأنـه أنجـز في سـتة أعـوام ١٩٧٦ - ١٩٨٢ مـا لا ينجـزه سـواه في قـرون، وقفـز فـوق العقبـات قفـزات بطوليـة تثـير الحماسـة، بـل تلهـب الخيـال، واسـتخف بالمـوت، وكاد يـروّض المسـتحيل.

هـذه الكلـمات، أوجـزت مسـافات محـدّدة مـن مراميـه، إلا أنهـا، مهـما بلغـت مـن النجـاح، تبقـى مقـصّرة عـن اسـتيعاب شـخصيته، عـن رسـم صـورة كاملـة تتجـلّى فيهـا مواهبـه ومزايـاه. فهـو الرجـل اللغـز لأجـل الأسـطورة. الرجـل الفـذّ العجيـب...

هـذا بعـض مـا يقـال فيـه مـن غـير أن يفيـه ولـو جـزءًا مـن حقّـه، خصوصًـا بالنسـبة إلى الذيـن أحبـوه حتـى العبـادة، حتـى الإقـدام عـلى الاستشـهاد، حتـى بـذل الحيـاة تلبيـة لإشـارة منـه، أو حركـة، أو غمـزة. إنـه رمـز الشـباب الثائـر المغامـر حتـى الجنـون. يصـلّي في القـداس خاشـعًا وفي أعماقـه طمأنينـة الإيمـان، ثـم يخـرج مـن الكنيسـة ليحمل السـلاح ويـروح... يـروح إعصـارًا لا يعبـأ بالمـوت، لا يكـترث بالخطـر.

هـل هـذه شـجاعة؟ ومـا الشـجاعة إن لم تكـن حـرارة شـباب مؤمّـن بأنـه يناضـل دفاعًـا عـن حـق، وذودًا عـن كرامـة؟

أجـل، هكـذا يـروح. ومتـى عـاد، اسـتقبلتْه ابتسـامةٌ، ورحبـتْ بـه موجـةُ فـرح، وإن مـات، فرثـاؤه ابتسـامة أيضًـا، ولكـن عـلى ثغـره وقـد صفعـت المـوت، وحملـت بركـة مـن أرز الـرب حلّـت عليـه فجعلـت أوجاعـه تسـبيحًا، واستشـهاده قربانًـا يضـاف زهـرة جديـدة إلى إضمامـة الخلـود.

كثير قيل فيه، وأكثر سيقال.

ولكن القول وحده لا يكفيه، ولن يرضيه.

فالغايـة التـي بهـا اسـتقوى، ومـن أجلهـا ناضـل، وفي سـبيلها استشـهد، لم تمـت معـه ولـن تمـوت.

إنها لنا، وفينا، ومنا، ومعنا.

إذا أبقيناهـا، وبقينـا لهـا، وإليهـا تابعنـا المسـيرة، بعثنـا البشـير حيًـا فينـا، وقهرنـا المـوت، وكنـا جديريـن بالحيـاة التـي أرادهـا لنـا.

وغايته ليست سرًا، ولا لغزًا، ولا أحجية، ولا طلمسًا.

هـي واقـع إنسـاني لا ننعـم بخيره، لا يهنـأ بـه الأبنـاء والحفـدة بعدنـا، إلا إذا سرنـا إليـه صادقـين مؤمنـين، مجاهديـن.

هذا الواقع واضح في ما أبقاه لنا بشير.

في معطيات نشاطه، وشجاعته، وكفاحه.

في «القضيـة اللبنانيـة» التـي منهـا اسـتمد النشـاط، ومـن معناهـا القـدسي اغـترف الشـجاعة، وفي سـبيلها كافـح.

فلنسر على دربه، إذا شئنا حقًا أن يعود إلينا.

وإلا، فلا يكون هو قد مات، بل نكون نحن قد اخترنا بعده الفناء.

وإذا نحـن تخاذلنـا، أو تقاعسـنا، أو تجاهلنـا مرمـاه، أو تخلّينـا عـن رسـالته، نكـون قـد انتحرنـا، فقتلنـاه مرتـين. الواقـع أنـه قُتـل مرتـين وثـلاث وأربـع وأكـثر. نعيـد ذكـراه كلّ سـنة وكأنـه لا يـزال معنـا بالـروح وبالوجـدان وبالضمـير فقـط، لا بالوجـود والفعـل والإقبـال. فبعـد خمسـة وثلاثـين عامًـا يمـرّ كالحلـم وحلمـه يقظـة لا تُمحـى مـع السـنين.



الفهرس

الصفحة



جورج فريحة، حائزٌ على الدكتوراه من جامعة مساتشوستس، أستاذ في كليّة الطب في الجامعة الأميركية في بيروت، ومدير فرعها في المناطق الشرقية خلال الحرب.

المؤسّس والمنسّق العام للهيئات الشعبية، ورئيس تجمع الأندية الرياضية، ورئيس المستشارين Chief of Staff للرئيس بشير الجميّل.

نشر أكثر من أربعين منشورًا علميًّا، وله مؤلفات كثيرة في الطب والأدب.

مع بشير، ذكريات ومذكّرات

كان لا بدّ لجورج فريحة من أن يُفرِجَ هكذا فجأة، ودفعة واحدة، ومن دون مقدّمات، عمّا اختزن لديه من حقائق ومعطيات وأسرار حول الحلم-اللغز الذي شكّله الرئيس بشير الجميّل، بعد خمسة وثلاثين عامًا على اغتياله، من دون هاجس التبرير أو تجميل الصورة أو الاستثمار السياسي.

ماذا كان يريد؟ هل كان مشروعه الحقيقي تقسيم لبنان؟ أم التمسّك بالـ ١٠٤٥٢ أيًا تكن التبعات والظروف والمواقف والتحالفات؟ أو في منزلة ما بينهما؟ ما هي حقيقة علاقته مع إسرائيل وحدودها ومراميها؟ هل صحيح أنّ لقاء نهاريًا، بعد انتخابه رئيسًا، أنهى هذه العلاقة أم أصلحها لقاء بكفيًا مع شارون عشيّة اغتياله؟

أجاب جورج فريحة عن هذه الأسئلة، وعن أخرى كثيرة، واضعًا أمام الرأي العام، للمرّة الأولى، محاضر جلسات سرّية تكلّم عنها كثيرون ولم يرها أحد.